

الشيخ
حسين أحمد الخشن





الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٤م



لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٥٥٧٠٠٠/ ٠١ ـ ٥٤٤٤٠٢/ ٠١

خليوي: ٥٦٥٠٧٤/ ٠٣

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

sayedfadlullah@gmail.com
info@tawasolonline.net
info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.sayedfadlullah.org
www.tawasolonline.net
www.fadlullahlibrary.com
youtube/tawasolonline
youtube/sayyedfadlullah

Facebook:
SayyedFadlullah

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين



الشيخ
حسين أحمد الخشن



المقدّمة

في زمن التصحّر الروحيّ والتَّردّي الأخلاقيّ، في الزمن الذي تبلّدتْ فيه الأحاسيسُ وتخشّبت فيه المشاعرُ وتوحّش فيه الإنسانُ وجفّت ينابيعُ المودّة والحُبّ، وتقطّعت فيه سُبُل التراحم والتآخي بين الناس، في زمن هذه حالُه، قد نكون بحاجة ماسّة إلى حديث الرّوح والأخلاق، حديث العقل والحكمة، حديث العاطفة الصادقة واللمسة النبيلة، وحديث كهذا لا شكّ أنّه يساهم مساهمة طيبة في بلسمة الجراح وإيقاظ الضمائر وتنشيط المشاعر.

ولكن هل يكفي هذا؟

لا أعتقد ذلك، فالكلمات والخطابات على أهمّيتها وضرورتها ليست كافية لحلّ مشاكلنا والتخفيف من معاناتنا، لأنّ المشكلة في جوهرها ليست مشكلة بيانيّة وإنّما هي مشكلة بنيويّة، ولذا فنحن أحوج ما نكون إلى التعرّف قبل كلّ شيء إلى مكمن الداء والمرض، ليتسنى لنا بعد ذلك تقديم العلاج، فلنطرح الأسئلة الجريئة بكلّ صراحة وشفافية:

ما هو سرّ مشكلاتنا؟ وهل هي في العمق مشكلات بنيويّة أم «جينيّة»؟ أم دينية؟ أم اجتماعيّة أم سياسيّة؟

وهل صحيح أنّ الإسلام نفسه هو سرّ تخلّفنا وسبب تخبّطنا وتناحرنا؟

ليس خافياً أنّ البعض أخذ يقولها تصريحاً أو تلميحاً: إنّ مشكلتنا في الدين

نفسه وفي نصوصه، وإنّ علينا الانعتاق من هذا الدين إذا أردنا أن نحيا بسلام!

ولكنّنا نعتقد جازمين أنّ المشكلة لا تكمن في الدين نفسه ولا في نصوصه، فالنص ـ على سبيل المثال ـ المسيحي ليس بأفضل ولا أحسن حالاً من النصّ الإسلاميّ، ومع ذلك لم يشكّل عائقاً أمام حركة التغيير والتطوّر التي شهدها الغرب على أكثر من صعيد، والنص الإسلامي «يحمل في جوهره قدرات كامنة على التعايش والتفاعل المثمر مع الحضارات الأخرى»[1].

إنّ المشكلة في جانبٍ رئيسٍ منها، هي في العقل الذي أصابه العُقْم (هو عقم اختياري) إلى حدّ كبيرٍ عن استكناه مقاصد النص الكليّة واستلهامها واستهدائها بطريقة اجتهادية توائم بين النص والواقع، فأوغل نتيجة لذلك في ماضويّة مميتة لا تعمل على السكون والعيش في التاريخ وحسب، بل وتعمل على صنع الحاضر والمستقبل على صورة الماضي، والمشكلة في جانب آخر منها (وهو من مستتبعات الجانب الأوّل ولوازمه) هي في الإنسان المسلم الذي عجز عملياً عن تقديم نموذج إسلاميّ يُحتذى، ونموذج قابل للحياة وقادر على مواكبة العصر.

وفي هذا السياق تكون معاودة النظر في طريقة تعاملنا مع النص، والأهم في رؤيتنا الفكرية الكلامية الموروثة وما يرتكز ويُبتنى عليها من منظومة تشريعية وحقوقية وأخلاقية وقيميّة تكون أمراً مهماً وأساسياً وضرورياً، لأنَّ الخلل في البنية الفكريّة سينعكس ـ لا محالة ـ على المجال التشريعيّ والحقوقيّ وعلى المجال الأخلاقيّ، وسيترك بطبيعة الحال أثراً بالغاً في تركيبة الشخصيّة الإسلامية وكيفية نظرتها للحياة وتعاملها مع الآخر.

(١) الهويات القاتلة لأمين معلوف ص٨٥ ولاحظ ص٧٢.

وإنّي إذ أشكر الله تعالى أن وفّقني للكتابة في أكثر هذه المجالات[1] فإنّي على يقين أنّنا بحاجة إلى مزيد من الحفر في الذّهنيات المتكلّسة والجامدة وفي طريقة تلقّيها للنص ومناهج فهمها له.

وقد وجدت نفسي في هذا الكتاب مُنشدّاً للحديث حول واحد من أهمّ الحقول المعرفيّة المؤثّرة في سلوك الفرد والجماعة، وهو الحقل القيميّ والأخلاقيّ في الإسلام، لأنّ القيم هي المرتكزات الأساس واللبنات الأولى في عمليّة بناء الاجتماع البشري وانتظامه روحيّاً وخلقيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً، فالقيم هي بمثابة الروح للجسد، فكما لا خير في جسد لا روح فيه، فإنّه لا خير في مجتمع لا تحكمه منظومة من القيم والأخلاق.

والحقيقة أنّ المتأمل في الخطاب الديني سوف يفاجئه أن يكتشف أنّ ثمّة قيماً غائبة أو مغيّبة عن واقع المسلمين وحياتهم، ومن أهمّها قيمة الحُبّ، أجل «الحُبّ»، فلا تستغرب ولا تستوحش ـ أيّها القارىء العزيز ـ ، فمع أنّ الباحث لا يحتاج إلى كثير عناء ليكتشف هذا الحضور المكثّف لمفردة «الحُبّ» ومشتقاتها في النصّ الإسلامي الأصيل، كتاباً وسُنَّة، لكنّه سيصاب بالدهشة عندما يلاحظ هذا الغياب أو التغييب لهذه القيمة عن قاموس التداول الإسلامي، وعن أدبيات المسلمين وخطابهم، فضلاً عن سلوكياتهم وأعمالهم وحياتهم، حتى أن البعض من «أهل التقى» ربما يستحي أو يخجل من إيراد هذه المفردة على لسانه!

قد يكون حديثاً استهلاكياً القول: إنّ الإسلام هو دين المحبّة والسلام، دين

(١) ففي المجال الكلامي صدر لي كتاب: «هل الجنة للمسلمين وحدهم؟» وقريباً بإذنه تعالى سيصدر كتاب «أصول الاجتهاد الكلامي»، وفي المجال التشريعي والحقوقي الذي ينظّم العلاقة مع الآخر، كتبت عدّة كتب منها: «حكم دخول غير المسلمين إلى المساجد»، وكتاب «من حقوق الإنسان في الإسلام»، وكتاب: «الإسلام والبيئة، خطوات نحو فقه ـ بيئيّ»، ولديّ كتبٌ في هذا المجال لم تطبع بعد، منها: كتاب الردّة، وكتبت في المجال الأخير، أعني فيما يتصل ببناء الشخصيّة الإسلاميّة العديد من الكتب، منها: كتاب: «حقوق الطفل في الإسلام»، وغير بعيد عن ذلك في بعض الجوانب كتاب: «العقل التكفيري، قراءة في المنهج الإقصائي».

التآخي والتراحم، دين التواصل والحوار، دين العدالة والقسط، لكنّنا وفي زمن الذّبح «باسم الله» أصبحنا معنيين بتوضيح الواضحات، فالسلام هو الأصل في الإسلام، وكلّ هُويّة مغايرة لذلك يراد إعطاؤه إياها، هي هُويّة مزوّرة، وكلّ صورة يراد إلباسها له أو إلصاقها به بما يوحي أنّه دين الكراهية والتكفير والعنف والذبح هي صورة مشوَّهة وباطلة.

هذا هو الإسلام كما نفهمه، ونحلم به ونتطلّع إليه، ونسعى إلى أن نقدّمه إلى البشريّة جمعاء، باعتباره سفينة النّجاة، والضامن لسعادة الإنسان في الدارين.

إنّ كلّ مسلم يحلم أن يرى أمام ناظريه صورة مختلفة عمّا يراه كل يوم من مشاهدَ تهزّ الضمير الإنساني، وأن يسمع كلاماً غير ما يسمعه صبحاً وعشيّاً من كلمات تضجّ بالحقد والكراهية، وأن يجد أمامه صورة ماثلة تحمل نبض الإسلام الأصيل ونفحات النبيّ الكريم، بعيداً عن لغة الكليّات الطوباويّة والشّعارات الفارغة التي تبتعد عن الواقع وتحاذر أن تضع الإصبع على الجرح، هذا الجرح الذي سيظلّ نازفاً بل ويتعمّق النزف والخطر فيه إن لم نجد له الأطباء الأَكْفَاء، وهم العلماء المصلحون الذين يقفون بكلّ جرأة وحزم ليقولوا كلمة الحقّ دون أن تأخذهم في الله لومة لائم.

وربّما يسأل البعض: ألا ترانا نتحدّث عن عالم المُثُل أو نحلم بالمدينة الفاضلة ونحن نتطلّع إلى عالم يسوده الحُبّ والوئام؟

والجواب: لربما كان في الأمر شيء من ذلك، لكنّنا مع ذلك سوف نصرّ على دعوة الحُبّ، لأنّ عالماً تسوده الأحقاد وتفترسه الوحشيّة بحاجة إلى ما يطفىء لهيبه أو على الأقلّ يخفّف من غلوائه، وهل أولى وأجدر من منطق الحُبّ في المساعدة على إطفاء نيران الغرائز المحمومة، والتخفيف من سلبيات الأحقاد الذميمة والقاتلة؟

وسوف يتمّ تسليط الضوء على هذه القيمة الإسلامية الأصيلة (قيمة الحُبّ) من خلال المحاور التالية:

١ ـ دور الحُبّ في الحياة

٢ ـ دور الحُبّ في العلاقة مع الله

٣ ـ دور الحُبّ في العلاقة مع أولياء الله

٤ ـ دور الحُبّ في الخطاب الديني

٥ ـ دور الحُبّ في عاشوراء

٦ ـ الحُبّ بين الحلال والحرام

٧ ـ الدين بين ثقافتَي الحُبّ والحقد

٨ ـ الإسلام وثقافة الأمل

وفي نهاية هذه المحاور أدرجنا بعض الملاحق ذات الصلة الوثيقة بموضوعات هذا الكتاب.

كلّي أملٌ أن يجدَ الأحبّةُ القرّاء في هذا الكتاب شيئاً ممّا يروي غليل عواطفهم ويثري ثقافتهم ويُغني عقولهم ويعمّق مشاعر الحُبّ والودّ لديهم.

ولا يسعني في ختام هذه المقدّمة إلاّ أن أتوجّه إلى الله تعالى أن يجعل قلوبنا متيّمة بحبّه ومولعةً بذكره، فهو الحبيب الأول الذي فطرنا على معرفته وتوحيده ومحبته، ولا أرى إلاّه مصداقاً جلياً لقول الشاعر[1]:

نـقّـلْ فــؤادَكَ حيثُ شئتَ مِــنَ الهوى
مــا الــحُــبُّ إلاّ لـلـحـبـيـب الأوّلِ
كــم مــنــزلٍ فــي الأرضِ يـألـفُـهُ الفتى
وحــنــيــنُــهُ أبـــداً لأوَّلِ مَــنْــزِلِ

(١) من شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي.

وإنّنا نرجو من أعماق القلب ونتطلّع بكلّ صدق إلى أن يكون الله تعالى هو حبيبنا الآخر أيضاً، ليكون كما وصف نفسه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد ٣]، وأن يظلّ سبحانه رفيقنا الدائم الذي لا تنطفئ جذوة حُبّه في قلوبنا إلى يوم لقائه، **«اللهم حبّبْ إليّ لقاءك وأحبب لقائي يا أرحمَ الراحمين واجعل لي في لقائك الراحة والفرج والكرامة»**[1].

حسين أحمد الخشن

١٠ ذو القعـدة ١٤٣٥هـ



(١) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٥٩٦ مقطع من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي.

المحور الأوّل

دور الحُبّ في الحياة

أولاً: الحُبّ أنبل العواطف الإنسانية

ثانياً: الحُبّ ودوره في الإبداع الإنساني

ثالثاً: الحُبّ وانتظام الحياة الاجتماعية

رابعاً: ثقافة الحُبّ والاستغناء عن القانون

خامساً: دور الحُبّ في التربية

سادساً: دور الحُبّ في عمليّة التغيير

سابعاً: أساليب التحابّ

ثامناً: ثمرات المودة والتودّد

المحور الأوّل
دور الحُبّ في الحياة

في هذا المحور الأول، وهو محور أساسي ومهمّ، نسلّط الضوء على أهمية قيمة الحُبّ في الحياة، ودورها في الإبداع الإنساني ومحوريّتها في بناء العلاقات الاجتماعية وفي توثيق عرى التواصل بين شتّى الدوائر الإنسانية.

أوّلاً: الحُبّ أنبل العواطف الإنسانية

إنّ عاطفة الحُبّ التي أودعها الله فينا هي من أجمل العواطف الإنسانية وأنبلها وأعمقها أثراً، فهي منطلق كلّ خير، وهي ـ بكلّ تجلياتها وامتداداتها ـ الطاقة الملهمة للإنسان والمحرّكة له، ولا نبالغ بالقول: إنّ عاطفة الحُبّ هي التي تعطي الإنسان معنى إنسانيّته، لأنّ الإنسان بدون حُبّ هو صخرة صمّاء، ولا يمكن أن نرى في هذه العاطفة من حيث المبدأ شيئاً سلبيّاً، وهكذا هو الحال في كلّ العواطف والغرائز التي أودعها الله فينا وفَطَرَنا عليها، فهي بأجمعها خيرٌ لنا، شريطة أن نوجّهها في الاتجاه الصّحيح، فغريزة الغضب ـ مثلاً ـ أو ما يسمّيه الفلاسفة بالقوّة الغضبيّة، هي بكلّ تأكيد خير للإنسان، وذلك عندما نغضب لله، أو انتصاراً للحقّ، حيث يدفعنا الغضب للدفاع عن أنفسنا أو أعراضنا أو أرضنا، رافضين الذلّ والهوان والخنوع، وهكذا غريزة الشهوة أو ما يسمّيه الفلاسفة بالقوّة الشهويّة هي من الغرائز المهمّة، وهي عنصر خير للإنسان، ويكفي إيجابيّة لهذه الغريزة أنّه لولاها لما استمرَّ النسل البشري، نعم هي بحاجة إلى تنظيم

وتوجيه في الاتجاه الصحيح حتى يسمو بها الإنسان، ولا تستنزله إلى مستوى الشهوانيّة الحيوانيّة.

وهكذا هو الحال في عاطفة الحُبّ بكلّ تجلّياتها، بما في ذلك حُبّ الإنسان لذاته ـ مثلاً ـ فهو ليس أمراً مذموماً، فالإنسان مجبول على حُبّ ذاته، ومَنْ أحبَّ ذاته حقاً وصدقاً فلا بدّ أن يُحبَّ ربَّه، وأن لا يعصيه طرفة عين أبداً، لأنّ عصيانه لربّه فيه تعريض النفس للمهالك، فمن أحبَّ نفسه أحبَّ ربّه، كما أنّ «**مَنْ عرف نفسه عرف ربّه**»[1]، طبقاً لما جاء في الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وإذا كان حُبّ الذات شيئاً جميلاً من حيث المبدأ إذا وُجِّه توجيهاً صحيحاً، فالأَوْلَى أن يكون حُبّ الكمال جميلاً، لأنّ حُبّ الكمال والجمال يدفع الإنسان دائماً نحو الأمام والتطلّع نحو الأفضل، فلا يستكين على كلّ حال ولا يتجمّد على مثال، ولولا هذه العاطفة لكنّا كسائر المخلوقات التي لا تعرف الإبداع ولا التطوّر مهما كانت أفعالها متقنة، أرأيت مملكة النَّحل مثلاً، فإنّها في غاية التنظيم والجمال والإتقان، بيد أنّه جمالٌ ساكن لا يعرف التطوّر والتجدّد، أمّا الإنسان فيتميّز بأنّه يُضفي على أفعاله وصُنعه رونقاً خاصّاً من حيويّته ولمسةً مميّزة من جمال ذوقه المتحرّك الذي لا يحبّ الرتابة والجمود.

ومن هنا فلسنا نبالغ إذا قلنا: إنّ عاطفة الحُبّ هي التي تصنع الحياة وتعطيها جمالها، فلولا حُبّ المفكِّر للمعنى، لَمَا أنتج الفكرَ المبدعَ، ولولا حُبّ الشّاعر لجمال القصيدة، لَمَا أنتج شِعْراً وأدباً، ولولا حُبّ الأم لوليدها لما صبرت على عناء حَمْلِه ووضعه ومشقّة تربيته؛ إنّه الحُبُّ، هو الذي يجعلها تستعذب كلّ هذه المشقّات والآلام وتحمي طفلها بأشفار العيون وتعطيه من روحها وراحتها دون مقابل، ولولا حُبّ الفلّاح للأرض لَمَا أتعب نفسه في إحيائها وغرسها بالأشجار المورقة والورود

(١) أنظر: عيون الحكم والمواعظ ص٤٣.

الزَّاهية، ولولا حُبّ الإنسان للوطن، لَمَا دافع عنه وبذل دمه في سبيله.

وإلى هذا الدور المهمّ والخلاّق للحُبّ في صناعة الحياة أشار الإمام عليّ عليه السلام بقوله: «**عُمّرت البلدان بحُبّ الأوطان**»(1)، فأن تحبّ وطنك معناه أن تَعْمُرَه، وأن تحافظ على جماله، ولا تُسيء إلى بيئته، وأن تحبَّ وطنك معناه، أن تنشر الحُبّ في ربوعه وتبذر الخير في أرجائه. ومن روائع الأدب الإسلاميّ ما نجده في بعض الروايات المرويّة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث تضفي على الرابطة التي تحكم الإنسان بالأرض علاقة نسبيّة، فتنزّل الأرض منزلة الأم، في إشارة إلى ضرورة الرّفق والرأفة بها والاهتمام برعايتها، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**تمسّحوا بالأرض فإنّها أمّكم وهي بكم بَرَّةٌ**»(2).

ومن هنا يتّضح أنّ حُبّ المرء لوطنه وأهله وذويه وبيته وأرضه.. ليس دَنَسَاً، بل هو فعل إيمان وتديّن، «**حُبّ الوطن من الإيمان**»(3)، ويُحكى أنّ رسول

(1) تحف العقول ص ٢٠٧.

(2) المجازات النبويّة ص ٢٦٩، والنوادر للسيد فضل الله الراوندي ص ١٠٤، وقريب منه ما في دعائم الإسلام ج١ ص ١٧٨، والأمر بالتمسح بالأرض في الحديث المذكور أعلاه يحتمل وجهين ـ كما قال الشريف الرضي ـ : «أحدهما: أن يكون المراد التيمم منها في حال الطهارة وحال الجنابة. والوجه الآخر: أن يكون المراد مباشرة ترابها بالجباه في حال السجود عليها، وتعفير الوجوه فيها، ويكون هذا القول أمر تأديب لا أمر وجوب، لأنّ من سجد على جلدة الأرض ومن سجد على حائل بينها وبين الوجه واحد في إجزاء الصلاة، إلا أن مباشرتها بالسجود أفضل. وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يسجد على الخُمْرَة، وهي الحصير الصغير يُعمل من سعف النخل، فبان أنّ المراد بذلك فعل الأفضل لا فعل الأوجب».
ويضيف الشريف الرضي قائلاً: «وممّا يقرب شبهاً من هذا الخبر ما روى من قوله عليه الصلاة والسلام: «**نعمت العَمَّة لكم النخلة**»، فكأنها لانتفاعهم بها وتعويلهم على ثمرتها، قد قامت مقام القريبة الحانية، وذات الرحم المتحفية، ولم يجعلها عليه الصلاة والسلام بمنزلة الأم للناس كما جعل الأرض في الخبر الأول، لأنهم في الحقيقة لم يُخلقوا منها، ولم يُنسبوا إليها، فجعلها من حيث الانتفاع بها بمنزلة أقرب الإناث القرائب من الإنسان بعد اللاتي ولدنه واللاتي ولدهن هو، وتلك عمّة الإنسان وخالته، إلا أنّ أخت الأب أرفع منزلة من أخت الأم، ولذلك جعلها عمّة، ولم يجعلها خالة». أنظر المجازات النبوية ص٢٦٩.
وفي حديث آخر أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل أقبل إليه وهو يضرب الأرض بعصاه: «**لا تضربها، فإنّها أمّكم وهي بكم برّة**»، أنظر: النوادر للسيد فضل الله الراوندي ص ١٠٤.

(3) ذكر الحر العاملي رحمه الله أنّ الحديث هو رواية دون أن يذكر عمّن رويت، أنظر: أمل الآمل ج١، ص ١١ وقد اعتبره البعض من الموضوعات، أنظر: كشف الخفاء للعجلوني ج١ ص٣٤٥، وراجع حول هذا الموضوع ما ذكرناه في كتاب: الإسلام والبيئة ص٤٥.

الله ﷺ عندما هاجر من مكّة المكرّمة وهي وطنه ومسقط رأسه كان يتلفّت وراءه والحنين يغمره ويشدّه إلى ربوعها وبيوتها وإلى كعبتها ومسجدها وإلى أهلها وناسها فيقول مخاطباً إياها: «**الله يعلم أنّي أحبُّكِ ولولا أنّ أهلكِ أخرجوني عنك لما آثرتُ عليك بلداً ولا ابتغيتُ عليك بدلاً**»[١].

وقد كان ﷺ يرسل نفحات حُبّه إلى الطبيعة والجبال فضلاً عن الإنسان والحيوان، وهو القائل فيما يروى عنه: «**أحدٌ جبلٌ نحبّه ويحبّنا**»[٢].

ثانياً: الحُبّ ودوره في الإبداع الإنساني

وتأسيساً على ما تقدّم فإنّا لا نجانب الصّواب إذا قلنا: إنّ الحُبّ هو الطاقة الملهمة لكلّ إبداع، فإنّ الإبداع لا يقوم به إلاّ الأشخاص الذين يعشقون أعمالهم وتربطهم بأعمالهم الحرفيّة أو الفنيّة أو غيرها علاقة حُبّ، أمّا الذين يعملون بروحيّة الموظّف الذي همّه تأمين لقمة العيش والحصول على الأجر المادي فحسب، فلن يتسنّى لهم أن يحجزوا لهم مكاناً في قائمة المبدعين والمميَّزين.

ولذا فإنّ المؤسسات النّاجحة تجارية كانت أو تربوية أو غير ذلك هي التي تعمل على تنشيط الموظّفين لديها ـ باستمرار ـ وتحفيزهم معنوياً ومادياً، وذلك بهدف أن تُخرِجَهم من حالة الرتابة والملل التي تجتاحهم بين الفينة والأخرى، ما يؤثر على إنتاجية الموظف أو العامل، وربما كان أفضل أسلوب على هذا الصعيد هو أن تخلق المؤسسةُ علاقة عشق ومحبّة بين العامل والعمل، ليشعر أنّ هذا العمل هو جُزء من ذاته، ولا شكّ أنّ الأمان الوظيفي له دور بالغ في استمرار الحيويّة لدى العامل والموظف، وهكذا الحال في إكرامه وتقدير جهوده والتنويه باسمه وعدم مساواته مع الموظف الفاشل، فلذلك أيضاً دور في تحفيزه

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري ص ٥٥٥، وعنه بحار الأنوار ج٢١ ص١٢٢.

(٢) صحيح البخاري ج٢ ص١٣٣.

وتشجيعه على مزيد من العطاء بكلّ محبّة وإخلاص، والأهمّ من ذلك هو عدم إرهاقه في العمل حتى لا يشعر أنّ العمل عبء عليه فيغدو كارهاً لعمله، وحينها لن يُنجز الشيء المطلوب منه، بل ربّما كان ما يفسده هو أكثر مما يصلحه، لأنّ تذمّره سوف ينعكس سلباً ليس على انتاجيته فحسب، بل على زملائه أيضاً وعلى الزبائن الذين يترددون على هذه المؤسسة، فإنّ هؤلاء سوف يُحجمون نتيجة سلبيّة الموظف عن التعامل معها مرّة أخرى، وربّما كان الفشل الذي تعانيه الإدارات الرسميّة في الكثير من الدول النامية مردّه إلى ذلك، أعني إلى ما يعانيه الموظف من إرهاق مع عدم إعطائه ما يستحقّ من أجور.

حُبّ المعرفة وتقدّم الاكتشاف

ولا يقتصر دور الحُبّ الإيجابي وتأثيره الفاعل على نجاح الإنسان في حقل العمل فحسب، بل يمتدّ ذلك إلى الحقل العلميّ، فإنّ حُبّ الإنسان للعلم وللمعرفة هو المدخل الأساس لكلّ الجهود العلميّة التي أوصلتنا إلى هذا المستوى المتقدم من الكشوفات العظيمة والهائلة على شتّى الأصعدة، ولولا هذا الحُبّ للمعرفة لما استسهل الإنسان الصعاب وتحمل المشاقّ في سبيل التزوّد المعرفي، لأنّه كما قال الشاعر[1]:

بقدر الكدِّ تُكتسبُ المعالي
ومَنْ طلب العُلى سَهرَ اللَّيالي
تروم العزّ ثمَّ تنامُ ليلاً
يغوص البَحرَ من طَلَبَ اللآّلي

وإنّنا نلاحظ أنّ حُبّ المعرفة والاستطلاع هو فطرة قد فطرنا الله تعالى عليها، فالطفل الصغير يتحرّك غريزيّاً للسؤال عن كلّ ما حوله وما يقع عليه ناظراه، حتى

(١) نُسب هذان البيتان إلى الإمام الشافعي، وربما نسبه بعضهم إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

أنّ أسئلته ـ بسبب كثرتها وإلحاحه عليها ـ قد تسبّب الضجر للأهل أو الأقارب أو الآخرين، فيُظهرون انزعاجهم منه وربّما صرفوه وأبعدوه عنهم وطلبوا إليه أن لا يسأل مرّة أخرى، دون أن يلتفتوا أو يعوا إلى أنّ هذه الأسئلة في حقيقة الأمر تمثّل استجابة لأمرٍ فطري غريزي عند الأطفال، ولولا ذلك لما تعرّفوا ـ أعني الأطفال ـ على الأشياء ولما نمت ثقافتهم وتطوّرت مداركهم.

ومن البديهي أنّ الإسلام في تعاليمه ووصاياه يؤكّد على تنمية كلّ الأحاسيس الفطريّة وتطويرها، ولذا فإنّه يحرّض الإنسان على التعلّم واكتساب المعارف متجاوزاً كلّ الصعاب. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**اطلبوا العلم ولو بخوض اللجج وشقّ المهج**»[1].

ومع أنّ حُبّ الإنسان للعلم هو نزعة فطريّة، لكنّها مع مرور الوقت قد تضعف وتفتر الهمم نتيجة هموم الحياة ومشاغلها، ولذا كانت بحاجة إلى محفّزات ومرغِّبات، وعلى رأس هذه المرغّبات تأتي وصايا الأنبياء والحكماء التي حثّت على طلب العلم وأكدّت على أهميّة بقاء جذوة حُبّه ـ حُبّ العلم ـ مشتعلة في النفوس، ففي الخبر عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**أُغْدُ عالماً أو متعلّماً أو أحبب أهل العلم ولا تكن رابعاً فتهلك ببغضهم**»[2].

ويحثّ الإسلام أيضاً على طلبه ـ العلم ـ حتى لو تقدّم العمر بالإنسان، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**طلب العلم فريضة على كلّ حال**»[3]، ويُنسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[4]، وهو

---

(١) أنظر: أعلام الدين في صفات المؤمنين ص ٣٠٣.

(٢) المحاسن للبرقي ج ١ ص ٢٢٧، والكافي للكليني ج١ ص ٣٤، والخصال للصدوق ص ١٢٣، وقريب منه ما في سنن الدارمي ج ١ ص ٩٧.

(٣) أنظر: الكافي ج١ ص ٣٠، و٣١، وبصائر الدرجات ص٢٢، ودعائم الإسلام ج١ ص ٨٣، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٨١، ومجمع الزوائد للهيثمي ج١ ص ١١٩ و ١٢٠، إلى غير ذلك من المصادر.

(٤) اشتهر على الألسن نسبة هذا الحديث إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ونسبه الكثير من العلماء إليه صلى الله عليه وآله وسلم، أنظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج ٣ ص ٤٠٥، ودراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ج ٤ ص ١٢٦. إلى غير ذلك،

حديث صحيح في المعنى وإن لم تثبت صحّته على مستوى المبنى.

ويحثّ أيضاً على ضرورة نزع العوائق والحواجز من أمام طلب العلم، حيث إنّ الحواجز النفسيّة ينبغي ألّا تمنع من ذلك، ومن هنا لاحظنا أنّ نبيّاً من أنبياء الله تعالى وهو موسى الكليم عليه السلام لم يجد غضاضة في أن يسير في رحلة طويلة بهدف طلب العلم والتلمذة على يدي العبد الصالح، وذلك لأنّه وجد أنّ عنده من العلم ما لم يكن موسى عليه السلام مطّلعاً عليه، فتقدّم إليه بكلّ تواضع طالباً منه الإذن في أن يتبعه ليعلّمه ممّا علّمه الله؛ قال تعالى وهو يحدّثنا عن هذه القضيّة: ﴿**قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا**﴾، [الكهف ٦٦]، وأيضاً ينبغي ألاَّ تمنع وتحُول الحواجز المكانيّة دون السعي في طلب العلم، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اطلبوا العلم ولو بالصين، فإنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم**»(١).

ثالثاً: الحُبّ وانتظام الحياة الاجتماعية

وإذا كان الحُبّ الفطري هو الذي يحكم علاقتنا بالوطن والأرض والحيوان والجبال، فالأوْلى أن يحكم ـ هذا الحُبّ ـ علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، بل لا بُدَّ لنا إذا أردنا بناء مجتمع متماسك ومتضامن ومتكافل من أن ننشر ثقافة التحابّ والتراحم بين أبنائه، فهذه الثقافة هي التي تخفِّف من غلواء الخلافات البغيضة والعصبيات المقيتة والتوترات الاجتماعية وتحدّ من تأثيراتها السلبيّة، وإنّ مجتمعاً تتراجع فيه عاطفة الحُبّ لتحلّ محلّها الكراهية والحقد هو دون شكّ مجتمع محكوم بالانهيار الداخلي عاجلاً أم آجلاً.

ولكن قد يُرجّح كونه من المشهورات التي لا أصل لها، فإنّ البحث والتحقيق لم يوصل إلى نتيجة إيجابية تثبت ورود هذا الحديث منسوباً إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المصادر الحديثية للفريقين، أنظر ولاحظ كتاب: العلم والحكمة في الكتاب والسنة للشيخ الريشهري ص ٢٠٦، فقد وصل إلى النتيجة نفسها التي ذكرناها.

(١) أنظر: روضة الواعظين للفتال النيسابوري ص ١٢، والجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ١٦٨.

في ضوء ذلك، فإنّ من الطبيعيّ أن نحرص على قيمة الحُبّ الفطريّة وأن ننمّيها ونطوّرها ونعمل على جعلها هي اللغة التي تحكم العلاقات الإنسانية على اختلاف دوائرها ومستوياتها، ما يجعل من الحُبّ منهج حياة في تعاملنا مع الناس جميعاً، وليس مجرّد إحساس عاطفي نبيل.

وفيما يلي نستعرض بعض تلك الدوائر التي ينبغي أن تحكمها العواطف الإنسانية النبيلة، وعلى رأسها عاطفة الحُبّ:

١ ـ المودّة والعلاقة الزوجية

ففي دائرة العلاقات الزوجيّة يلعب الحُبّ دور المحور ويمثّل الضمانة لاستمراريّة تلك الحياة واستقرارها، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فالمودّة ـ طبقاً لهذه الآية الشريفة ـ هي التي ينبغي أن تكون حاكمةً بين الزوج وزوجته، وهي لا شك كفيلة بأن تذلّل الصّعاب وتنزع أسباب التوتر والشقاق.

وحيث إنّ جذوة الحُبّ قد تذوي مع مرور الوقت، كان من الملحّ أن يعمل الزوجان على بقائها حيّةً ومستمرّة، وذلك بابتكار أساليب خاصّة تجنّب العلاقة الزوجيّة الروتين المملّ، ويأتي على رأس ذلك اهتمام كلّ طرف بمشاعر الشريك الآخر والعمل على اجتناب ما يتنفرّ منه من سلوكيات أو أعمال أو مظاهر، ومن هنا نجد أنّ الوصايا النبويّة أرشدت إلى ضرورة أن يهيّئ كلّ واحد من الزّوجين نفسه للآخر تمهيداً للعلاقة الخاصة بينهما، فضلاً عن توفير ما يشدّه إليه، ففي الرواية عن الحسن بن جهم قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام (الإمام موسى بن جعفر الكاظم) اختضب، فقلت: جعلت فداك اختضبت! (أي أراك استعملت الخضاب، وهو الحِنّاء)، فقال: **نعم إنّ التهيئة مما تزيد في عفّة النساء، ولقد ترك النساء «نساء» العفّة بترك أزواجهن التهيئة.**

ثمَّ قال: **أيسرّك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت على غير تهيئة؟**

قلت: لا.

قال: **فهو ذاك.** ثمَّ قال: **من أخلاق الأنبياء صلوات الله عليهم التنظّف والتطيّب وحلق الشّعر..»**[1].

ومن هذه الأساليب أيضاً الحرص على إظهار مشاعر الحُبّ تجاه الشريك الآخر وعدم إبقائها حبيسة النفس، لأنّ لإظهارها أثراً كبيراً وطيّباً على مشاعر الطرف الآخر، وهو يُدخل المسرّة على قلبه، ولا سيّما الزوجة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**قول الرجل للمرأة: إنّي أحبّك لا يذهب من قلبها أبداً**»[2].

٢ ـ الحُبّ بين الأبناء وبين الآباء والأمهات

وفي دائرة العلاقة بين الآباء والأمهات من جهة وبين الأبناء من جهة أخرى، فإنّ المحبّة والمودّة تمثّلان صمّام أمان لبقاء الأسرة متضامنة متعاونة متماسكة، وضماناً لحمايتها من التصدّع والانهيار، وتشجيعاً على هذا المعنى وتأكيداً عليه تأتي الوصايا ـ وهي وصايا للآباء والأمّهات معاً ـ المرويّة عن رسول الله ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام حول ضرورة وأهمية محبّة الأطفال.

ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ الله ليرحم العبد لشدّة حُبّه لولده**»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال موسى بن عمران** عليه السلام**: يا ربّ أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال: حُبّ الأطفال فإنّي فطرتهم على توحيدي، فإنْ أَمَتُّهُم أدخلتهم برحمتي جنّتي**»[4].

---

(١) الكافي ج ٥ ص ٥٦٧، وقريب منه ما رواه الصدوق في كتاب: من لا يحضره الفقيه ج ١ ص١٢٢.
(٢) م.ن ج٥ ص٥٦٩.
(٣) م.ن ج٦ ص٥٠.
(٤) المحاسن للبرقي ج١ ص٢٩٣.

ومحبّة الأطفال هي عنصر هام في نجاح العمل التربوي، فإنّ حاجة الأطفال إلى الغذاء العاطفي لا تقلّ عن حاجتهم إلى الغذاء المادي، وإنّ أيّ نقص في الإشباع العاطفي سيترك أثراً سلبيّاً على مستقبل الأطفال وتوازن شخصيّتهم.

وفي المقابل فإنّ الولد مأمور ومدعوّ ـ أيضاً ـ بأن يبادل والديه الحُبّ بالحُبّ، وأن يُخفض لهما جناح الذلّ من الرّحمة، ولا سيّما إذا صارا إلى سنّ الشيخوخة والعجز، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بـ «أرذل العمر»، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء ٢٣ ـ ٢٤].

إنّ محبّة الولد لوالديه هي أضعف الإيمان وأقلّ الواجب تجاههما، فهما أصله وسبب وجوده، ومهما بذل من جهد في الإحسان إليهما والبرّ بهما فلن يوفّيهما القليل من حقوقهما، ومع الأسف فإنّ بعض الأبناء قد تبرد عاطفته تجاه أبويه أو أحدهما لسبب من الأسباب، فيحتاج دائماً إلى أن ينشّط هذه العاطفة باستذكار حقّ الأبوين وما عانياه مع الولد في الصّغر وما تحمّلاه من الأذى لأجل راحته، وقد وجدنا أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام يطلب إلى الله تعالى أن يَعْطِفَ قلبَه عليهما ويُعينه على برّهما واستحضار حقوقهما، يقول عليه السلام: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ الْعَسُوفِ، وأَبَرُّهُمَا برَّ الأُمِّ الرَّؤوفِ، واجْعَلْ طَاعَتِي لِوَالِدَيَّ وبرِّي بِهِمَا أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وأَثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ الظَّمْآنِ حَتَّى أُوثِرَ عَلَى هَوَايَ هَوَاهُمَا، وأُقَدِّمَ عَلَى رِضَايَ رِضَاهُمَا وأَسْتَكْثِرَ برَّهُمَا بِي وإِنْ قَلَّ، وأَسْتَقِلَّ برِّي بِهِمَا وإِنْ كَثُرَ، اللَّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتِي، وأَطِبْ لَهُمَا كَلامِي، وأَلِنْ لَهُمَا عَرِيكَتِي، واعْطِفْ عَلَيْهِمَا قَلْبِي، وصَيِّرْنِي بِهِمَا رَفِيقاً، وعَلَيْهِمَا شَفِيقاً. اللَّهُمَّ اشْكُرْ لَهُمَا تَرْبِيَتِي، وأَثِبْهُمَا عَلَى تَكْرِمَتِي، واحْفَظْ لَهُمَا مَا حَفِظَاه مِنِّي فِي صغري**»(١).

(١) الصحيفة السجادية، من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لأبويه.

بيان: العسوف: الظلوم، والوسنان: النعسان، وعريكتي: طبيعتي ونفسي، يقال: رجل ليّن العريكة: إذا كان سلساً خلوقاً.

٣ ـ مودّة الجيران من مكارم الأخلاق

ومن جملة الدوائر الاجتماعيّة التي أولاها الإسلام أهميّة خاصة: دائرة الجيران، حيث الحاجة ماسّة إلى أن تقوم علاقة المرء بجيرانه على أساس من المودّة والاحترام المتبادل، لأنّ التباغض بين الجيران يسبّب نكد الحياة ويعكّر مزاج المرء ويوتّر أعصابه ويجرّ عليه الكثير من المتاعب الاجتماعية والصحيّة، وليس هناك ضامن أو عامل مساعد على تخفيف التوتّر والتشنّج الذي قد ينشب بين المتجاورين أفضل من المودّة الصادقة والمبنية على الثقة والاحترام المتبادل، ومن هنا فقد عدّت بعض الروايات «التودّد إلى الجيران» في عداد «مكارم الأخلاق»، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ خصال المكارم بعضها مقيّد ببعض يقسمها الله..: صدق الحديث.. والتودّد إلى الجار والصاحب**»[١]، والتودّد هو أسلوب يرمي إلى اكتساب ودِّ الآخرين وليس مداهنتهم أو التذلّل لهم، كما سيأتي توضيح ذلك لاحقاً.

وقد تكون الخطوة الأولى في هذا المقام هي التعرّف على الجار من خلال زيارته وتوثيق عرى العلاقة معه على أساس من الصداقة والأخوّة، وبذلك يتسنّى لك معرفة طباعه وهمومه ومشاكله، فتسعى في الحدّ الأدنى إلى تجنب ما يؤذيه ويزعجه وتحرص على مداراة مشاعره، وقد تسعى للتخفيف عنه ومساعدته.

ولأنّ للجوار أهميةً بالغة في استقرار حياة الإنسان وسعادته، فقد ورد التأكيد على ضرورة اختيار الجار، ففي الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**سلْ عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار**»[٢].

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤٣٤، الباب ٤٩ من أبواب آداب السفر الحديث ٤.

(٢) الكافي ج ٨ ص ٢٤، ونهج البلاغة ج ٣ ص ٥٦.

٤ ـ شعار أخوّة الدين.. «رحماء بينهم»

ولو انطلقنا إلى دائرة الأخوان في الدين، فإنّ توصيفهم القرآني بأنّهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح:٢٩]، كافٍ للتدليل على نوعيّة العلاقة التي لا بدّ أن تحكم المجتمع الإيماني، وهي علاقة التحابّ والتراحم، وإنَّ محبّة الأخ لإخوانه في الإيمان هي حقّ من حقوقهم عليه وحقّه عليهم، كما جاء في الحديث الشريف المتضمّن لبيان حقّ المؤمن على أخيه المؤمن: «**أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، ويكره له ما يكره لها**»[١]، وهذا الحديث يقدّم لنا قاعدة هامة على صعيد ضبط حركة المشاعر تجاه الآخرين، ومفاد هذه القاعدة أنّ على الإنسان أن يجعل من نفسه ميزاناً يحكم العلاقة بينه وبين غيره من الناس ولا سيما الإخوان، ويحدّد على ضوء ذلك كيفيّة تعاطيه معهم، فما يحبّ الإنسان أن تتعامل به الناس معه، فليتعامل به معهم، وما يكره أن يعاملوه به فليحرص أن لا يتعامل به مع الآخرين.

وإنّه لخلل كبير في إيمان الإنسان الذي يحمل في قلبه الكراهية والحسد والضّغينة لإخوانه المؤمنين، فإنّ الإيمان لا بدّ أن يدفع نحو التآخي والتآلف والتّراحم، وأن يساهم في تطهير القلب من الضغائن والأحقاد، قال تعالى في الحديث عن المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال ٦٣].

ويشير الحديث الشريف إلى أنّ محبّة المؤمن لأخيه المؤمن هي من شُعَب الإيمان، فعن رسول الله ﷺ: «**وُدُّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شُعَب الإيمان..**»[٢].

---

(١) هذا الحديث في المقطع الأول منه مروي عن رسول الله ﷺ، أنظر: صحيح البخاري ج ١ ص ٩، وصحيح مسلم ج١ ص ٢٦، ومروي بأجمعه وبالصيغة المذكورة أعلاه عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أنظر: المحاسن للبرقي ج ١ص ١٠.

(٢) الكافي ج٢ ص١٢٥.

وفي ضوء هذا، فإنّ ميزان صدق الإيمان لدى الفرد أو الجماعة لا يكون بكثرة المزاعم والادعاءات أو بمجرد الاكتفاء بالمظاهر والشكليّات، وإنّما يكون بمقدار تَمَثُّلِ قيم المحبّة والتراحم وانعكاسها في سلوك الفرد والجماعة، وقد سئل الإمام أبو الَحسن موسى الكاظم عليه السلام: أيّنا أشدّ حُبّاً لدينه؟ قال: «**أشدّكم حُبّاً لصاحبه**»(١).

ويؤسفني القول: إنّ مجتمعنا الإيماني ـ على مستوى الظاهرة ـ بعيد عن هذه القيم الأخلاقية، بدليل ما نراه من انتشار للضغينة والتحاسد والتباغض بين أبناء هذا المجتمع.

وتذكر بعض الروايات ميزاناً جميلاً للتفاضل بين مؤمن وآخر، وهو ميزان مأخوذ من مبدأ الحُبّ عينه، فمن كان منهما أشدّ حُبّاً لصاحبه فهو أكثر إيماناً، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما التقى مؤمنان قطّ إلاّ كان أفضلهما أشدّهما حُبّاً لأخيه**»(٢).

٥ ـ الحُبّ وتحطيم الحواجز مع الآخر

ولو انطلقنا إلى الدائرة الإنسانية الأوسع، وهي دائرة علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، فإنّ قيمة الحُبّ في هذه الدائرة ـ أيضاً ـ هي الكفيلة بفتح قلوب الناس بعضها على البعض الآخر، وتحطيم السدود وتذليل الصعاب ورفع الحواجز فيما بينهم، ما يساهم في تخفيف النزاعات والتوترات والأحقاد، ويساعد ـ أيضاً ـ على تنظيم الاختلافات وحسن إدارتها، ومن هنا دعت تعاليم الأنبياء عليهم السلام كافّة، وعلى رأسهم النبيّ الخاتم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى عدم وضع السدود مع الآخرين، بل أكّدت وصاياهم على ضرورة اختراق الحواجز المذهبيّة والطائفيّة والعرقيّة وغيرها بغية الوصول إلى جميع الناس.

---

(١) الخرائج والجرائح للراوندي ج١ ص ٤١١.
(٢) الكافي ج٢ ص٢٧.

وإذا كان المسلم يعتقد أنّ دينه هو خير دين، وأنّه يحمل من المفاهيم العقديّة والتشريعيّة والأخلاقيّة ما يمثّل خشبة الخلاص للإنسانيّة، فإنّ هذه القناعة وإن كانت حقاً بالنسبة إليه إلاّ أنّه لا يتسنى له فرضها على الآخرين بالقوة أو باستخدام أساليب العنف سواءً الجسدي أو الكلامي، بل الطريق الأمثل لذلك هو إقناع الآخرين بها، وأفضل طرق الإقناع هي الطريق التي تحبّب الآخر بك وتفتح قلبه عليك، فإذا أحبّك أصغى إليك واستمع إلى كلامك واقتنع بحجتك.

ولا شكّ أنّ دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام ما كان لها أن تنتشر وتلقى الصدى الطيب والواسع في نفوس هذا العدد الكبير من النّاس على مرّ التاريخ إلاّ لأنّهم عليهم السلام ـ بالإضافة إلى انسجام دعوتهم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ـ كانوا أصحاب قلوب كبيرة تحمل الحُبّ للإنسان وتعيش همّ هدايته ويقلقها كثيراً انحرافه عن خطّ الإيمان أو عن جادة الشريعة أو ابتعاده عن مكارم الأخلاق.

وهذا ما كان عليه نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، كان صاحب القلب المفعم بالحُبّ لكلّ الناس ممّن يؤمنون به أو يخاصمونه، وكان يؤلمه كثيراً أن لا يصغي بعض الناس إلى دعوته ويواجهونه بالجحود والاستهزاء، حتى أنّ الله تعالى كان يخفّف عليه صلى الله عليه وآله وسلم يُهدّئ من روعه ويدعوه إلى أن يرحم نفسه وأن لا يحزن كثيراً ولا يأسف لإعراض قومه عن الهدى والحقّ، قال تعالى مخفّفاً عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه ١ ـ ٣].

ودعاه في آية أخرى أن لا يعيش الألم والحسرة بسبب عدم إيمان قومه برسالته، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٣]، والبخوع هو إهلاك النفس من شدة الغمّ والوجد والحزن.

وهذا الحُبّ والإشفاق وذاك الألم والغمّ بسبب ابتعاد الناس عن طريق الهدى

قد انعكس على أساليب الدعوة التي انتهجها الأنبياء عَلَيهِمُ السَّلَامُ، فكانت أساليب محبَّبة غير منفِّرة، عنوانها الحكمة وشعارها الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل ١٢٥]، وأسلوب اللين في الدعوة إلى الله هو مبدأ أساسي لا مجال لتخطيّه على الإطلاق، بل ينبغي اعتماده حتى مع العتاة والطغاة، فضلاً عن عامة الناس، قال تعالى مخاطباً موسى وهارون عَلَيهِمَا السَّلَامُ: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه ٤٣، ٤٤].

٦ ـ الحاكم وضرورة حُبّ المواطنين

وعلى مستوى علاقة الحاكم أو المسؤول بالمواطنين أو ما قد يُصطلح عليهم بـ«الرعيّة»، فإنّ المطلوب منه أن يعيش الحُبّ لهم، وأن يهتمّ لقضاياهم ولأوجاعهم وأحزانهم ومعاناتهم. صحيح أنّ شخصيّة الحاكم لا بدّ أن تتحلّى بالحزم والثبات، لكن على أن لا يتحوّل هذا الحزم إلى قسوة أو ظلم أو انتقام، وعلى أن لا يتحوّل الثبات إلى استبداد واستكبار. إنّ الحاكم عندما يحبّ الناس سيكون ذلك أدعى لأن يعدل بينهم ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ويهتمّ لأمورهم ويسهر على متابعة مشاكلهم وإيجاد الحلول اللازمة لمعاناتهم والتفكير في أفضل السبل لإسعادهم. وأما إذا لم ينبض قلبه بحبّ الناس، فلن يهتمّ بهم ولن تعنيه أوجاعهم شيئاً ولن يصغي إلى شكايتهم، يقول أمير المؤمنين علي عَلَيهِ السَّلَامُ في عهده المعروف لمالك الأشتر: «**وأشعِرْ قلبَكَ الرّحمةَ للرعيّةِ والمحبّةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تَكُونَنَّ عليهم سَبُعاً ضارياً تغتنمُ أَكْلَهم، فإنّهم صنفان: إمّا أَخٌ لكَ في الدينِ، أو نظيرٌ لكَ في الخَلْق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويُؤتي على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطِهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه**»[1].

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٤، يفرط: يسبق، الزلل: الخطأ، يُؤتى على أيديهم في العمد والخطأ: أصله تأتي السيئات على أيديهم، أنظر: شرح الشيخ محمد عبدة للفقرة المذكورة.

وما كان عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليوصي مالك الأشتر أو غيره من الولاة والموظفين بهذه الوصيّة الداعية إلى حُبّ الناس واللطف بهم إلاّ لأنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعيش هذه المعاني العالية ويحمل هذه القيم السامية.

والحقيقة أنّ ما جاء في عهد عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ المذكور إلى مالك الأشتر عندما ولاّه مصر ليس مجرّد وصيّة حاكم إلى جهازه التنفيذي والإداري، فإنّ العهد المذكور هو نصّ قانونيّ بامتياز ووثيقة دستورية تُعتبر من أهم الوثائق القانونيّة في الفقه الدستوري والسياسي الإسلاميّ، ولذا لم تخطئ الأمم المتحدة ممثّلة برئيسها «كوفي أنان»[1] عندما دعت إلى اعتماد العهد المذكور كأحد مصادر التشريع الدولي.

وفي ضوء الوثيقة القانونيّة المتقدّمة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يكون من المهمّ جدّاً بل من اللازم أن يُراعى ما جاء فيها ويؤخذ كمعيار في اختيار الموظفين في جهاز الدولة، ولا سيّما الأفراد الذين يقتضي عملهم أن يكونوا على تماسٍ مباشر مع الناس، وذلك بأن يكون هؤلاء من أصحاب الابتسامة والوجه البشوش، وأن يتجنبوا العبوس في وجه الناس، فضلاً عن التعامل الفظّ معهم أو الإغلاظ لهم بالقول أو الفعل، لأنّ الموقع الذي يجلس فيه الموظف ليس ملكاً شخصيّاً له، كما أنّ الناس ليسوا عبيداً عنده، فيجدر بالموظّف في جهاز الدولة أن يعلم أنّه خادم للناس، وأن يحترم مشاعرهم وكرامتهم، وليس مسموحاً له على الإطلاق أن يخدش مشاعرهم أو يهين كرامتهم أو يسيء إلى إنسانيتهم، وفي الوقت عينه يجدر بعامة الناس احترام هذا الموظف ورعاية مشاعره، ويحرم عليهم التطاول عليه أو تحقيره وإهانته.

إنّ الحاكم الذي لا يمتلك عاطفة جيّاشة تغمر قلبه بحبّ الناس ومداراة مشاعرهم هو حاكم لا يرجى عدله، ولو أنّك دخلت إلى حياة معظم الطغاة

---

(١) وقد قال كوفي أنان حينها: إنّ قول عليّ: «**الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخَلق**» هي عبارة يجب أن تعلّق على كل المنظمات، وأن تنشدها البشرية جمعاء، وقد تناقلت كلامه العديد من الصحف ووسائل الإعلام، أنظر على سبيل المثال: ويكيبيديا ـ الموسوعة الحُرّة، في ترجمة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والظالمين لاكتشفت أنّ ما أوصلهم إلى ما هم عليه من العدوانيّة تجاه الناس هو أنّ ثمّة نقصاً ما في العواطف الإنسانيّة لديهم، وربّما تعرّضوا في سِنِيّ أعمارهم الأولى إلى اعتداء ظالم أو إجحاف أو نقص عاطفيّ، الأمر الذي تحوّل عندهم إلى حقد دفين على المجتمع الذي ظلمهم ولم يهتمّ بهم، ولذا فإنّ ما يرتكبونه بعد ذلك من جرائم هو ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ ردّة فعل على ما حصل معهم وتعرّضوا له من ظلم.

رابعاً: ثقافة الحُبّ والاستغناء عن القانون

وثقافة الحُبّ التي يراد لها أن تحكم العلاقات الإنسانية بمختلف دوائرها لن تغنيَ ـ بطبيعة الحال ـ عن القانون ولن تحلّ محلّه، لأنّ النظرة الواقعيّة إلى الأمور تعلّمنا أنّ الإنسان هو مخلوق ذو طبيعة تعيش تجاذبات داخلية مختلفة ومتضادة، بالإضافة إلى دخول عناصر خارجية تؤثر على إرادته واختياراته.

وبعبارة أخرى: إنّنا عندما نتحدّث عن الإنسان فنحن نتحدّث عن عالم تتشابك فيه المصالح والمبادىء، وتتصارع فيه النفس اللوامة مع النفس الأمّارة، وتتزاحم فيه الغرائز والعواطف، وكثيراً ما ينتصر الحقد على الحُبّ، وتنتصر الغريزة على العقل، وتتقدّم المصالح على المبادىء، وتلتهم الغرائز إنسانيّة الإنسان وتحوّله إلى وحش كاسر يفتك دون رحمة ويقتل دون إحساس أو شعور بالذنب، ومن هنا تنشأ حاجتنا إلى القانون الذي ينظّم ويحاسب ويحاكم، وحاجتنا إلى النظام الذي يحكم بالعدل ويمنع التعدي ويأخذ بيد الظالم والمجرم والمفسد، ولا شكّ أنّ صرامة القانون ستساهم في إيجاد قوّة ردع في النفوس، وبذلك تحصل العبرة ويتّعظ الآخرون من ذوي النوايا الإجرامية، وبهذا الاعتبار أو اللحاظ يكون القانون بما في ذلك قانون العقوبات رغم قسوته مظهر رحمة بالإنسانية، إذ لولاه لساد الهرج والمرج وعمّت الفوضى، فمبدأ المحاسبة أو نظام العقوبات هو لحماية الحياة الإنسانيّة وحفظ

استقرارها، وهذا ما أشارت له الآية المباركة: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة ١٧٩]، فمحاسبة المجرم لا ترمي إلى التشفّي أو الانتقام منه، وإنّما تهدف إلى إصلاحه وتأديبه من جهة، وإصلاح وحماية المجتمع من جهة أخرى.

هذه هي فلسفة القانون ومبرّر وجوده، بيد أنّ ذلك لا يفقد القيم الأخلاقيّة وعلى رأسها قيمة الحُبّ أهميتها في المجال الاجتماعي والإنساني، شريطة أن نعمل على تحويل هذه القيم إلى ثقافة عامة نبشّر بها ونربي الأجيال عليها، وهذا سوف يساعد على تحقيق الغاية التي من أجلها وضعت القوانين وكانت الدساتير والشرائع، وهي تحقيق الانتظام والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي؛ إنّ مفعول المحبّة ـ إذا أحسنّا تربية الأجيال عليها ـ هو أقوى من كلّ القوانين وأبلغ أثراً من كلّ القرارات، إنّ القوانين بإلزاميتها وقسوتها وصرامتها تستطيع أن تحاسب المعتدي وتقتصّ من المجرم أو تزجّه في السجون، لكنّها لن تملك أن تصنع منه إنساناً فاعلاً ينبض بالحُبّ والعاطفة، إنساناً مشاركاً في صنع الحياة، فالقانون ـ ولو كان عادلاً ـ لا يعرف العاطفة ولا يرحم المعتدي والظالم، وإن كان مبدأ العقوبة هو مظهر رحمة بالإنسانية كما أسلفنا، أمّا قيمة الحُبّ ـ عنيت بذلك حُبّ الإنسان للإنسان وحُبّه للخير وللجمال ـ إذا ما ترجمناها إلى ثقافة عامة نبشّر بها وجسدناها في سلوكنا وسلوك من حولنا وحوّلناها إلى نماذجَ تُحتذى وتُقتدى، فإنّها ستخترق كلّ الحواجز والسدود وستخفف من الظلم والتعدّي والجريمة، فتكون بذلك صنواً للقوانين والتشريعات ومكمّلة لها، بل إنّها قد تلغي الحاجة إليها في الكثير من الأحيان، لأنّ المتحابَيْن في الله أو في الإنسانية لن يسمحا لخلافهما في أيّ أمر من الأمور أن يتحوّل إلى صدام.

إنّنا نحتاج إلى قيمة الحُبّ لا لأنّها تُخفِّف من حالات الرجوع إلى القانون والقضاء فحسب، بل نحتاج إليها حتى بعد تطبيق القانون وبعد الترافع إلى القاضي وصدور الحكم، فإنّ صرامة القانون وشدّته قد تُنَمِّي الأحقاد في النفوس

وتجعل الشخص الذي طاله سيف القانون يفكر بالانتقام ويخطط له، ومن هنا نجد أنّ الكثيرين من الناس الذين يدخلون السجون يخرجون منها بعد انتهاء محكوميتهم وهم أكثر إجراماً وعدوانيّة، ولهذا يكون من الضروري والملحّ العمل على إصلاح السجناء وَفْقاً لبرنامج تربويّ هادف، لا تركهم في حالة مزرية، لتكون النتيجة ما هي عليه الحال في الكثير من السجون في بلداننا والتي يدخلها الشخص بسبب جنحة صغيرة ويخرج منها مجرماً محترفاً!

ومن جهة أخرى فإنّ من ينبض قلبه بالحُبّ، حُبّ الله وحُبّ الإنسان، لن يتصرّف مع من يعتدي عليه أو يظلمه من منطلق التشفّي ولو قدر عليه وتمكّن منه، بل سيسمو به الحُبّ ليعفوَ ويسامح، فالعفو عند المقدرة شيمة الكرام، والتشفّي والانتقام ولو من الظالم هو شيمة اللئام، يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل وإحياء حقّ**»(١).

بين العدل والعفو

ولهذا نجد أنّ الإسلام ومع تأكيده على مبدأ العدل المتمثّل في إعطاء المظلوم أو وليّه حقّ الاقتصاص من المجرم والظالم، فإنّه يشجّع على العفو والتسامح، ويعتبر العفو أقرب للتقوى، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة ٢٣٧].

ومن هنا كان من الضروري أن نفرّق بين مقتضيات القانون الذي يحكمه منطق الحقّ العامّ وحفظ النظام والذي يفرض عدم التساهل مع المجرمين والمخلّين بأمن الناس، وبين مقتضيات التربية التي تتحرّك في خطّ تشجيع الفرد على الأخذ بقيم التسامح والرفق والعفو عن المسيئين فيما يتصل بحقه الخاصّ، وهذا المعنى العميق في التفريق بين موجبات القانون ومقتضيات التربية قد أرشد إليه ونبّه عليه الإمام عليّ عليه السلام، فقد سئل عليه السلام: أيّما أفضل العدل أو الجود؟

(١) نهج البلاغة ج٣ ص١٢٧.

فقال عليه السلام: **العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود عارض خاص. فالعدل أشرفهما وأفضلهما**»[1].

فانظر إلى هذه الحكمة البالغة والمنطقية، والتي سبق بها عليّ عليه السلام عصره حيث فرّق بين الحقّ العام والحقّ الخاص، وأكّد على أنّ العدل هو الأساس والقاعدة العامة التي لا بدّ من اعتمادها إزاء كلّ تجاوز للقوانين أو اعتداء على الآمنين، وأما العفو فيبقى حالة خاصة وقيمة أخلاقية لا تلغي القانون ولا تعارضه.

ما يهمّنا التأكيد عليه هنا هو أنّ القوانين والشرائع وما ينبثق عنها من أنظمة ولا سيّما نظام العقوبات قد تستطيع أن تنتصر للمظلوم وتقتصّ من الظالم، وتساهم في تحقيق الأمن والاستقرار، وتحاصر الجريمة وتحدّ منها، إلاّ أنّ صرامة القوانين وشدّتها لا يجب أن تمتدّ إلى نفوسنا فتجعلها نفوساً معبّأة بالحقد والقسوة، بل ينبغي أن تبقى هذه القلوب ملأى بقيم المحبة والتسامح والعفو والرحمة، وبذلك تظلّ هذه القلوب حرماً يستوطنه الله تعالى.

إنّ قلبك هو عرش الله فإذا سَكَنَتْهُ الأحقاد خرج الله تعالى منه وفارقه إلى غير رجعة.

قوّة الحُبّ وحُبّ القوّة

وكما أنّ مبدأ الحُبّ لا يلغي الحاجة إلى القانون حماية للنظام العام، فإنّه لا يلغي دور القوّة ومكانتها، باعتبارها الضامن لاستقرار الاجتماع البشري والحامي له من كلّ أشكال الغزو والعدوان، فالقوّة في منطق الإسلام ليست وسيلة للتسلط ولا يجوز استثمارها على نحو عدواني، وإنّما هي وسيلة للحماية والدفاع، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال ٦٠]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٩٠].

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص١٠٢.

ومنعاً من تحوّل القوّة إلى طغيان أو تحوّل القوي إلى مستبد وظالم كما هي طبيعة الإنسان عندما يجد في نفسه قوة أو غنى، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق ٦ و٧]، منعاً من ذلك كان من الضروري أن تخضع القوّة إلى منطق العدل، وأن تحصّنها منظومة من القيم الأخلاقية، وعلى رأس هذه القيم تأتي قيمة الحُبّ، فمن عاش حُبّ الله وحُبّ الناس فإنّ ذلك سوف يحجزه عن أن يمارس الظلم والعدوان، لأنّ الحُبّ لا يجتمع مع الحقد في قلب واحد.

ومن هنا اتضح أنّ قوّة الحُبّ هي التي تُحصّن حُبّ القوّة وشهوة التسلّط ونزعة الغنى لدى الإنسان من أن تتحوّل إلى طغيان أو استبداد.

خامساً: دور الحُبّ في التربية

وبالعودة إلى الحديث عن التربية فإنّ أفضل أساليبها فاعلية ونجاحاً هي تلك التي تستفيد من قيمة الحُبّ وتعمل على إدخالها إلى فضاءاتها ومناهجها، لتتمّ التربية على قاعدة احتضان الطفل ورعايته والاهتمام به، بحيث «يلعب» المدرّس والمربّي معه دور الأب مع أبنائه، وليس دور الضابط مع الجنود، فالبيت أو المدرسة ليست ثُكْنة عسكريّة يتلقّى فيها الطفل التعليمات والأوامر على طريقة « نفّذ ولا تعترض». إنّ محبّة الطفل ستجعل قلبه مُلْكَ المربي، ولا شكّ ولا ريب أنّ من يمتلك قلب الطفل فإنّه سيمتلك عقله، ويسهل عليه توجيهه ورعايته وتغيير سلوكه المنحرف والأخذ بيده حيث يحبّ ـ أعني المُربّي ـ أو يريد، وقد أشار النبيّ ﷺ إلى أهميّة حُبّ الأطفال وضرورته، وذلك في الحديث المرويّ عنه ﷺ وجاء فيه: «**أحبّوا الصبيان وارحموهم وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم، فإنّهم لا يدرون إلا أنّكم ترزقونهم**»(١).

وذِكْرُ الصبيان في الحديث ليس في مقابل الإناث كما قد يُتوهّم، وإنّما هو من

(١) الكافي ج ٦ ص ٤٩، ومن لا يحضره الفقيه ج ٣ ص٤٨٣.

باب المثال، ومن هنا وردت الوصيّة في البنات والدّعوة إلى الاهتمام بهنّ بشكل لا يقلّ عن الذكور، بل ربّما يزيد عليهم، ولا سيّما في ظلّ ذاك المجتمع العربي الذي زامن البعثة النبويّة، فهو مجتمع عُرِف عنه أنّه مجتمع ذكوريّ إلى درجة امتهان المرأة ووأد البنات[1].

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إنّ الله تبارك وتعالى على الإناث أرأف منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحةً على امرأة بينه وبينها حرمة إلاّ فرّحه الله يوم القيامة**»[2].

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله ليرحم العبد لشدّة حُبّه لولده**»[3].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: «**جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: ما قَبّلت صبياً قطّ! فلما ولّى قال رسول الله ﷺ: هذا رجل عندي أنّه من أهل النار**»[4]، والسرّ في حكمه ﷺ على الرجل أنّه من أهل النار هو أنّ إنسانيّة الإنسان إنّما هي بعواطفه، فإذا خلا قلبه من الرحمة لفلذة كبده وأقرب الناس إليه فكيف تُرجى رحمته وخيره للآخرين؟ ومن لم يكن لديه قلب ينبض بالرحمة فلن تناله رحمة الله، لأنّه وكما ورد في الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمان إرحموا أهل الأرض يرحمْكم مَنْ في السماء**»[5].

والمحبّة التي لا بدّ أن يأخذ بها المربي لا تنفي ـ بطبيعة الحال ـ حاجةَ العمليّة التربويّة إلى الحزم، فإنّ الحُبّ غير المدروس قد يفسد أكثر ممّا يصلح، ولو أنّنا درسنا حياة الفاشلين من الناس لوجدنا أنّ الكثيرين منهم قد عاشوا في أجواء

---

(١) تطرقنا إلى هذا الأمر بشكل مسهب في كتاب «حقوق الطفل في الإسلام» ص ١٦٥.
(٢) الكافي ج٦ ص٦.
(٣) م.ن ج٦ ص٥٠.
(٤) م.ن.
(٥) سنن أبي داوود ج٢ ص٤٦٤، وبحار الأنوار ج٧٤ ص١٦٧.

من «الدلال والغنج» في صغرهم، بحيث كان آباؤهم وأمّهاتهم يوفّرون لهم كلّ طلباتهم ورغباتهم ولا يحاسبونهم على فعل شيء ولو كان قبيحاً، وقد جاء في المثل الصينيّ « إنّ للدلال ضحايا أكثر من ضحايا السيوف».

دور الحُبّ في الصحة النفسيّة

وفي مجال آخر وهو غير بعيد عن حديثنا، فإنّ الأخذ بمبدأ الحُبّ كمنهج في الحياة سيترك أثراً طيباً على صحة الإنسان النفسيّة والجسديّة وعلى استقراره الاجتماعي، لأنّ من يسيطر حُبُّ الله تعالى على قلبه وعقله وينظر إلى الأمور بمنظار التقدير الإلهي فإنّه سيرضى بكلّ ما يواجهه ويتعايش مع كل الظروف والشدائد، كما أنّ من يدرّب نفسه على محبّة الناس ومداراتهم سوف يعيش حياة هانئة سعيدة ملؤها الأمل والرجاء والاستقرار.

وأمّا من يحمل في قلبه الحقد والكراهية فإنّه لن يحصد إلاّ الخيبة والخسران والتوتر النفسي والقلق الروحي.

وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر في المحور السابع من هذا الكتاب، في فقرة «عواقب الحقد الوخيمة».

سادساً: الحُبّ ودوره في عملية التغيير

ومن أهم الميادين أو المجالات التي يلعب فيها الحُبّ دوراً بارزاً وفاعلاً ومؤثراً، مجال الحراك الثوري والجهادي الساعي إلى التغيير نحو الأفضل، فإنّ الملاحظ أنّ أكثر الناس استجابة لنداء التغيير والذين يحملون راية الجهاد في سبيل المبدأ والعقيدة هم أولئك الأشخاص الذين يمتلكون العواطف الجياشة وتتملكهم الأحاسيس النبيلة والطاهرة. إنّ الإنسان الذي يعيش الله في قلبه ويتحسس آلام الناس ومعاناتهم لن يكون حيادياً في قضايا الحق والباطل ولن يجلس على التلّ بل سيندفع بكل حماسة إلى الميدان انتصاراً للمظلوم ورفضاً للظلم والظالمين.

ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ حُبّ المرء لوطنه وبلده هو الحافز الأقوى لانخراطه في العمل الجهادي والثوري الهادف إلى تحريره من رجس الاحتلال، كما أنّ حُبّه للحياة الكريمة هو المحرّك والدافع له للقيام بالثورة في وجه الظلم والاستبداد والطغيان، لدرجة أنّه يسترخص في هذا السبيل بذل النفس وهي أعزّ ما يملك، ويكون مستعداً للتضحية، دفاعاً عن البلاد والعباد، وفداءً للعرض والشرف والدين، قال تعالى وهو ـ يحدثنا عن مكانة الحُبّ على هذا الصعيد ـ: ﴿**وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠**﴾ [الحشر ٩ ـ ١٠].

وأمّا الإنسان المحبّ والعاشق لله تعالى فلن يسترخص الموت في سبيل القضية فحسب، وإنّما سيندفع إلى التضحية والشهادة بكل عشق، ويُقدِّم في هذا السبيل كل ما يقدر عليه بكل حُبّ وإخلاص، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠**﴾ [آل عمران ١٦٩ ـ ١٧٠].

وهذا الحُبّ هو الذي يجعل الشهيد يعيش حالة مميّزة وفريدة من الفرح الروحي والعشق إلى لقاء الله تعالى قبل أن يُستشهد، ودعونا نقرأ سوية هذه الكلمات التي رُويت عن سيد الثائرين والشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام وهي تعكس لنا بكل أمانة ودقة روحية الشهيد: رُوِيَ أنّه عليه السلام لما عزم على الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال: «**الحمد لله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، خُطَّ الموت على وُلْدِ آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي**

اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جُوّفاً، وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين، لن تشذ عن رسول الله ﷺ لُحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنني راحل مصبحاً إنشاء الله»(١).

فانظر إلى قوله عليه السلام: «**ما أولهني**»، والوله هو أعلى درجات الحب وأرفع منازل العشق التي يبلغها الإنسان بحيث تشدُّ انتباهه وتستقطبُ أحاسيسه ومشاعرَه وتسخّر كل طاقاته في خدمة القضية التي يؤمن بها.

والحقيقة أنّ الإنسان لا يمكنه أن يصل إلى رتبة الشهادة، إلاّ إذا كان قلبه مفعماً بالحب لله تعالى ولعيال الله، والناس كلهم عيال الله، ولو أنّنا درسنا حياة الشهداء، لاكتشفنا أنّهم أرهفُ الناس إحساساً وأرقُّهم شعوراً وأنبلُهم خُلُقاً، وسيوافيك بعض النماذج المشرقة عن هذا السمو الروحي والإحساس المرهف لدى شهداء كربلاء في محور لاحق بعون الله تعالى.

ومن الطبيعي أنّ وصول الإنسان إلى رتبة الشهادة ليس أمراً سهلاً ولا يتحقق ذلك بالادعاءات الفارغة ولا بالأماني العريضة، إنّه حصيلة مسار من مجهادة النفس وتربيتها على التحلّي بمكارم الأخلاق وتدريبها على تقديم الرسالة على الذات، والمبادىء على الأهواء، والقيم على المصالح الخاصة، ولا ريب أنّ الإنسان كلّما كان أقرب إلى الفطرة وأبعد عن الارتباط بشبكة من المصالح والعلاقات الخاصة التي تشدّه إلى التفكير في السلامة والراحة والدَّعة فإنّه سيكون أقرب إلى أن يكون شهيداً وشاهداً، ومن هنا جاءت الوصية بالجيل الشاب، «**عليك بِالأَحْدَاثِ فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ**»، كما ورد في الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام(٢).

(١) أنظر: كتاب اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس ص ٣٨.
(٢) الكافي ج ٨ ص ٩٣

أخلاقيات المجاهد والشهيد

وبما أنّ الشهيد هو شخص يحبّ الإيثار ويحمل روح الفداء ويؤثر مصلحة الجماعة والأمة على مصلحته الخاصة، فإنّ ذلك يجعله يتحرّك بحماس واندفاع وعشق للتضحية، لكنه لا يتحرّك بغضب وانفعال، فالحسّ الرسالي يبقى هو المحرّك الأساس له والمسيطر عليه، الأمر الذي يمنعه من إيذاء الناس والإضرار بهم ويحصّنه من الأعمال الطائشة والممارسات العنيفة التي يغلب عليها روح الانتقام ويتحكم بها غرور الشخصية أو فائض القوة، ومن هنا فإنّه ـ أعني الشهيد ـ يأبى أن يسجّل على نفسه القيام بأعمال خسيسة كالتمثيل والتنكيل بأجساد القتلى من أعداء الأمة، أو الخيانة والغدر أو السرقة والنهب والسلب أو غير ذلك من مظاهر العبث والإفساد في الأرض، لأنّ من يُقدم على هذه «الأخلاقيات» هو في حقيقة الأمر ليس مجاهداً ولا يمكن أن يصبح شهيداً.

إنّ المجاهد الشهيد لا تسمح له روحيته وأخلاقه أن يعذّب عصفوراً أو طائراً أو أن يحرق بيت نمل عبثاً، أو ما إلى ذلك من ممارسات، فضلاً عن أن يهتك ستر امرأة أو يقتل طفلاً أو يلجأ إلى أساليب الشتم والفحش ونحوها.

ومن هنا جاءت وصايا النبي الأكرم ﷺ إلى أمراء الجند والمقاتلين وكافة المسلمين بأن لا ينزلقوا إلى مثل هذه التصرفات، ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه الصادق عليه السلام قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً دَعَا بِأَمِيرِهَا فَأَجْلَسَه إِلَى جَنْبِه وأَجْلَسَ أَصْحَابَه بَيْنَ يَدَيْه ثُمَّ قَالَ سِيرُوا بِسْمِ اللَّه وبِاللَّه وفِي سَبِيلِ اللَّه وعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ لَا تَغْدِرُوا ولَا تَغُلُّوا ولَا تُمَثِّلُوا ولَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً إِلَّا أَنْ تُضْطَرُّوا إِلَيْهَا ولَا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً ولَا صَبِيّاً ولَا امْرَأَةً وأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَدْنَى الْمُسْلِمِينَ وأَفْضَلِهِمْ نَظَرَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ جَارٌ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّه فَإِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّه عزّ وجلّ فَإِنْ تَبِعَكُمْ فَأَخُوكُمْ فِي دِينِكُمْ وإِنْ أَبَى فَاسْتَعِينُوا بِاللَّه عَلَيْه وأَبْلِغُوه مَأْمَنَه**»[1].

(١) الكافي ج٥ ص ٣٠

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة (طائر وهو القُبَّرة) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها**»، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «**من حرق هذه**»؟ قلنا: نحن، قال: «**إنّه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**»(١).

إنّ حفظ كرامة الإنسان هي من المبادىء الإسلامية المقاصدية التي لا تقبل الاستثناء والتخصيص، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء ٧٠]، ولذا فمهما كانت ظروف المعركة قاسية فعلى المجاهد مراعاة هذا المبدأ وعدم انتهاكه، لأنّه إنّما يقاتل ـ في جملة ما يقاتل من أجله ـ بهدف حفظ الكرامة الإنسانية.

وإذا كانت ظروف الحرب الاستثنائية لا تبيح للإنسان أن يتجاوز المبادىء الأخلاقية، ومن أهمّها مبدأ حفظ الكرامة الإنسانية، فمن الأَوْلَى أن يكون الأمر كذلك في الظروف العادية، حتى لو كان الإنسان يتصدّق على فقير أو مسكين أو يتيم، فإنّ تصدّقه عليه لا يسمح له بأن يستعلي عليه أو يسحق إنسانيته ويُشعره بالمنّة، قال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة ٢٦٣ ـ ٢٦٤].

واحترام مشاعر الناس وحفظ كراماتهم يتقدم في بعض الجوانب على العبادة نفسها، فقد كان رسول الله ﷺ يراعي مشاعر الأطفال أثناء الصلاة(٢)، ويدعو ـ أيضاً ـ إمام الصلاة إلى التخفيف على المصلين عندما يكون فيهم عجوز أو

(١) سنن أبي داوود ج ١ ص ٦٠٣.

(٢) لاحظ تفصيل ذلك في كتابنا «حقوق الطفل في الإسلام» ص ١٣٢.

مريض، ففي الحديث عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم؟**

فقال: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيماً»[1].

وفي ضوء هذه الوصايا المفعمة بالحُبّ والرحمة، فإنك تصاب بالصدمة والذهول إزاء ما يقوم به أصحاب المنهج التكفيري المتشدد من اللجوء اختياراً ودون مبرر إلى ارتكاب هذه الممارسات الفظّة والفظيعة والتي تقشعر لها الجلود أمام مرأى العالم، مغلّفين ذلك بشعارات إسلامية!

فهل يعقل أن يكون المسلم جهادياً ومشروع شهيد وهو يحمل هذا القدر من الحقد والكراهية واللؤم في حناياه؟! أو يكون رسالياً وهو يتحرك بعدوانية وقسوة منقطعة النظير؟!

وهل يطمح المسلم أن يكون شهيداً أو يجمعه الله مع الشهداء والصدّيقين وهو يمارس هذا القدر من التكبّر والاستعلاء على عباد الله في تعبير واضح الدلالة على سقوطه في فخ الغرور الديني الذي سقط به جمع من أهل الكتاب من قبل، ممن حدثنا عنهم الحق سبحانه وتعالى في الذكر الحكيم بقوله عزّ وجلّ: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾** ﴾ [آل عمران ٢٤]؟!

ألا يعرض هؤلاء القساة أنفسهم على كتاب الله تعالى، وتحديداً على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة ٢٠٤ ـ ٢٠٦]؟! فإنّ هذه الآية لمن

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٠٣.

تدبّرها تهزّ كيان الإنسان المسلم وتجعله دائم الحذر والمراقبة لنفسه وتصرّفاته خشية أن يكون من أهلها.

ونظيرها في الدلالة قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾ [الكهف ١٠٣ ـ ١٠٦].

ألا يحتمل أصحاب هذا المنهج أنهم المعنيون بنبوءة خاتم الأنبياء محمد ﷺ في قوله ـ بحسب ما روي عنه ـ: «**قوم في آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..**»[1].

ألا يرى هؤلاء تطابق أوصافهم وأفعالهم مع ما جاء في هذا الحديث الشريف؟!

إنني وبكل إخلاص أقول لهم: أعيدوا النظر في منهجكم التكفيري المتشدد وبادروا إلى القيام بمراجعة نقدية جادة لما أنتم عليه من حال وما تحملونه من أفكار وتقومون به من أعمال وممارسات، عسى أن يمنّ الله عليكم بالاهتداء إلى الطريق السوي، ويرفع عن بصائركم غشوات العمى.

سابعاً: أساليب التحابّ

ولم يكتفِ النبيّ الأكرم محمّد ﷺ في وصاياه الإنسانية وتعاليمه الهادفة التي تضجّ بالرحمة بدعوتنا إلى اعتماد منطق الحُبّ ولغته في كلّ علاقاتنا وأحاديثنا، بل إنّه علّمنا ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ابتكار أساليب التحابّ ووسائله، وفيما يلي نذكر بعضاً من هذه الأساليب:

(١) صحيح البخاري ج ٨ ص ٥٢

١ ـ «تهادوا تحابوا»

الأسلوب الأول هو أسلوب التهادي، يقول ﷺ فيما روي عنه: «**تَهَادَوْا تحابُّوا**»[١]، فعندما تعود مريضاً أو تذهب لتهنئة صديق فاحرصْ على أن لا تدخل عليه وأنت خالي اليدين، وعندما ترجع من سفر فاحمل معك هديّة معينة إلى أهل بيتك، فإنّ الهدية تُدخل السرور على قلب المزور. إنّ هديتك للآخر قد لا تغنيه ولا تحلّ مشكلته المالية، ولكنّها وبكلّ تأكيد تؤنسه وتدخل السرور على قلبه، وربّما تبدّد الضغائن بينكما وتجلي صدأ القلوب، والهدية ليست بالضرورة أن تكون ذات قيمة ماديّة، فربّما كانت شيئاً معنويّاً أو ذات قيمة رمزية.

والدور المذكور للهدية في نشر نفحات الودّ بين القلوب قد أشار له حديث آخر مرويّ عن الرسول الأكرم ﷺ وجاء فيه: «**الهدية تورث المودّة وتجدّد الأخوّة، وتُذْهِبُ الضغينة**»[٢].

٢ ـ الزيارة وتحويل العدو إلى صديق

ومن الأساليب المساعدة على نشر المحبّة بين الناس: أسلوب التزاور، فإنّك عندما تزور صديقاً أو أخاً أو جاراً أو شخصاً من أرحامك أو جيرانك أو إخوانك، فإنّ زيارتك له سوف تترك أثراً طيّباً في نفسه وتغسل درن القلوب وتحرّك شجن العواطف بشكل إيجابي؛ وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**الزيارة تنبت المودّة**»[٣].

وقد علّمتنا سيرة النبيّ ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام كيف أنّ الزيارة قد تحوّل الأعداء إلى أصدقاء، ومن أجمل ما يروى بهذا الصدد القصة المروية عن الإمام الكاظم عليه السلام، فقد روي: أنّ رجلاً من وُلد عمر بن الخطاب كان بالمدينة

(١) الكافي: ج٥، ص ١٤٤.
(٢) عوالي اللآلي ج ١ ص ٢٩٤، وبحار الأنوار ج ٧٤ ص ١٦٦.
(٣) كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة، نقلاً عن بحار الأنوار ج ٧١ ص ٣٥٥.

يؤذي أبا الحسن موسى الكاظم عليه السلام ويسبّه إذا رآه ويشتم عليّاً عليه السلام!

فقال له بعض جلسائه (جلساء الإمام الكاظم عليه السلام) يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر! فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي وزجرهم أشدّ الزجر. وسأل عليه السلام عن العمري، فَذُكِرَ أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب، فوجده في مزرعة، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا توطئ زرعنا، فتوطّأه أبو الحسن عليه السلام بالحمار حتى وصل إليه، فنزل وجلس عنده وباسطه وضاحكه، وقال له: «**كم غرمت في زرعك هذا؟**

فقال له: مائة دينار.

قال: **وكم ترجو أن تصيب فيه؟**

قال: لست أعلم الغيب!

قال: **إنما قلت لك: كم ترجو أن يجيئك فيه؟**

قال: أرجو فيه مائتي دينار.

قال: فأخرج له أبو الحسن عليه السلام صرّة فيها ثلاث مائة دينار وقال: **هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو!**

قال: فقام العمري فقبّل رأسه وسأله أن يصفح عن فارطه، فتبسّم إليه أبو الحسن عليه السلام وانصرف.

قال: وراح إلى المسجد فوجد العمري جالساً، فلمّا نظر (أي العمري) إليه (أي إلى الإمام الكاظم عليه السلام) قال: ﴿**ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ**﴾ [الأنعام ١٢٤].

قال: فوثب أصحابه (أصحاب الإمام عليه السلام) إليه فقالوا: ما قصتك؟ قد كنت تقول غير هذا؟!

قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قُلْتُ الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام، فخاصموه وخاصمهم، فلما رجع أبو الحسن إلى داره، قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: **أيّما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت؟ إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم، وكُفِيتُ به شرّه**»[1].

٣ ـ المصافحة والعطف

ومن الأساليب المساعدة على شدّ الأواصر وتحريك العواطف بشكل إيجابي: أسلوب المصافحة عند اللقاء، فالمصافحة بما تمثّله من تماس جسدي بين الشخصين لها أثر طيب قد يحرّك العواطف تلقائياً، وهذا ما نبّهت عليه وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**تصافحوا يذهب الغلّ من قلوبكم**»[2].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**تصافحوا فإنّها تذهب بالسخيمة**»[3].

والسخيمة: الحقد والحسد.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ المؤمنَيْن إذا التقيا وتصافحا أدخل الله يده بين أيديهما، فصافح أشدّهما حُبّاً لصاحبه**»[4].

وإدخال الله تعالى يده بين المتصافحَيْن ومصافحته أشدّهما حُبّاً لصاحبه هو تعبير كنائي عن كون المصافحة عملاً مرضياً عند الله تعالى، وهو نظير التعبير عن قبول الله تعالى للصدقة وحُبّه للمتصدق بأنّ الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد الفقير[5].

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ج ٢ ص ٢٣٣، دلائل الإمامة للطبري ص ٣١١.
(٢) كنز العمال ج ٩ ص ١٣٠.
(٣) الكافي ج٢ ص١٨٣.
(٤) م.ن ج٢ ص١٧٩.
(٥) ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما تقع صدقة المؤمن في يد السائل حتى تقع في يد الله**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة ١٠٤]، أنظر: وسائل الشيعة ج ٩ ص ٤٣٤، الباب ٢٩ من أبواب الصدقة الحديث ٣.

وفي حديث آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً قال: «**إنّ المؤمنَيْن إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عزّ وجلّ يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدّهما حُبّاً لصاحبه، فإذا أقبل الله عزّ وجلّ بوجهه عليهما تحاتت عنهما الذنوب كما يتحاتّ الورق من الشجر**»(١).

وتزداد أهميّة المصافحة وتأثيرها الإيجابي عند تلاقي الأرحام، ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الرّحم إذا تماست تعاطفت**»(٢).

٤ ـ حُسْنُ الخُلق

ومن هذه الأساليب التي تورث المحبّة: طيب الخُلُق وحسن العشرة مع الناس، فذلك ـ دون شكّ ـ كفيل بإذابة الجليد، وتليين القلوب، وتمتين الأواصر، وتخفيف العداوات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت ٣٤].

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حُسْن الخلق يورث المحبّة ويؤكّد المودة**»(٣).

ومحاسن الأخلاق التي تساعد على نشر أواصر المحبّة بين الناس وتقريب القلوب بعضها إلى بعض كثيرة، ونحن نشير إلى أهمّها:

أ ـ **حُسْنُ الصّحبة**، فمن يعاشر الآخرين معاشرةً طيبة ويكون خفيف

---

(١) المصدر السابق ص١٨٠.

(٢) عيون الحكم والمواعظ ص١٤٩، وروي نظيره عن الإمام الصادق عليه السلام، رواه المسعودي في إثبات الوصية في حديث دخوله على المنصور قال: ثم أقبل حتى انتهى إلى الباب فاستقبله الربيع الحاجب، فقال له: ما أشد غيظ هذا الجبار عليك! يعني ما قد همّ به أن يأتي على آخركم، ثم دخل إليه فاستأذن له، فأذن، فدخل فسلّم عليه، فروي أنه عليه السلام صافحه، وقال له: «**روينا عن رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **أنه قال: إنّ الرحم إذا تماست عطفت**» فأجلسه المنصور إلى جنبه، ثم قال: [فإني] قد انعطفت وليس عليك بأس»، أنظر: مستدرك الوسائل للمحدّث النوري ج١٢ ص١٤، الباب ٥٣ من أبواب جهاد النفس الحديث ٢٢.

(٣) م.ن ص٢٢٨.

الظّل، فإنّ ذلك يجعله محبوباً عند جلسائه وأصحابه، في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حسن الصحبة يزيد في محبّة القلوب**»[1].

ب ـ **لين الكلام**، والكلام الطيب الليّن هو مفتاح للقلوب، ومؤثر في النفوس، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**عوّد لسانك لين الكلام وبذل السلام يكثر محبّوك ويقلّ مبغضوك**»[2].

ج ـ **البشاشة**، وابتسامة الإنسان وبشاشته في وجوه الآخرين هي خير سفير يرسله إليهم، وأفضل سبيل لتوثيق العلاقة معهم، عن عليٍّ عليه السلام: «**البشاشة حبالة المودة**»[3].

وفي خبر آخر عنه عليه السلام: «**سبب المحبّة البِشْر**»[4].

د ـ **التواضع**، ودور التواضع في توثيق عرى العلاقة الخالصة مع الناس واضح ولا يحتاج إلى شاهد أو دليل، لكنْ إذا أردت أن تعرف ما قد يتركه التواضع من أثر طيب في قلوب الآخرين فانظر إلى نفور قلبك واشمئزاز نفسك من المتكبرين والمتعجرفين، ومن هنا ورد عن عليٍّ عليه السلام: «**ثمرة التواضع المحبّة**»[5].

هـ ـ **الإخلاص والوفاء**، إنّ من يكون وفياً مخلصاً في تعامله مع الآخرين فمن الطبيعي أن يربح صداقتهم ويكسب ودّهم، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**سبب الائتلاف الوفاء**»[6].

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٢٢٨.
(٢) م.ن ص٣٤٠.
(٣) م.ن ص٤٤.
(٤) م.ن ص٢٨٢.
(٥) م.ن ص٢٠٩.
(٦) م.ن ٢٨٢.

وعنه عليه السلام: «**دارِ عدوَّك وأَخْلِصْ لودودك تحفظِ الأخّوة وتُحْرِزِ المروّة**»[1].

و ـ **الرفق**، والرفق في التعامل مع الناس هو من أيسر الطرق وأسهلها ليربح المرء محبتهم ويكسب صداقتهم، فعن الإمام عليٍّ عليه السلام: «**من لانت عريكته وجبت محبته**»[2].

ز ـ **تناسي المساوىء**، ومن محامد الأخلاق التي تُكْسِبُ الإنسان محبّة الآخرين، أن يتغاضى عن مساوئهم ولا يتتبّع عوراتهم، فعَن أمير المؤمنين عليه السلام: «**تناسَ مساوىء الإخوان تستدمْ ودّهم**»[3].

ح ـ **الكرم**، ولا ريب أنّ السخاء والكرم هو من الأخلاق الطيبة التي تجعل الإنسان يربح محبّة الآخرين، بخلاف البخل فإنّه يوجب مقتهم له وانفضاضهم عنه، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**السخاء يُكسب المحبة ويزيّن الأخلاق**»[4].

وعنه عليه السلام: «**الكريم عند الله محبور مثاب وعند الناس محبوب مهاب**»[5].

٥ ـ الإيمان وجاذبيته

وتعتبر بعض النصوص الدينية أنّ الإيمان بالله سبحانه وتعالى ومحبّته والاستقامة على خطّ طاعته هي من أهمّ العوامل المؤثرة في اكتساب الإنسان محبّة الآخرين، ونيل رضاهم، وهذا أمر منطقي للغاية ولا يحتاج إلى أن نقدّم له تفسيراً غيبيّاً، فإنّ المؤمن بالله تعالى إيماناً حقيقيّاً يكون من الطبيعي أن ينعكس

(١) المصدر السابق ص٢٥١.
(٢) م.ن ص٤٤٣.
(٣) م.ن ص٢٠٠.
(٤) م.ن ص٤٤.
(٥) م.ن ص٦٧.

إيمانه على شخصيّته فيهذّب أخلاقه ويصقل شخصيته، وبذلك سيكون محبوباً عند خلق الله، يألف ويُؤْلَف، «**الخير منه مأمول والشّر منه مأمون**»(١).

ومع ذلك فليس ثمّة ما يمنع أبداً أن يكون في المسألة كرامة ربانيّة، بحيث يكون للإيمان في ميزان لطف الله تعالى مِثْلُ هذا الأثر الطيّب، بمعنى أنّ كلّ من أحبّ الله تعالى واتقاه وعبده مخلصاً له الدين فإنّه تعالى يجازيه ويكافيه على ذلك، فيفتح له قلوب الناس، ليبادلوه الحُبّ بالحُبّ والتحيّة بمثلها، وهذا ما يستفاد من الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «.. **ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلاّ جعل الله قلوب المؤمنين تَفِدُ إليه بالودّ والرحمة وكان الله بكلّ خير إليه أسرع**»(٢).

فما أيسر أن يكسب الإنسان محبّة الآخرين، دون أن يحتاج إلى أيّ تزلّف أو تذلّل أو أية مداهنة لهم، بل إنّ إيمانه وصدقه هما رأس ماله ودعامتا نجاحه وأساسا مصداقيّته بين الناس.

سيجعل لهم الرحمان ودّاً

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعادلة، وهي المعادلة التي تمنح الإيمان دوراً مهمّاً في اكتساب محبّة الناس، أو قل: معادلة «أحببِ الله يُحببْك عبادُ الله»، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم ١٦].

ويهمّني أن أتوقّف عند هذه الآية المباركة وقفة تأمّل وتدبّر، لأنّها الأساس في تأكيد المعادلة المذكورة، ونعرض في البداية لما قاله المحقّق الطبرسي في بيان الاتجاهات المذكورة في تفسيرها، قال رحمه الله:

(١) كما قال علي عليه السلام فيما روي عنه في وصف المتقين، أنظر: نهج البلاغة ج٢ ص ١٦٤.
(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ج ١٠ ص ٢٤٧، والمعجم الأوسط للطبراني ج٥ ص ١٨٦.

« قيل: فيه أقوال:

أحدها: إنّها خاصّة في عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، فما من مؤمن إلاّ وفي قلبه محبة لعليٍّ عليه السلام، عن ابن عباس. وفي تفسير أبي حمزة الثمالي: حدثني أبو جعفر الباقر عليه السلام، **قال: قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **لعليٍّ** عليه السلام: **قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في قلوب المؤمنين وُدّاً. فقالهما علي** عليه السلام، **فنزلت هذه الآية**». ورُوي نحوه عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

والثاني: إنّها عامة في جميع المؤمنين يجعل الله لهم المحبّة والأُلفة والمِقَة في قلوب الصالحين. قال هرم بن حبان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله تعالى، إلاّ أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ومحبتهم. وقال الربيع بن أنس: إنّ الله إذا أحبّ مؤمناً، قال لجبرائيل: إنّي أحببت فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبرائيل، ثم ينادي في السماء: ألا إنّ الله أحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء ثم يوضع له قبول في أهل الأرض. فعلى هذا يكون المعنى يحبّهم الله ويحبّبهم إلى الناس.

والثالث: إنّ معناه: يجعل الله لهم محبّة في قلوب أعدائهم ومخالفيهم، ليدخلوا في دينهم، ويعتزوا بهم.

الرابع: يجعل بعضهم يحبّ بعضاً، فيكون كلّ واحد منهم عضداً لأخيه المؤمن، ويكونون يداً واحدة على من خالفهم.

والخامس: إنّ معناه سيجعل لهم ودّاً في الآخرة، فيحبّ بعضهم بعضاً، كمحبّة الوالد لولده، وفي ذلك أعظم السرور، وأتمّ النعمة، عن الجبائي.

ويؤيّد القول الأوّل: ما صحّ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا، على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضى فانقضى على**

لسان النبي الأمي أنه قال: لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق»[١].

وتعليقاً على هذه الأقوال المذكورة في تفسير الآية المباركة نقول: إنّ من الممكن ترجيح رأي يجمع بين هذه الأقوال جميعاً، لأننا لا نجد تنافياً بينها، ولا موجب لحصر مدلول الآية في رأي واحد منها ورفض البقية، وذلك لأنّ لفظ الآية عام ويسع كلّ هذه الوجوه، فهي تدلّ على أنّ للإيمان جاذبية خاصة، وأنّ الله تعالى يجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودّاً، ولكنّها أطلقت ولم تحدّد متى؟ وأين؟ وكيف؟ ونحن نلتزم بإطلاقها، ما يعني أنّه تعالى يجعل لهم ودّاً في الآخرة كما في الدنيا، ويجعل لهم ودّاً في قلوب المؤمنين وغير المؤمنين، وما ورد في النصوص من أنّ الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام فهو أيضاً لا ينافي ما قلناه، على اعتبار أنّ أسباب النزول لا تمنع من التمسك بعموم النص القرآني[٢]، لأنّه كما هو معروف فإنّ المورد لا يخصّص الوارد، ولا شكّ أنّ عليّاً عليه السلام هو المصداق الأبرز للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهو ممّن غرس الله محبته في القلوب، وإذا كان مقصودُ أصحابِ القولِ الثاني المتقدّم هذا المعنى، فيكون هو القول الأرجح والأقرب إلى الصواب.

أجل ثمّة أمر تدلّ عليه الروايات سواء ما ورد منها في تفسير الآية أو ما ورد في مناسبة أخرى، وهو أنّ حُبّ عليّ عليه السلام وسائر أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو ميزان صدق الإيمان لدى الشخص المسلم، وهذا ما سوف نتطرّق إلى تفسيره وتوضيحه في محور لاحق.

ثامناً: ثمرات المودّة والتودّد

في ضوء ما تقدّم يغدو واضحاً وجلياً أهميّة المحبّة والمودة ليس في بناء المجتمع المتماسك والمتضامن والمتكافل فحسب، بل وضرورة العمل على

(١) مجمع البيان للطبرسي ج ٦ ص ٤٥٤، ٤٥٥.
(٢) تبنى هذا الرأي الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، أنظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج ٩ ص ٥١٣.

نشر وتعميم ثقافة المحبّة وكلّ القيم التي تماثلها في المعنى، فأي عاقل أو حكيم يريد للحياة الاجتماعية أن تعيش قدراً من الاستقرار والسلام فيفترض به أن يساعد على نشر قيمة المحبّة، مبتدئاً بنفسه ومن يلي أمورهم من الناس أو يدخلون في نطاق مسؤوليته، ثم ينطلق إلى الآخرين، وإليك توضيحاً لهذا الأمر:

١ ـ المودّة قرابة ونسب

اهتماماً بالمودّة والمحبّة التي تنشأ بين الأشخاص وحرصاً على بقائها واستمراريتها لِما لها من آثار إيجابية طيّبة على الاجتماع الإنساني برمّته، فإنّ بعض الروايات قد نزّلتها منزلة النسب ومنحتها صفة القرابة، مع ما يتضمّنه ذلك من إعطاء بُعْدٍ جديد لمفهوم القرابة، ففي الحديث عن الإمام عليٍّ عليه السلام: «**ربَّ أخٍ لم تلده أمّك**»[١]، إنّ ما يرمي هذا الحديث إلى تأكيده وبيانه هو: أنّ الصديق هو مَنْ تجده في الملمات إلى جانبك، مهتمّاً لأمرك ومتفاعلاً معك، هو أخ لك وإن لم تلده أمك، بينما الأخ الذي هو من أبيك وأمّك ولكنّه لا يهتمّ لأمرك ولا يبالي بما تعانيه فهو لا يحمل من مضمون الأخوة إلاّ الاسم، لأنّ تعاون الأخوة وتضافرهم هو من مقتضيات الأخوّة.

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**المودّة إحدى القرابتين**»[٢].

وعنه عليه السلام: «**المودّة نسب**»[٣].

وتذهب بعض النصوص إلى أبعد من ذلك حيث تؤكدّ على أنّ المودّة بين الأصدقاء المتحابين والمتآخين هي أكثر نفعاً من القرابة الخالية من العواطف، فربّما كان إخوان القرابة النسبية مؤذين ومزعجين لك ويقطعون رحمك، بينما إخوان المودّة الصادقة سيقفون لا محالة إلى جانبك ويمدّون لك يد العون عند الحاجة إليهم ويواسونك في الملمّات.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٢٦٧.
(٢) م.ن ص ٢٦.
(٣) م.ن ص ٣٢

إنّ القرابة الخالية من وشائج المودّة لا قيمة لها، بل إنّها تؤلم قلب الغيور الذي يتوقع أن يرى قريبه الرحمي واقفاً إلى جانبه، وإذا به يراه ـ أحياناً ـ يكيد له ويضمر الحقد والحسد عليه، قال الشاعر:

وظُـلْـمُ ذوي الـقـربـى أَشَـدُّ مضاضةً
على الحرِّ مِـنْ وَقْـعِ الحسامِ المُهَنَّدِ[1].

٢ ـ توارث المودّة

ومن أجمل ما أكّدت عليه بعض الأخبار الواردة في المقام أنّ المودّة التي تنشأ بين الآباء ينبغي أن يحفظها الأبناء ويتوارثوها، ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مودّة الآباء قرابة بين الأبناء، والقرابة إلى المودّة أحوج من المودّة إلى القرابة**»[2]، وهذا خُلُقٌ جميل ورائع، وهو من جهة يعبّر عن الوفاء للآباء والبرّ بهم والإخلاص لهم بحفظ صداقاتهم وعلاقاتهم، ومن جهة أخرى، فإنّه يوسّع من دائرة الصّداقة والأخوّة، وهذا في حدّ ذاته مقصد نبيل تهتمّ الشريعة الإسلامية به، لِمَا له من نتائجَ طيّبةٍ على الاجتماع الإنساني برمته، وفي الحديث: كان أبو عبد الله الصادق عليه السلام إذا نظر إلى الفضيل بن يسار مقبلاً قال: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ**﴾ [الحج ٣٤]. وكان يقول: «**إنّ فضيلاً من أصحاب أبي، وإنّي لأحبّ الرجل أن يحُبّ أصحاب أبيه**»[3].

وفي الخبر عن أبي عبد الله الصادق وأبي الحسن الكاظم عليهما السلام قالا: «**ينبغي للرجل أن يحفظ أصحاب أبيه، فإنّ برَّه بهم برُّه بوالديه**»[4].

(١) هذا من قول طرفة بن العبد في معلقته، أنظر: خزانة الأدب وغاية الإرب ص ١٩١.
(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٧٣.
(٣) رجال الكشي ج٢ ص٤٧٣.
(٤) المصدر نفسه ج٢ ص٧٠.

٣ ـ المودة واكتساب الأصدقاء

ولعلَّ أبرز وأوضح ثمرة للمودّة هي اكتساب الإخوان وكفى بذلك ثمرة، لأنّ اكتساب الأخوان ليس مجرد فضيلة يحثّ عليها الإسلام، وإنّما هو مغنم عظيم وحاجة ماسة لكلّ واحد من أبناء الإنسان، لأنّ الجنس البشري لا يمكنه الاستغناء عن الحياة الاجتماعية أو أن يعيش وحيداً في عزلة عن بني جنسه، ومن هنا نجد تعاليم الأنبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء تدعو إلى التعارف والتلاقي والتزاور، وتحرّض على اكتساب الأصدقاء والإخوان، لأنّه كسبٌ ونفعٌ للإنسان، فعن عليٍّ عليه السلام: «**أنفع الكنوز محبّة القلوب**»[(١)]. كما أنّ افتقاد الإخوان خسارة كبيرة وغربة موحشة، وعنه عليه السلام أيضاً: «**والغريب من لم يكن له حبيب**»[(٢)].

وثمّة وصايا وتعاليم إسلامية خاصة وعديدة حول كيفية التعامل مع الإخوان، وبيان حقوق الأصدقاء، وآداب الصّداقة، والحثّ على عدم تضييع الأصدقاء، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم**»[(٣)].

أجل، إنّ المودّة بين الأصدقاء لا يفترض ولا ينبغي أن تصل إلى مستوى يتجاوز فيه الأصدقاء كلّ الحدود أو ترتفع بينهم الحواجز كافّة بحيث ينكشف الصديق أمام صديقه انكشافاً تاماً، فهذا من سقم المودة، وقد تكون له نتائج غير طيبة على مستقبل الصداقة نفسها، وذلك بملاحظة أنّ ظروف الحياة قد تغيّر الصديق عليك، وربما يتحوّل إلى خصم لك، فيستغل ما يعرفه عنك من أسرار فيفضحك أو يبتزك أو ما إلى ذلك، وقد نبّه على ذلك الإمام علي عليه السلام فيما ورد

(١) دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم ص ٢٠.
(٢) نهج البلاغة ج٣ ص٥٥.
(٣) م.ن ج٤ ص٤.

عنه: «**أحببْ حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغضْ بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**»[1].

٤ ـ التودد نصف العقل

وبما أنّ المودّة تحتاج في الكثير من الأحيان إلى محفّزات وتهيئة أسباب ومقدّمات، يكون من المهم بمكانٍ العمل على تدريب النفس وحملها على مودة الآخرين، كما تؤكّد ذلك بعض الأحاديث الشريفة، ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**التودّد نصف العقل**»[2].

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**التودّد نصف الدين**»[3].

وليس المراد من التودّد هنا مخادعة الناس والتظاهر بالودّ لهم مع استبطان ما يغايره من الكراهية والحقد، وإنّما المراد به تعويد النفس وتدريبها على مودّة الآخرين، فالتودّد هو من قبيل التصبّر الذي يعني حمل النفس على الصبر، أو التحلّم الذي يعني حمل النفس وتدريبها على الحلم. وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**العلم بالتعلّم والحلم بالتحلّم..**»[4]، والغرض من الحثّ على التودّد هو كسب الآخرين واستمالتهم وكسر الحواجز النفسيّة معهم، فهو يمثّل نوعاً من المداراة أيضاً، والمداراة هي سلوك أخلاقي راقٍ ورفيع، وهي لا تعني المداهنة أبداً كما قد يتخيّل البعض.



(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٦٤، ونظير هذا المعنى مروي عن الإمام الصادق عليه السلام، فقد قال عليه السلام: «**لا يطّلع صديقك من سرّك إلاّ على ما لو اطّلع عليه عدوك لم يضرك، فإنّ الصديق ربما كان عدواً**»، أنظر: وسائل الشيعة ج ١٢ ص ١٧٤، الباب ١٠٢ من أبواب أحكام العشرة ٦.

(٢) م.ن ج٤ ص٣٤.

(٣) تحف العقول ص ٦٠، ورواه كذلك في البحار عن عيون أخبار الرضا عليه السلام، لكنّ الموجود في المصدر: «**التوحيد نصف الدين**»، أنظر: ج٢ ص٣٨.

(٤) أنظر: كنز العمال ج ١٠ ص ٢٣٩، وج ١٦ ص ٢٥٤.

المحور الثاني

دور الحُبّ في العلاقة مع الله

أولاً: الودود الحبيب

ثانياً: مظاهر حُبّ الله للإنسان

ثالثاً: كيف يحبّنا ثمّ يعذّبنا؟!

رابعاً: التوحيد في الحُبّ

خامساً: هل نخاف الله أم نحبّه؟

سادساً: كيف نحبّ الله؟

سابعاً: آثار حُبّ الله في الحياة.

ثامناً: آثار حُبّ الله في العالم الآخر.

المحور الثاني
دور الحُبّ في العلاقة مع الله

في المحور الثاني من هذا البحث، نتطرّق إلى دور الحُبّ في الإيمان وفي بناء العقيدة، ذلك أنّ الحُبّ كما هو محور الحياة ومحرِّكها، فإنّه يندرج في صُلْب العقيدة الإسلامية الصحيحة، فالعقيدة لا تُبنى على الحقد ولا الكراهية، ولا على الانفعالات، وإنّما تبنى على قاعدة متينة تقوم على ركيزتين رئيستين وهما:

١ ـ الفكر الصائب، حيث الكلمة الفصل هنا للحُجّة والبرهان.

٢ ـ القلب الصادق والمتعطّش للإيمان والأمن والمفعم بالحُبّ والعشق.

فذانك الأمران هما جوهر العقيدة وروحها، ويهمّني في هذا المقام التركيز على العنصر الثاني[١]، ـ أعني بيان الدور المحوري للحُبّ في العقيدة الإسلامية ـ من خلال النقاط التالية:

أولاً: الودود الحبيب

إنّ الله تعالى هو ملهم الحُبّ ومصدره الأول، وقد اشتق لنفسه اسماً منه، فهو الحبيب، وقد ورد في الدعاء المرويّ عن عليٍّ عليه السلام: «**يا حبيب قلوب الصادقين**»[٢]، ومن أسمائه الحسنى أيضاً «الودود»[٣]، وقد وصف نفسه في

(١) أمّا العنصر الأول فقد بحثته بشكل تفصيلي في كتاب: «أصول الاجتهاد الكلامي» والذي نسأل الله التوفيق لنشره.

(٢) من دعاء كُميل لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) أنظر التوحيد للصدوق ص ٢٢٠، وسنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٧٠.

القرآن الكريم بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج ١٤].

وتندرج ـ أيضاً ـ في عداد صفات الله تعالى صفتا «الرحمان» و«الرحيم»، وهو الذي كتب على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام٥٤].

وهو القريب من عباده قرباً معنوياً، ويدعوهم إليه بلطف ورفق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة ١٨٦].

الصاحب والصديق

وربّما يستخدم بعض الناس اليوم تعبيراً يصف به علاقته مع الله تعالى، وهو تعبير «الصديق»، فيقول: إنّ الله صديقي أو إنّي على صداقة مع الله عزّ وجلّ، ونحن ليس لدينا حساسيّة من التعبيرات الجديدة التي قد تُطلق للتعبير عن أفعال الله تعالى أو صفاته، ما دامت تراعي قدسه وجلاله ولا تشي بالنقص، وقد وجدنا في الآثار الدينيّة إطلاق وصف «الصاحب» عليه تعالى «**يا خيرَ صاحبٍ وجليس**»(١).

وفي الحديث عن عليٍّ عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ موسى بن عمران لمّا ناجى ربّه قال: يا ربّ أبعيدٌ أنت منّي فأناديك، أم قريب فأناجيك؟ فأوحى الله جلَّ جلاله إليه: أنا جليس من ذكرني**»(٢)، وفي ضوء هذا فليس ثمّة ما يمنع من

---

(١) ورد ذلك في الدعاء المعروف بدعاء الجوشن الكبير، أنظر: المصباح للكفعمي ص ٢٥٩، وقد اشتمل دعاء الجوشن على أسماء كثيرة وصفات عديدة أُطلقت على الله تعالى، ولم يستشكل أحد بتلاوة الدعاء المذكور حتى من القائلين بتوقيفية أسماء الله الحسنى.

(٢) التوحيد للصدوق ص١٨٢، ورُوي نظيره عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، أنظر: الكافي ج٢ ص٤٩٦، وهو مروي أيضاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنظر: علل الشرائع ج١ ص٢٨٤.

إطلاق وصف «الصديق» عليه تعالى أو الدعوة إلى مصادقته، شريطة أن لا ينطلق هذا التوصيف من خلفيّة تفترض أو تختزن شيئاً من النديّة بين العبد وبين الله تعالى، كما هي النديّة الموجودة بين الصديق وصديقه، فهذا أمر مرفوض وقد يوحي بالشّرك الخفي وربّما الجلي.

يحبّنا ونحن نعصيه!

وإنّ حُبّه تعالى لعباده لا يُوصَف ولا يُقارَن، فهو يفوق بمراتبَ كثيرةٍ حُبّنا لأبنائنا وفلذات أكبادنا، بل إنّ حُبّه لا يُقاس بحُبّ خلقه، إنّ حُبّه تعالى لا تشوبه أيّة شائبة، إنّه حُبّ المُنزَّه عن النقص والحاجة والمستغني عمّن يحبّ، حُبّ الخالق للمخلوق، حُبّ الغني الذي لا يَطْلِبُ على حُبّه أجراً، حُبّ من لا يكدّرُ حُبَّه بالامتنان، حُبّ من لا يقطع حُبّه في كلّ الظروف والحالات، فحتى لو تمرّدنا عليه وعصيناه فإنّه لا يقطع حُبّه عنّا ولا يمنعنا فيضه، ولا يقابلنا أو يعاملنا بما نستحقّ، بل إنّنا حتى لو قابلناه بالعصيان فإنّه يظلّ يقابلنا باللطف والنّعم، إنّه تعالى يحبّنا حتى ونحن نعصيه، أليس هو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة ٢٢٢] فمن هو التوّاب؟ إنّه العاصي المذنب الذي يُكْثِرُ من الذنب ومن العودة إلى ربّه. ولنستمع إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وهو يبيّن هذا المعنى بلغة الدعاء والمناجاة، حيث يقول عليه السلام في دعاء السَحَر مخاطباً الله تعالى: «**تتحبّبُ إلينا بالنِّعم ونعارضُك بالذنوب، خيرُك إلينا نازل وشرُّنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال مَلَكٌ كريم يأتيك عنّا بعمل قبيح فلا يمنعك ذلك [من] أن تحوطنا بنعمك وتتفضّل علينا بآلائك، فسبحانك ما أحلمك وأعظمك وأكرمك مُبْدِئاً ومعيداً، تقدّست أسماؤك وجلّ ثناؤك وكَرُمَ صنائعك وفعالك، أنت إلهي أوسع فضلاً وأعظم حِلْماً من أن تقايسني بفعلي وخطيئتي**»(١).

(١) أنظر: مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٥٨٦.

ثانياً: مظاهر حُبّ الله للإنسان

وحُبُّ الله تعالى لنا وإن كان عامّاً وشاملاً ولا يتجزّأ، ولا يُحَدُّ ولا يوصف، كما هو الحال في سائر صفاته الجمالية والجلالية، بيد أنّه ـ من جهتنا نحن، لا من جهته تعالى ـ على نحوين:

١ ـ حُبّ عام يستفيد منه البَرُّ والفاجر.

٢ ـ وحُبٌّ خاص، لا يستفيد منه إلاّ من صمّم وعزم على التذوّق من حلاوة حُبّه.

أما الحُبّ الخاص، فلا يفقه معناه، ولا يُدرِكُ مغزاه إلا مَنْ عرف أو تذوّق حلاوة مناجاة الله تعالى، «**مَنْ ذا الذي ذاق حلاوة حُبّك فرام منك بدلاً**»(١)، إنّ حلاوة حُبّه تعالى تُنسي المرء همومه وآلامه وأوجاعه، ومن يغمرْ حُبُّ الله قلبَه، فإنّه يعيش حياةً من نوع آخر، حياةً تُنعش الروح وتروي عطشها بلقاء الحبيب الأوّل.

وإننا إذ نعبّر عن هذا الحُبّ بأنّه حُبّ خاص ولا يبلغه إلاّ القليل من العباد، فليس ذلك ناشئاً من قِبَله سبحانه تعالى، أو بسبب بُخله أو منعه، حاشاه، بل إنَّ المانع هو العبد نفسه، أي إنّ المشكلة ـ كما يقال ـ هي في القابل وليست في الفاعل، فإنّ «**بابه ـ تعالى ـ مفتوح لداعيه وحِجابه مرفوعٌ لراجيه**»(٢).. لكنّ الإنسان هو من قد يَحْرِمُ نفسه من أن تتذوّق حلاوة الحُبّ الإلهيّ بابتعاده عن طاعة الله وعن مناجاته وعبادته.

---

(١) من مناجاة المحبين المنسوبة للإمام زين العابدين عليه السلام، أنظر: بحار الأنوار ج٩١ ص١٤٨، ولاحظ هذه المناجاة في الملحق رقم (٢) وأشير هنا إلى أننا سوف نُكثر من الاستشهاد بفقرات من المناجاة الخمس عشرة المنسوبة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، وإنّما نستشهد للتأييد لا للاستدلال، لعدم ثبوت صدورها عن الإمام عليه السلام، ولمزيد من التعرّف على سند هذه المناجاة راجع الملحق رقم (٣).

(٢) جاء هذا المقطع في دعاء السيدة الزهراء عليها السلام الذي روي أنّها كانت تدعو به عقيب الصلوات، أنظر: فلاح السائل لابن طاووس ص١٧٥، وهو وارد أيضاً في مناجاة الراجين المنسوبة للإمام زين العابدين عليه السلام، أنظر: بحار الأنوار ج٩١ ص١٤٤.

أجل، إنّ هذا النوع الخاص من الحُبّ يحتاج إلى تفاعل من الطرفين، كما يُقال في لغة اليوم، ويكفي العبدَ أن يحاول ويسعى ويمشي في طريق التقرّب من الله تعالى والتحبّب إليه، ليفتح له الله الباب فيتذوّق شيئاً من طعم الحُبّ الإلهي، وقد ورد في الدعاء: «**يا حبيبَ من تحبَّب إليه**»[1]، فلاحظ دلالة الفعل «تحبّب»، فهو لم يقل «يا حبيبَ من أحبّه»، ليقتصر الأمر على من كان حُبّه ناجزاً لله تعالى، وإنّما قال: «**يا حبيبَ من تحبّب إليه**»، ما يعني أنّك حتى لو كنت «تتحبّب» إلى الله وتسعى في هذا السبيل، فإنّك لن تُحرَم من بركة حُبّه، بل ستشعر بشيء من حلاوة حُبّه تعالى لك، فكيف إذا كنت تحبّه حقّاً أو قطعت شوطاً في مسيرة حُبّه وعشقه؟!

وأما الحُبّ العام، فهو الذي بإمكان كلِّ إنسان أن يبلغه ويناله منه نصيب، سواء كان ذلك بدون شرط، أو بشرط استقامة العبد على الجادّة التشريعيّة أو التزامه بالسنن التكوينيّة، وهذا النوع من الحُبّ يتجلّى في العديد من المظاهر، وإليك بعضاً منها:

١ ـ في الآفاق وفي أنفسكم

لا أعتقد أنّ الإنسان البصير يمكنه أن يغفل عن تلمّس حُبّ الله تعالى لعباده في كلِّ هذا الكون البديع، في أنفسنا، وفيما حولنا، في رحاب الأرض وآفاق السماوات، فيما نراه ونتحسّسه ونتذوّقه، فكلُّ ما في هذا الكون من جمال وروعة وإبداع وحُبّ، إنّما هو رشحة من فيض حُبّه وجماله الذي لا ينضب، إنّ كلّ هذا العطاء التكوينيّ والنِّعَم التي لا تُعَدّ ولا تُحصى، وكلّ هذا الجمال الذي لا تحيط به الباصرة هو تعبير عن حُبّه لنا ولطفه بنا، إذ سخّر لنا كلّ هذا وهيّأه لراحتنا لا لحاجة منه إلينا بل حُبّاً بنا، ووعدنا بالمزيد، ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ**﴾ [النحل:١٨].

(١) من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في أسحار شهر رمضان، وهو المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، أنظر: مصباح المتهجد ص٥٨٥.

ومن مزايا العطاء الإلهي التكويني أنّه عطاء عام لا يختص بإنسان دون آخر، فهو شامل للبَرّ والفاجر والمؤمن والكافر.

ومن خصائص هذا اللطف أو الفيض أنّ الله تعالى لا يمنعه عن الناس إلاّ إذا اعتدى الناس أنفسهم على النواميس الكونيّة، فعبثوا وأفسدوا، كما يحصل في أيّامنا، فإنّ فساد العباد وإفسادهم في الأرض والسماء قد يتسبّب في حرمانهم من هذه النّعم، بينما استقامتهم ورعايتهم للقوانين هو شرط في استمرار هذا الفيض الإلهي، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن ١٦].

٢ ـ إرسال الرسل

وإرسال الرسل ومعهم الكتاب والميزان هو مظهر آخر من مظاهر حُبّ الله تعالى لخلقه وعباده، فإنّ وظيفة الرسل أن يأخذوا بيد النّاس إلى شاطئ الأمان ويستنقذوهم من براثن الجهالة والضلالة والوثنية، ولهذه الغاية فقد حرّكوا العقول التي أصابها الصدأ وهزّوا مكامن الفطرة التي أصابها التلوّث، وما أجمل ما قاله الإمام عليّ عليه السلام في التعبير عن وظيفة الأنبياء عليهم السلام تجاه الناس: «..**واصْطَفَى سُبْحَانَه مِنْ وُلْدِه** (آدم) **أَنْبِيَاءَ، أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللَّه إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّه واتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَه، واجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِه، واقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَه، ووَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَه لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه، ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، ويَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، ويُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ، مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ومِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، ومَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وآجَالٍ تُفْنِيهِمْ وأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ، ولَمْ يُخْلِ اللَّه سُبْحَانَه خَلْقَه مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ**»[(١)].

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٤، بيان: « **أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ**» وذلك بأن يبلّغوا ما أوحى إليهم، ويكون ما بعده

ومن وظيفة الأنبياء عليهم السلام أيضاً أن يقوم الناس بالقسط والعدل، ويتواصلوا فيما بينهم ويطهِّروا قلوبهم من الأحقاد والضغائن ويبنوا مجتمع الإخاء، فالأنبياء عليهم السلام هم رُسُل العدل والحُبّ والسلام، وليسوا رسل الكراهيّة ولا دعاة حرب أو سفك دماء، وسيأتي لاحقاً توضيح هذا الدور بشكل أوسع، (لاحظ: المحور السابع، الفقرة الثالثة).

٣ ـ خَلْقُ الجنّة

ومن رشحات حُبّه تعالى أنّه أعدّ للصالحين من عباده جنّة يتفيأون ظلالها ويعيشون فيها نعيم الأبد الذي لا ينفد في جوار الله ورضوانه وبصحبة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والصالحين والشهداء وحَسُنَ أولئك رفيقاً، وفي ظلال جنّات عدن وارفة حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، تظلّلهم رحمة الله الواسعة ويجمعهم حُبّهم لله تعالى، ويتلاقى فيها الأحباب والمؤمنون إخواناً على سرر متقابلين لا يصيبهم فيها ملل ولا سآمة، بل هم في حيوية ونشاط دائمين،

بمنزلة التأكيد له، أو أَخَذَ عليهم أن لا يشرّعوا للناس إلا ما يوحى إليهم.

«**عهد الله**» إلى الناس هو ما عبّر عنه عليه السلام بميثاق الفطرة.

«**الأنداد**»: الأمثال، وأراد المعبودين من دونه سبحانه وتعالى.

«**اجتالتهم الشياطين**»: صرفتهم عن قصدهم الذي وُجِهّوا إليه بالهداية المغروزة في فطرهم.

«**واتر إليهم أنبياءه**»: أرسلهم، وبين كل نبي ومن بعده فترة، لا بمعنى أرسلهم تباعاً بعضهم يعقب بعضاً.

«**لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه**»: كأن الله تعالى بما أودع في الإنسان من الغرائز والقوى وبما أقام له من الشواهد وأدلة الهدى قد أخذ عليه ميثاقاً بأن يصرف ما أوتي من ذلك فيما خُلِق له، وقد كان الإنسان يعمل على ذلك الميثاق ولا ينقضه لولا ما اعترضه من وساوس الشهوات، فبعث إليه النبيين ليطلبوا من الناس أداء ذلك الميثاق، أي ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم وما ينبغي أن تسوقهم إليه غرائزهم.

«**دفائن العقول**» أنوار العرفان التي تكشف للإنسان أسرار الكائنات وترتفع به إلى الإيقان بصانع الموجودات، وقد تحجبُ هذه الأنوار غيومٌ من الأوهام وحجبٌ من الخيال فيأتي النبيون لإثارة تلك المعارف الكامنة وإبراز تلك الأسرار الباطنة.

«**السقف المرفوع**»: السماء، «**المهاد الموضوع**» الأرض.

«**والأوصاب**» المتاعب.

«**المحجّة**» الطريق القويمة الواضحة. أنظر حول بيان معاني المفردات المذكورة: شرح الشيخ محمد عبده في هامش النسخة المشار إليها من النهج.

إنّ أجمل ما في الجنّة أنّها ملتقى الأحباب، المحبين لله تعالى والمتحابين فيه، حيث يجمعهم رضوان الله وتضمهم رحمته. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة ٧٢].

٤ ـ خَلْقُ النّار واللطف

ويمكننا القول: إنّ خلق النار هو الآخر من فيض حُبّ الله تعالى بالعباد، لأنّ الله سبحانه لم يخلق النار للتشفّي من خلقه، ولا للانتقام منهم، فهو غنيّ عن عذابهم، بل لتكون رادعاً لهم عن البغي والعدوان وزاجراً لهم عن الإثم والعصيان، وليحملهم من خلال ذلك على سلوك طريق الهدى والمكارم ويأخذ بأيديهم إلى الكمال المطلق، وهذا منتهى الحُبّ، أليس حُبُّك لابنك هو الذي قد يدفعك لأن تقسوَ عليه أحياناً، أو تهدّده بالعقاب، لِتُشعرَه بالمسؤوليّة وتأخذ بيده إلى طريق المكارم؟ إنّ كثرة «الدلال والغنج» تُفسد الطفل، وهي خطأ تربويٌّ دون أدنى شكّ كما ألمحنا إلى ذلك في المحور الأوّل، هكذا هو الله ربُّنا تعالى، بل هو فوق ذلك وأسمى منه، فهو أرأفُ بنا من الأب بابنه، ومن الأم برضيعها، فهو خَلَقَ النار لا لأنّه يحبُّ تعذيبنا حاشاه، بل خَلَقَها بهدف إصلاحنا والحدّ من عدوانيتنا وظُلْمِنا، لأنّ في الناس من لا يصلحه إلاّ التخويف، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر ١٦].

وطبقاً لنظريّة «تجسم الأعمال»[١]، فإنّ النار هي الأثر الطبيعي لأعمالنا، فنحن

---

(١) هناك نظريتان في علم الكلام حول كيفية وطبيعة الثواب والعقاب الأُخرويَّيْن، فهناك «نظرية المجازاة» التي تقول: إنّ الثواب والعقاب هما جزاء أعدّه الله لعباده، فهو يجازي المطيع بالجنة ويجازي العاصي بالنار، وهناك «نظرية تجسم الأعمال» التي تقول: إنّ الثواب والعقاب هما نتيجة العمل الطبيعية وصورته الحقيقية والواقعية، فليس العقاب هناك تطبيقاً لقانون تشريعي، وإنّما هو تطبيق لقانون تكويني، فالطاعة ـ بكل مفرداتها ـ لها أثر تكويني يتمثل بالجنة على اختلاف عناصرها، والمعصية كذلك، أي لها ـ بكل مفرداتها ـ آثار تكوينية تظهر في النار الحامية على اختلاف دركاتها. وتحقيق الحال في هاتين النظريتين موكول إلى محله.

الذين نؤجّجها بأيدينا ونوقد حطبها بسوء اختيارنا وتمرّدنا على الله سبحانه.

وإنّ عدل الله تعالى أسمى وأجلّ من أن يعذّب من لم تقم عليه الحُجّة البيّنة من الغافلين والجاهلين أو من كانت لديهم قناعات يقينية معينة لا يحتملون خطأها أيّاً كانت هذه القناعات سواء التقت مع المفاهيم والمعتقدات الإسلامية أو لم تلتقِ، لأنّ مؤاخذة هؤلاء قبيحة في ميزان العقل والحكمة، كما أنّ باب رحمته تعالى يظلّ مفتوحاً للعاصين والمتمردين عليه، فيؤمّلُ لهم العفو والغفران، ومهما كانت ذنوبهم عظيمة فإنّ عفو الله تعالى أعظم، ومهما كانت سيئاتهم كبيرة فإنّ رحمة الله أكبر.

وسوف يأتي في الفقرة الثالثة اللاحقة مزيد توضيح لهذا المعنى.

وفي ضوء ذلك، فإننا نرفض الكثير من المزاعم التي تطلقها هذه الفرقة الدينيّة أو تلك وتحتكر بموجبها الجنّة لها ولأتباعها فقط، أمّا الآخرون من أتباع سائر الفرق فهم جميعاً ودون استثناء من أهل الجحيم والنيران، فهذه مجرّد أوهام وتمنيّات وأفكار تضيّق رحمة الله الواسعة إلى درجة يخيّل لك معها أنّ الله تعالى إنّما خلق الناس ليعذّبهم لا ليرحمهم، أو أنّه تعالى جلّاد يتلذّذ بتعذيب ضحاياه! إنّها بحقّ صورة مشوّهة يحملها هؤلاء عن الله تعالى، فهم يَرَوْنَهُ على صورتهم وشاكلتهم، وتتحكم خلفيّاتهم الفكريّة الضيقة في تصوّرهم العقدي بشأن الله تعالى، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام ٩١]. إنّ الله تعالى هو الرحمة المطلقة والشاملة وهو الذي وسعت رحمته كلّ شيء، ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر ٧][1].

إنّني لا أتحدّث ـ إذ أتحدّث عن رحمة الله ورشحات حُبّه ـ شعراً، وإن كان الشعر ينتمي إلى مدرسة الحُبّ، وإنّما أتحدّث عن فلسفة الحُبّ الإلهي التي

(١) وقد أوسعنا هذا الموضوع بحثاً وتحقيقاً في كتاب: هل الجنة للمسلمين وحدهم؟ فليراجع.

تتجلّى في كلّ صفاته وأسمائه وآياته وفي كلّ عطائه التكوينيّ والتشريعيّ، كما تتجلّى في ثوابه وعقابه، في جنّته وناره.

٥ ـ فتح باب التوبة

وفَتْحُ باب التوبة أمام الناس هو ـ أيضاً ـ من أبرز تجليات حُبّ الله تعالى لعباده، فهو عَزَّ وَجَلَّ لا ينتقم من العصاة من عباده على طريقة الناس في التشفي وشفاء الغيظ، ولا يعجّل لهم العذاب ولا يعاملهم بما يستحقون من الملامة، بل إنّه يمهلهم ويؤخّرهم ويُبْقِي باب التوبة مفتوحاً أمامهم حتى آخر لحظات العمر، ففي الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في آخر خطبة خطبها: «**من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه**، ثمّ قال: **وإنّ السّنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه**، ثم قال: **وإنّ الشهر لكثير، من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه**، ثمّ قال: **وإنّ يوماً لكثير، من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه**، ثم قال: **وإنّ الساعة لكثيرة، من تاب وقد بلغت نفسه هذه** ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ **تاب الله عليه**»(١).

إنّ فَتْحَ باب التوبة إلى آخر العمر هو خير دليل على أنّه تعالى يحبّ العفو عنّا أكثر مما يحبّ معاقبتنا، وهذا ما عبّر عنه الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بعض أدعية الصحيفة السجاديّة، فإنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن يستعرض جرأة ـ الإنسان ـ على الله وقلّة حيائه منه فإنّه يتعجّب من أناة الله تعالى عنه وإبطائه عن معاجلته بما يستحق! ولا يجد تفسيراً لهذه الأناة عنه إلاّ «**لأنّ عفوك عني أحبُّ إليك من عقوبتي**»(٢).

٦ ـ ثواب الحُبّ

ومن أبرز وأجمل مظاهر حُبّ الله تعالى لعباده ولطفه بهم ورحمته لهم أنّه تعالى يمنحهم الثواب على مجرّد الحُبّ، فمن أحبّ عمل الخير لكنّه لم يستطع

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج ١ ص ١٣٣، وثواب الأعمال ص٢٩٤، ولاحظ: كتاب الكافي ج ٢ ص ٤٤٠.

(٢) الصحيفة السجاديّة، من دعائه إذا استقال من ذنوبه أو تضرّع في طلب العفو عن عيوبه.

القيام به بسبب عجز أو فقر أو إكراه أو غير ذلك من الأسباب، فإنّ الله تعالى يعطيه ثواب ذلك العمل على نيّته وحُبّه، فمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام لمّا أظفره الله بأصحاب الجمل وقد قال له بعض أصحابه: وددت أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال له عليه السلام: **أَهَوَى (أمحبّة) أخيك معنا؟** فقال: نعم، قال: **فقد شَهِدَنا، ولقد شَهِدَنا في عسكرنا هذا أقوامٌ في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمانُ ويقوى بهم الإيمان**»[1].

ويبلغ اللطف الإلهيّ بالعبد حدّاً عظيماً، فهو تعالى يُثيبه على مجرّد محبّته لمن يعتقد أنّهم من أهل الخير حتى لو تبيّن لاحقاً أنّهم لم يكونوا منهم، شريطة أن تكون هذه المحبّة في الله تعالى، فعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الباقر عليه السلام قَالَ: «**لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَحَبَّ رَجُلاً لِلَّه لأَثَابَه اللَّه عَلَى حُبِّه إِيَّاه وإِنْ كَانَ الْمَحْبُوبُ فِي عِلْمِ اللَّه مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ولَوْ أَنَّ رَجُلاً أَبْغَضَ رَجُلاً لِلَّه لأَثَابَه اللَّه عَلَى بُغْضِه إِيَّاه وإِنْ كَانَ الْمُبْغَضُ فِي عِلْمِ اللَّه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة**»[2].

وهذا الحديث هو نظير الأحاديث المعروفة بأحاديث «مَنْ بلغ»، ومفادها: أنّ كلّ من بلغه ثواب على عمل، فقام بذلك العمل رجاء ذلك الثواب، فإنّ الله سيعطيه ذلك الثواب حتى لو كان ما بلغه غير دقيق، ففي الحديث عن أبي جَعْفَرٍ الباقر(ع): «**مَنْ بَلَغَه ثَوَابٌ مِنَ اللَّه عَلَى عَمَلٍ فَعَمِلَ ذَلِكَ الْعَمَلَ الْتِمَاسَ ذَلِكَ الثَّوَابِ أُوتِيَه وإِنْ لَمْ يَكُنِ الْحَدِيثُ كَمَا بَلَغَه**»[3].

إنّها رحمة الله الواسعة ولطفه الذي لا يُحدّ ولا يوصف!

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٤.
(٢) الكافي ج ٢ ص ١٢٧، والمحاسن ج ١ ص ٢٦٥، ومصادقة الإخوان للشيخ الصدوق ص ٥٠.
(٣) م.ن ص ٨٧، ونحوه أحاديث أخرى.

٧ ـ المتحابّون في الله جيران الله

وتمتدح الرواياتُ الواردةُ عن النبيّ ﷺ والأئمةِ من أهل بيته عليهم السلام الأشخاص المتحابّين في الله، حيث تعتبرهم «جيران الله» وتضمن لهم ثواباً جزيلاً لِتَلَاقِيهم واجتماعِهِم على الحُبّ في الله سبحانه، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة حشر الله الخلائق ونادى منادٍ ليقم أهل الفضل، فيقوم فئام (أي فئات).. ثم ينادي مناد ليقم جيران الله في دار السلام. فيقوم فئام من الناس فتستقبلهم الملائكة يبشّرونهم بالجنة، ويقولون: ما فضلكم هذا الذي جاورتم به الله في دار السلام؟**

فيقولون: كنا نتحابّ في الله ونتزاور في الله ونتواصل في الله ونتباذل في الله.

فيقال لهم: ادخلوا الجنة فأنتم جيران الله في دار السلام»(١).

وفي الحديث القدسي: «**حقّت محبتي للمتحابين فيّ، وحقّت محبتي للمتواصلين فيّ، وحقّت محبتي للمتزاورين فيّ، وحقّت محبتي للمتباذلين فيّ**»(٢).

ما أروع محبّة الله تعالى وما أوسعها وأعظمها، فهي تغمر المتحابين في الله تعالى والمتواصلين والمتزاورين والمتباذلين فيه، لأنّ هؤلاء قد تساموا في علاقاتهم ومشاعرهم وجرّدوها عن كلِّ الحسابات المادية الضيقة وأرادوا لها أن تكون لله وفي الله سبحانه وتعالى، فكان جزاؤهم أن وجبت لهم محبة الله.

تلك بعض مظاهر حُبّ الله تعالى لنا ولطفه بنا، وهي غيضٌ من فيض نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى.

---

(١) دعائم الإسلام ج٢ ص ٣٢٥.

(٢) المستدرك للحاكم النيسابوري ج ٤ ص ١٦٩.

ثالثاً: كيف يحبُّنا ثمّ يعذبنا؟!

وقد يسأل البعض: إذا كان الله تعالى يحبنا كما قلتم وأسهبتم في الحديث عنه وكان خَلْقُ النار لا ينافي محبته لنا كما ذكرتم، لكن لماذا خلقنا وهو يعلم أنّه سيعذب البعض منا؟! أليس ذلك منافياً للحُبّ؟

والحقيقة أنّ الأسئلة التي يمكن أن تُطرح على هذا الصعيد هي ثلاثة:

أولاً: لماذا خلقنا الله؟ أو ما هو هدف الخلق؟

ثانياً: ألا يعدّ خلقه لنا مع علمه بأنّه سيعذبنا ظلماً لنا ومنافياً لعدله تعالى؟

ثالثاً: ألا يعدّ خلقه للعباد الذين يعلم بأنهم سوف يعصونه ويستحقون العقاب منافياً لمحبته.

١ ـ هدف الخلق

وفي الإجابة على السؤال الأول نقول: إن هناك عدة نظريات في تفسير وتوجيه هدف الخلق:

أ ـ فهناك النظرية العرفانية التي ترى أنّ السؤال لا يصحّ ولا ينبغي أن يُطرح عن سبب الخلق، بل إنّه لو لم يخلقنا لحقّ أن نسأل لماذا لم يخلقنا؟ وذلك لأنّ الخلق هو تعبير عن فيض الله ولطفه، والفيّاضيّة هي من كنهه تعالى، ولا نتصور الله تعالى إلاّ فياضاً، ولذا ـ وطبقاً لهذه النظرية ـ فلا يتصور وجود مرحلة ينقطع فيها الفيض الإلهي، فمنذ كان الله تعالى في الأزل كان فياضاً ومعطاءً.

باختصار: إنك لا تسأل الكريم: لماذا أنت كريم، لأنّ الكرم طَبْعٌ فيه وصفة ذاتية وملازمة له ولا تنفك عنه، فلا يستطيع إلاَ أن يكون كريماً، وإنّما تسأل الكريم عن بخله ومنعه، والله تعالى هو الكريم

الذي لا يُحَدُّ كرمُه ولا يُوصف، فخلقه للعباد هو من تجليات كرمه وحُبّه ولطفه.

ب ـ وهناك النظرية الفلسفية التي تبرّر الخلق باعتباره إيجاداً، والوجود خير من العدم، إنّه خير محض، وهذا الكون بكل عناصره هو مظهر من مظاهر الحكمة الإلهية في الإيجاد والخلق، لما فيه من إتقان وإبداع وروعة وجمال قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة ٧]، ولخلوّه من النقص والخلل، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك ٣].

ج ـ وفي الرؤية القرآنية، فإنّ هدف الخلق يتحدد بالمعرفة، فقد خلقهم الله تعالى ليعرفوه ويتكاملوا بمعرفته فيصلوا إلى أعلى درجات الكمال، وإذا عرفوه عبدوه ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦]، وعبادته لا تنحصر بخصوص الأعمال العبادية المعهودة من صلاة وصيام وحج.. فهذه على أهميتها لا تختصر العبادة، بل إنّ مفهوم العبادة أوسع من ذلك بكثير، فهو يشمل كلّ الأنشطة والأعمال الإنسانية التي لا يراد بها إلاّ وجه الله أو خدمة عيال الله، بمعنى آخر: إنّ انخراط الإنسان في مشروع الخلافة (خلافة الله على الأرض) بإعمار الأرض إعماراً مادياً وروحياً، كما أراد الله تعالى وخطّط، هو عمل لا يبتعد أبداً عن عبادة الله تعالى.

وتذكر بعض الآيات القرآنية سبباً آخر للخلق وهو في العمق لا يبتعد عن سابقه، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ﴾ [هود١١٨ ـ ١١٩]، وينقسم المفسرون[1]

(١) أنظر على سبيل المثال: مجمع البيان للطبرسي ج ٥ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

في تحديد المراد باسم الإشارة «**لذلك**» في الآية، فبينما يرى بعضهم أنّ مرجع اسم الإشارة إلى الرحمة، ليكون المعنى أنّ الله تعالى إنما خلقهم لأجل الرحمة، يرى آخرون أنّ المرجع هو الاختلاف، ليكون المقصود أنّ الاختلاف هو سبب الخلق وغايته، فاختلاف الناس بمعنى تنوّع مشاربهم وتعدّد طاقاتهم واختلاف أمزجتهم وألوانهم هو هدف الخلق، لأنّ هذا التنوع هو الذي يثري الحياة ويغنيها ويُغني جماليتها، لأنه يحفّز على التنافس ويحرّض على تقديم الأفضل.

ويمكن تقديم رأي جامع بين الرأيين المذكورين، وذلك بالقول: إنّ هدف الخلقة الأقصى والأسمى هو الرحمة، ولكنّ الرحمة لا تأتي اعتباطاً أو مجاناً، وإنّما تتوقف على انخراط الإنسان في مشروع الخلافة والذي يلعب الاختلاف والتنوع دوراً محورياً في وصوله إلى غايته المنشودة.

٢ ـ لماذا خلقنا مع علمه بعاقبتنا؟

وأما السؤال الثاني، وهو السؤال عن مدى ملائمة خلقه تعالى للعصاة مع عدله سبحانه وتعالى، وهذا نظير ما يقال من أنّ الأبوين سيكونان ظالمَيْن لو أنهما أقدما على إنجاب طفل مع علمهما المسبق بأنه سوف يكون ولداً مشوهاً تشويهاً تاماً وأنه سيعيش حياة ملؤها المعاناة والألم، فمع علمهما بذلك وقدرتهما على تجنّب حصوله أقدما على الزواج والإنجاب.

والإجابة على ذلك هي أنّه تعالى إذ خلقنا فقد أحسن إلينا، لأنّ الوجود خيرٌ محض، كما قدّمنا، وعلمه بأننا سنكون من أهل المعصية والتمرّد لا ينافي عدله ولا حكمته إطلاقاً، لأنّ المفروض أنّه خلقنا وأعطانا حرية الاختيار وهدانا لما فيه مصلحتنا، ولم يجبرنا على معصيته، فإن عصيناه فبإرادتنا وسوء اختيارنا، وإن أطعناه فبإرادتنا وحسن اختيارنا، فليس في خلقه إيانا مع علمه بأننا سنختار طريق

المعصية أي ظلم لنا، بل نحن من ظلمنا أنفسنا، قال تعالى: ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [الزخرف ٧٦].

٣ ـ كيف يحبّنا ولا يجنّبنا العذاب؟!

وأما السؤال الثالث، فيقول: إننا نسلّم بأنّ خلقه تعالى لنا مع علمه بأننا سنختار طريق الانحراف لا ينافي عدله، لكن ينافي رحمانيته ومحبته، لأنّ عدم خلقه للعصاة هو رحمة بهم دون شك، لأنّ ذلك سيحول دون وقوعهم في العذاب، فلماذا خلق الله العصاة إذن وهو يعلم بمآلهم؟ ألم يكن ترك خلقهم هو الأكثر انسجاماً مع لطفه ورحمته ومحبته؟

ويمكن الجواب على ذلك:

أولا: إنّ من خصائص هذه الدنيا أنّها تجري طبقاً لمجموعة من السنن والقوانين الإلهية الحاكمة، ومن أهمها أنّ هذه الدنيا تشكّل ميداناً لاختبار الإنسان ومضماراً للسباق وجسرَ عبورٍ نحو العالم الآخر، وفي هذا الاختبار يجدّ أناسٌ ويجتهدون في خط طاعة الله تعالى، فيكون التقدم حليفهم والفوز نصيبهم، ويتراخى أناس آخرون ويركنون للغرائز وينقادون للشهوات، فيكون مصيرهم هو التأخر والرسوب، وفي ضوء هذه السُّنة الإلهية فلا وجه للاعتراض المذكور لأنّه يعني باختصار أنّ هذه الدنيا ستخرج عن طبيعتها وقوانينها، بحيث لا يخلق الله فيها إلاّ الصالحين الذين يضمن صلاحهم وإيمانهم واستقامتهم، وحينئذٍ يكون الأجدى في التساؤل أن يقال: لِمَ لَمْ يخلقنا الله ملائكة أو كالملائكة الذين لا يعرفون المعصية ولا يستطيعون التمرد على الله، قال تعالى: ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم ٦]؟!

وطبيعي أنّ الإجابة على تساؤل من هذا النوع واضحة، فإنّ الملائكة بحكم أنّهم لا يعرفون المعصية ليسوا أفضل من الإنسان بشكل مطلق، بل إنّ الإنسان

هو المخلوق الأفضل من حيث المبدأ، وذلك بحكم إرادته واختياره وقدرته على التمرد، فهو يطيع مختاراً ويعصي مختاراً، ولذا لم يكن عبثاً أن يختاره الله تعالى من بين سائر خلقه ليكون خليفته على الأرض طبقاً للرؤية القرآنية المستفادة من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة ٣٠]، ومن الطبيعي أنّ الإنسان عندما يسير في خط الخلافة وطريق الكمال كما خطّط له الله تعالى، فسيكون عندئذٍ أفضل من الملائكة، لأنه وصل إلى ذلك باختياره وإرادته رغم الصعاب والتحديات، وعندما ينحدر خلقياً وينحرف عن الصراط المستقيم فيُفسد في الأرض ويسفك الدماء كما توقّع الملائكة أنفسهم، فإنّه والحال هذه لن يسامي الملائكة دون شك ولن يصل إلى مقامهم، بل سينحطُّ إلى ما دون مستوى الحيوان.

ثانياً: من قال بأن الله سيعذّب العاصي جزماً ويقيناً، صحيح أنّه توعّده بذلك، ولكنّ القبيح هو الخُلْف بالوعد، وأما الخلف بالوعيد[1] فليس قبيحاً صدوره من العاقل الحكيم فكيف بسيد الحكماء، ولذا من الممكن أن يعفو الله تعالى عن العصاة، فالأمر إليه فقد يعفو وقد يعاقب ولا نملك أن نحتّم عليه شيئاً من ذلك، أجل ليس من الحكمة في شيء أن يتمّ تجاوز قانون «**ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء**»، فتكون منزلة العاصي والمطيع واحدة عند الله في ميزان الحساب الأخروي، فهذا ليس منطقياً ولا يفعله الحكيم، لأنّ « **في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة**»[2]، ولذا قد يتجاوز الله تعالى عن العصاة، ولكنّه بالتأكيد لن يجعلهم عنده في رتبة العاملين المطيعين، فضلاً عن رتبة الأولياء والصديقين والشهداء، ومن هنا فإنه

(١) «الوعد هو الإخبار بوصول نفع إلى الموعود له، والوعيد عبارة عن الإخبار بوصول ضرر إليه». أنظر: كتاب الاقتصاد للشيخ الطوسي ص١٠٨.

(٢) كما قال علي عليه السلام، أنظر: نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٩.

تعالى إذا شاء العفو عن العاصي فإنه قد يحرمه من بعض مراتب القرب المعنوي من الله عَزَّوَجَلَّ لكون هذا العبد ليس أهلاً لذلك. وهذا في حدّ ذاته قد يكون عقاباً أليماً له.

ثالثاً: ولا ننسى التذكير بما سلف من أنّ العذاب الأخروي بناءً على نظرية «تجسم الأعمال» ليست انتقاماً إلهياً ولا عقوبة تشريعية أقرّها الله تعالى على تجاوز حدوده، ليرد الإشكال بمنافاة ذلك لحبّه تعالى لعباده، وإنّما هي نتيجة طبيعيّة تترتب بشكل تكويني على المعصية.

رابعاً: التوحيد في الحُبّ

وإذا كان الله تعالى هو مصدر الجمال والجلال والكمال وهو المعطي بلا منّ والمنعم بلا حدّ، فمن البديهي أن تعشق جمالَه القلوبُ الوالهة وأن تنجذب إلى جلالِه النفوسُ السويّة وأن ترنو إلى كماله الأرواحُ الطاهرة وأن يدخل حُبُّه إليها دون استئذان.

ويمكننا القول: إنّ الإنسان العارف بالله تعالى من خلال مظاهر قدرته ومواقع عظمته وتجليّات حكمته ودلائل لطفه وكرمه لا يستطيع إلاّ أن يحبّه، ولا بدّ أن تثمر معرفته هذه حُبّاً وعشقاً لله سبحانه وتعالى، على أنّ قانون ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمان ٦٠] يفرض على ذوي العقول السليمة أن يبادلوا ربّهم الحُبّ بالحُبّ، وهذا أضعف الإيمان، فالحُبّ هو أدنى مراتب شكر المنعم الخلاق.

ومن الناحية الاعتقادية فلا يتمّ ولا يكمل إيمان العبد إلاّ بأن يكون حُبّه لله تعالى متقدّماً على حُبّ مَنْ عداه، ففي الحديث عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا يَمْحَضُ رجل الإيمان بالله حتى يكونَ الله أحبّ إليه من نفسه وأبيه وأمه وأهله وماله ومن الناس كلِّهم**»[1]، وهذا معناه أنّ علينا أن نوحّد الله في الحُبّ

(١) فلاح السائل للسيد ابن طاووس ص ١٠١.

وحركة المشاعر، فإنّ التوحيد لا يقتصر على أن نوحّد الله في الخالقية والربوبية والعبودية والطاعة، بل وأن نوحّده في الحُبّ أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وينبغي أن يُعلم أنّ حُبّنا لله تعالى لا يتنافى مع حبنا لأولادنا وآبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وأهلينا وأموالنا ومساكننا.. فحبنا لكلِّ مَا عدا الله ومَنْ عداه هو حُبّ مشروع ولا غبار عليه، لأنّ الله تعالى فطرنا على ذلك وأمرنا به، لكنّ مشروعيّة هذا الحُبّ مشروطة بأن لا يتقدّم حُبّ أحد على حُبّ الله عندما يتزاحم الحُبّان ويتنافيان، حتّى لو كان هذا الشخص من آبائنا أو أمهاتنا أو أولادنا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

إنّ المشكلة هي عندما يتحوّلُ حُبُّك لابنك أو لزوجك، أو لبيتك أو لسيارتك، أو لموقعك في السلطة.. إلى معبودٍ من دون الله، فينسيك الله، وتتجاوز لأجله تعاليم الله، فتعتدي وتظلم أو تحابي وتسرق أو تغشّ وتكذب فهنا تقع في فخ الشركَ في الحُبّ وتنحرف عن خط التوحيد العام.

وفي ضوء ذلك يتّضح لنا معنى التوحيد في الحُبِّ ومغزاه، فإننا عندما نوحِّد اللهَ في الحُبّ ـ كما نوحّده في الألوهية أو الخالقية أو الربوبية أو العبودية ـ فلا يُراد بذلك أن لا نحبَّ أحداً غيره، بل المقصود أن لا يتقدّم حُبّ أحدٍ من الناس أو غير الناس على حُبّه تعالى، المطلوب منا أن نحبَّ في الله، ونبغضَ في الله، لتبقى قلوبنا نابضةً بحُبِّ الله تعالى، يقول الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «**القلب حَرَمُ الله فلا تُسْكِنْ في حَرَمِ الله غيرَ الله**»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٦.

وفي الدعاء المروي عن الإمام علي عليه السلام والمعروف بدعاء «كُميل» نجده يطلب إلى الله تعالى أن يجعل قلبه متيّماً بحُبّه عزّ وجلّ، إذ يقول: «**واجعل لساني بذكرك لهجاً وقلبي بحُبّك متيّماً**».

والقلب المتيّم بحُبّ الله لن يبتعد عنه تعالى طرفة عين أبداً، كما جاء في الدعاء المنسوب إلى الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إلهي مَنْ ذا الذي ذاقَ حلاوة حُبّك فَرَامَ مِنْكَ بَدَلاً، ومَنْ ذا الذي أنِسَ بِقُرْبِكَ فابتغى عَنْكَ حِوَلاً**»[1].

الحُبّ في الله ضابط إيقاع

وعندما يكون الله تعالى هو محور الحُبّ ويكون حُبّنا لمن سواه دائراً في فَلَك حُبّنا له عزّ وجلّ، فإنّ ذلك لن يجنّبنا الوقوع في الشِرْك في الحُبّ فحسب، بل وسوف يجنبنا الغلو في حُبّ مَنْ وما عداه.

والحقيقة أنّ الغلو في الحُبّ والذي قد يصل إلى حدّ رفع مَنْ عداه تعالى مِنَ الأنبياء عليهم السلام أو الأولياء أو غيرهم عن مستوى البشريّة وإعطائهم صفات الربوبية هو في الواقع إشراك قد يتجاوز حدّ الشرك في الحُبّ ليصل إلى حدّ الشرك في الخالقية أو الربوبية أو العبودية، ومن هنا فإنّ سعينا وحرصنا على أن يبقى حُبّنا لمن عداه تعالى دائراً في فلك حُبّه تعالى هو الذي سوف يُحَصِّننا من الوقوع في الغلوّ في الحُبّ ويشكّل صمّام أمان لنا عن الوقوع في الشرك، وهذا ما يجعلنا نعي مغزى التأكيد الذي جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام على أن يكون حُبّنا لهم في خطّ حُبّنا لله تعالى وفي خطّ حُبّنا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ففي الحديث عن الإمام عليِّ بن الحسين عليه السلام: «**أحبّونا حُبَّ الإسلام**» ويضيف: «**سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أيّها الناس لا ترفعوني فوق قدري فإنّ الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبيّاً**»[2].

(١) من مناجاة المحبّين، أنظر: بحار الأنوار ج٩١ ص١٤٨..

(٢) المستدرك للحاكم النيسابوري ج٣ ص١٧٩.

إنّ هذا الحديث واضح الدلالة على ضرورة اتخاذ الإسلام مقياساً وميزاناً لمحبتهم عليهم السلام، فلا يدفعنا حُبّهم إلى تجاوز الإسلام عقيدة أو شريعة، وهذا هو الذي يَحُول دون الوقوع في فخّ الغلوّ.

ونظيره حديث آخرُ مرويّ عنه عليه السلام قال: «**أحبونا حُبّ الاسلام، فما زال حُبّكم لنا حتى صار شيناً علينا**»(١).

خامساً: هل نخاف الله أم نحبّه؟

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّنا نعتقد أنّ أكمل وأفضل أنواع العلاقة مع الله تعالى هي تلك التي يحكمها مبدأ الحُبّ لا مبدأ الخوف، لأنّه سبحانه ليس مصدراً للخوف والرعب لنخافه كما نخاف السلاطين الظَّلَمة ـ مثلاً ـ!!

صحيح أنّ الكثير من النصوص الدينيّة من الآيات والروايات تحدّثنا عن «مخافة الله» باعتبارها صفة كمال في الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:١٧٥]، إلى غير ذلك من النصوص التي تمتدح الذين يخافون الله سبحانه وتعالى، إلاّ أنَّ «خوف الله» هنا لا يراد به الخوف الذي ينطلق من كونه تعالى ـ في ذاته أو صفاته ـ مصدراً للخوف، وكيف يكون جلّ وعلا مخيفاً، وهو العدل المطلق، والجمال الكليّ، وهو الرَّحمة الشاملة التي لا توصف ولا تُحَدّ، والتي وَسِعَت كلّ شيء؟! وكيف يكون مخيفاً وهو الذي كتب على نفسه الرَّحمة؟!

قد تسأل: إذاً لماذا علينا أن نخاف الله تعالى؟ وكيف نفهم مخافته، طبقاً لما جاء في العديد من الآيات والروايات؟

والجواب: إنّنا نخافه خوفَ المذنب الذي يؤلمه التقريع والحساب، خوفَ

(١) الإرشاد للمفيد ج ٢ ص ١٤١.

العبد الآبق والهارب عندما يتمّ إحضاره إلى سيّده، وفي العمق فإنّنا نخاف من عاقبة ذنوبنا، ومن جُرأتنا وتمرّدنا عليه، وهذا ما أوضحه قوله تعالى: ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [الرعد:٢١]، ولا نخافه لكونه مصدر الخوف أو القلق، أو لأنّه يبطش ويظلم، تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً، وقد ورد في بعض الأدعية: «**جللت أن يُخاف منك إلا العدل، وأن يُرجى منك إلاّ الاحسان والفضل، فامننْ عليّ بما أوجبه فضلُك، ولا تخذلني بما يحكمُ به عدلُك**»[1].

إنّ معنى أن نخاف الله تعالى، هو أن نستحضر عظمته ووجوده في كلّ أعمالنا وخطواتنا وأفكارنا ومشاعرنا وفي كلّ ما نَهُمُّ بارتكابه وفعله أو باجتنابه وتركه، أن نخافه يعني أن لا نعيش الغفلة عنه طرفة عين أبداً. إنّ معنى عبارة: «خفِ الله»، أو «اتقِ الله» أو «اخشَ الله» أنّ عليك الابتعاد عن الجرأة والتمرّد عليه، لأنّ الجرأة عليه ستوقعك في الشقاء، لا لأنّ جرأتك عليه تضرّه أو تُنقص في ملكه، فهو عزّ وجلّ «**لا تضرّه معصية مَنْ عَصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه**»[2]، ومن خلال هذا البيان يتضح أنّ الدعوة إلى مخافة الله تعالى هي في عمقها دعوة إلى ما فيه خير الإنسان ومصلحته في الدنيا والآخرة، بل هي دعوة إلى محبّة الله تعالى والسير في خطّ رضوانه وطاعته، لأنّ العاصي المذنب المتمرّد على سيّده هو كاذب في ادعاء الحُبّ، فالحُبّ الصادق من المفترض أن يدفع إلى الطاعة، لأنّ الحبيب لا يُقدم على أيِّ عمل يُغضب حبيبه.

إنّ الأجدى والألْيق بنا أن نخاف الله خوف المحبّين، لا أن نُحبّه حُبّ الخائفين، لأنّ الخوف لا يصنع حُبّاً، بينما الحُبّ يجعل العبد المحبَّ خائفاً وَجِلاً من التقصير في خدمة الحبيب.

(١) دعاء يقرأ بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام المروية عن الإمام الجواد عليه السلام، أنظر: بحار الأنوار ج٩٩ ص ٦٥.
(٢) نهج البلاغة، من خطبة له في وصف المتّقين ج٢ ص ١٦٠.

عبادة الأحرار المحبّين

ومن هنا فإنّ علينا وفي سبيل الارتقاء بالعلاقة مع الله من مرحلة الخوف إلى مرحلة الحُبّ أن نسعى لتدريب أنفسنا وقلوبنا وعقولنا على حُبّ الله، وأن نلتزم خطّ طاعته ونبتعد عن مواقع معصيته، حتى يكون رضاه هو أسمى غاياتنا، والقرب منه هو غاية مُنَانا، وبذلك نسمو في علاقتنا العبادية مع الله ﷻ ونرتفع عن مستوى عبادة العبيد الخائفين أو عبادة التجار الطامعين، إلى المستوى الأرفع وهو عبادة الأحرار المحبين، ليكون الحُبّ والعشق هو عصب العبادة ونبضها وروحها، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله ﷻ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأُجَراء، وقوم عبدوا الله ﷻ حُبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[1].

وهذا المضمون مرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام وسيّد العباد والزاهدين حيث قال: ـ فيما روي عنه ـ: «**إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[2].

إنّ المحبّ الحقيقي لله تعالى لا يتطلّع كثيراً إلى ملذّات الجنّة ومشتهياتها ولا يشغله كثيراً حديث الحُور والقصور والخمور وما إلى ذلك من أنهار الجنّة وأشجارها وغيرها من المتع الحسيّة، وإنّما يتطلّع إلى ما هو أسمى وأرفع من ذلك، يتطلّع إلى حُبّ الله تعالى ورضوانه ويرغب في الوصول إلى معدن العظمة، فذاك غاية همّه ومنتهى مُنَاه.

رضـــاكَ رضـــاكَ لا جــنّــات عَـــدْن
وهـــل عَـــدْنٌ تـطـيـبُ بـلا رضـاكـا[3]

---

(١) الكافي ج٢ ص٨٤.

(٢) نهج البلاغة ج٤ ص٥٣.

(٣) ينسب هذا البيت إلى السيد صدر الدين العاملي (١١٩٣ ـ ١٢٦٣ هـ)، أنظر: تكملة آمل الآمل للسيد حسن الصدر ص ٢٣٩.

فالجنّة ونعيمها وكلّ ما فيها من ملذّات حسيّة لا قيمة لها في عين الحبيب العاشق لله تعالى إلاّ باعتبارها فرصة للقاء المحبوب، وقد عبّرت الأبيات الشعرية التالية عن هذا المعنى:

يا حبيب القلوب مَنْ لي سِواكا
إرحَمِ اليومَ زائراً قد أتاكا
أنت سُؤْلِي وبُغيتي وسروري
قد أبى القلبُ أن يحبَّ سِواكا
يا مُنايا وسيّدي واعتمادي
طال شوقي متى يكونُ لقاكا
ليس سُؤْلي مِنَ الجنان نعيماً
غير أنّي أريدها لأراكا[(١)]

وكما لا يتطلّع المحبّ الحقيقي لله إلى الجنة وملذاتها، فإنّه لا يهتمّ لدخول النار وعذاباتها ولا يشغلُ بالَه عظيمُ حرّها ولهيبها، ولا يزعجه أو يكدّر خاطره أن تزجره زبانيتها بقدر ما يؤلمه ويشغل باله ويكدّر عيشه فراق الحبيب، «**فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك**»[(٢)].

إنّه يبكي لفراق الحبيب أكثر مما يبكي لدخول النار، «**ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين**»[(٣)].

باختصار: إنّ نار المحبّ الحقيقيّة تتمثّل في غمّ الفراق وهجران الحبيب له، «**إلهي نفس أعززتها بتوحيدك كيف تذلّها بمهانة هجرانك؟ وضمير انعقد على**

(١) تنسب هذه الأبيات إلى جارية عتاب الكاتب، أنظر: الفتوحات المكيّة ج ٣ ص ٣٩٥.
(٢) من دعاء الإمام علي عليه السلام المعروف بدعاء كميل.
(٣) م.ن.

مودَّتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك؟!»[1].

وما أجمل قول أبي فراس في التعبير عن هذا المعنى بِبُعديه، عنيت بهما: عدم انشغال العاشق الحقيقي بالثواب، وعدم مبالاته بالعقاب، يقول:

كــذاكَ الــوِدادُ المَحْضُ لا يُـرْتَـجَـى لَهُ
ثــوابٌ ولا يُـخْـشَـى عَـلَـيـهِ عِـقَــابُ[2]

وربّما يصل المحبّ لله تعالى في ذروة مسيرته الروحيّة إلى مرحلة يرى معها أنّ الانشغال بغير ذكر الله تعالى هو مدعاة للاستغفار، ففي المناجاة المنسوبة للإمام زين العابدين عليه السلام: «**وأستغفرك من كلّ لذّة بغير ذكرك، ومن كلّ راحة بغير أُنسك، ومن كلّ سرور بغير قربك، ومن كلّ شغل بغير طاعتك**»[3].

هل هي نزعة صوفيّة؟

قد يعترض عليّ البعض قائلاً: إنّ في كلامك الآنف نزعة صوفيّة مبالغ بها وليست مطلوبة، بل إنّها في بعض مستوياتها لا تنسجم مع طبيعة الإنسان التي تستدعي توازناً بين متطلبات الجسد ومتطلبات الرّوح، أو متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة، وهو الأمر الذي كفلته الشريعة الإسلامية بسماحتها المعهودة.

وأقول في الجواب: صحيح أنّ النظرة الإسلاميّة إلى الدنيا ومتطلباتها هي نظرة متوازنة وبعيدة كلّ البعد عن الإفراط والتفريط، لكن مع ذلك فإنّه لا دليل على منع الإنسان من سلوك هذا الطريق الروحيّ إلى أقصى مدى يمكن بلوغه، وليس ثمّة ما يدعو إلى الحدّ من طموح الإنسان على هذا الصعيد، فلدينا متّسع كبير في سلوك هذا الطريق ما دام العبد لم يَخِلّ بواجباته وينعزل عن الحياة الاجتماعية، ولم يخرج عن الخطّ العام الذي رسمته الشريعة الإسلامية، ولم يقع في منزلقات أو متاهات أو

(١) من مناجاة الخائفين المنسوبة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، بحار الأنوار ج ٩١ ص ١٤٤.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٩٥.
(٣) من مناجاة الذاكرين المنسوبة للإمام زين العابدين عليه السلام، أنظر: بحار الأنوار ج ٩٢ ص ١٥١.

شطحات التصوّف، بل إنّ هذا السلوك أو الطموح الروحي الهادف إذا كان يرمي إلى وصول الإنسان إلى مرحلة اليقين فهو ليس مطلباً مشروعاً فحسب، بل هو غاية المنى لكلّ مؤمن، وقد منّ الله تعالى على الكثير من أوليائه فوصلوا إلى مراحل متقدمة جداً على صعيد درجات القرب المعنوي، وعلى رأسهم نبيّنا محمّد ﷺ، الذي وصل إلى درجة روحيّة عالية لا يساميه فيها أحد، وهكذا الإمام عليّ عليه السلام الذي وصل إلى مرتبة اليقين كما عبّرت عن ذلك الكلمة المشهورة المرويّة عنه: «**لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[1].

وتمكين الله تعالى عباده من الوصول إلى تلك الرتبة العالية، والتي يكون لسان حال العبد فيها أو لسان مقاله: «**وأستغفرك من كلّ لذّة بغير ذكرك**» فيه حكمة بالغة، لأنّ ذلك يعني أنّ درجات القرب المعنويّ من الله مفتوحةٌ أمام العباد وأنّ بإمكانهم الترقّي في هذا المجال إلى أعلى الدرجات، كما أنّ ذلك سوف يقطع حُجّة المقصّرين وعذر المتلكئين ومدّعي العجز عن إصلاح أنفسهم.

ولنا في هذا المجال أسوةٌ حسنة بموسى الكليم عليه السلام والذي لم يمنعه اختياره من قبل الله لمقام النبوّة ممّا عبّر عنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه ١٣] لم يمنعه ذلك عندما رأى في نفسه حاجة إلى مزيد من المعرفة المعنويّة أو السلوك الروحي أن ينطلق في رحلة تعليميّة يتّلمذ فيها على يدَي «عبد صالح» وصفه الله تعالى بأنّه ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا ﴾ [الكهف ٦٥]، فتقدّم موسى عليه السلام إليه بكلّ تواضع طالباً منه أن يسمح له باتباعه ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا ﴾ [الكهف ٦٦].

وربّما يقال: إنّ فقرة المناجاة المذكورة وتحديداً فقرة: «**وأستغفرك من كلّ لذّة بغير ذكرك**»، تتضمّن معنىً مقبولاً ومنسجماً مع الخطوط الشرعيّة العامة، ولا

(١) مناقب آل أبي طالب ج١ ص ٣١٧ ـ وعيون الحكم والمواعظ ص ٤١٥، والوافي بالوفيات ج٨ ص ٧٧.

داعي لافتراض أنّها تعبّر عن حالة صوفية خاصة، ويتضح ذلك على ضوء فهمنا لمفهوم الذكر الوارد فيها، فذكر الله لا ينحصر بخصوص الأوراد التي يرتّلها الذاكرون، بل إنّه أوسع من ذلك بكثير، فإنّ معنى أن تكون ذاكراً لله تعالى أن لا تغفل عنه طرفة عين أبداً، وأن يكون تعالى حاضراً في كلّ تصرفاتك وأنشطتك ومواقفك في المجالات كافّة، وعليه فكلّ نشاط إنساني أردْتَ به وجه الله تعالى هو نوع ذكر لله سبحانه، ومن هنا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**من أطاع الله عزّ وجلّ فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن**»(١).

بل إنّ التفكّر في آيات الله وفي دلائل عظمته ومظاهر حكمته هو في منطق الإسلام عبادة تفوق الكثير من العبادات ثواباً وأهميّة، هكذا يتحوّل التفكير إلى عبادة، وما أجلّها من عبادة! في الحديث سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «**ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ**» (٢).

وفي حديث آخرّ قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة؟ قال: **نعم، قال رسول الله** ﷺ: **تفكّر ساعة خير من قيام ليلة**، قلت: كيف يتفكّر؟

قال: يمرّ بالدار والخربة، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ ما لك لا تتكلّمين!»(٣).

الزيارات: حُبّ لله وحُبّ للناس

وكما أنّ ساعات الدعاء والمناجاة ولحظات العبادة والتفكّر هي فرصة ثمينة للقاء الله يتوجّه إليه فيها العباد بقلوب يغمرها الإحساس بالحُبّ والرّجاء، فإنّ زيارة أولياء الله تعالى بما تحمله من دلالات وترمز إليه من مَعَانٍ وتمثّله من حالة

(١) معاني الأخبار ص ٣٩٩ والمقصورد بالصلاة والصيام في الحديث هو المستحب منهما، بقرينة قوله: «وتلاوته للقرآن» المعطوف عليهما.
(٢) الكافي للكليني ج٢ ص ٥٥.
(٣) المحاسن للبرقي ج ١ص ٢٦.

تواصل مع روح المزور فإنّها تنمي فينا الشعور بمحبّة الله تعالى ومحبّة أوليائه، وبذلك يتعمّق حضورهم في حياتنا أكثر فأكثر، وإنّنا لنتلمس هذه الأجواء المفعمة بالحُبّ في زيارة «أمين الله» التي روي أنّ عليَّ بن الحسين عليه السلام زار بها جدّه أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام وهي من أكثر الزيارات اعتباراً: قال عليه السلام: «**اللهم! فاجعل نفسي مطمئنّة بقدرك راضية بقضائك مولعة بذكرك ودعائك محبّة لصفوة أوليائك محبوبة في أرضك وسمائك صابرة على نزول بلائك مشتاقة إلى فرحة لقائك متزوّدة التقوى ليوم جزائك مستنة بسنن أوليائك مفارقة لأخلاق أعدائك مشغولة عن الدنيا بحمدك وثنائك**»[1]، إنّ الإمام زين العابدين عليه السلام يستحضر وهو في زيارة جدّه عليّ عليه السلام كلّ معاني الحُبّ، ليعلّمنا أنّ الزيارة ليست مناسبة نتعبّأ فيها بالحقد ضد الآخرين، وإنّما هي فرصة لتطهير النفوس من الحقد والغلّ وشحنها بكلّ ما يسمو بالإنسان روحياً ومعنوياً، وانظر بتأمل إلى قوله عليه السلام: «**محبوبةً في أرضك وسمائك**»، حيث يطلب الزائر من الله تعالى أن يجعله إنساناً محبوباً لدى سكان الأرض وهم الناس جميعاً، ولدى سكان السماوات، والمراد بهم الملائكة، ومن الطبيعيّ أنّ الإنسان لن يكون محبوباً لدى الآخرين إلاّ بأخلاقه الطيبة وصدقه في الحديث وأدائه للأمانة، بالإضافة إلى إيمانه وتقاه وتديّنه.

سادساً: كيف نحبّ الله؟

ولك أن تسألني وأتساءل معك: إذا كانت علاقتنا مع الله لا بدّ أن تُبنى على أساس الحُبّ لا الخوف، فكيف يتسنّى لنا أن نتذوّق حلاوة حُبّ الله تعالى؟ أو كيف نصل إلى مرتبة المحبّين لله سبحانه؟

والجواب: إنّ الوصول إلى درجة المحبّين لله تعالى، ليس بالأمر الهيّن، ولكنّه

(١) المصباح للشيخ الطوسي ص٧٣٨.

في الوقت عينه ليس بالأمر المستحيل أو المتعذر، فالله سبحانه قد هيّأ نفوس العباد ومنحهم استعداداً ذاتياً لتلقي وتقبّل كلّ معاني الكمال والجمال والخير، وفطرهم على توحيده وغرس في قلوبهم أشجار محبّته، وهو عَزَّ وَجَلَّ لا يحتجب عنهم، وإنّما هم الذين يصنعون الحجب بينهم وبين الله تعالى، وقد ورد هذا المعنى في دعاء السَّحر للإمام زين العابدين والمعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، حيث يتوجّه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محبوبه وخالقه قائلاً: «**وأنّك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك**»، فأعمالهم السيئة والقبيحة هي الحجب التي تمنعهم من رؤية الله تعالى بعين البصيرة، وهي الموانع التي تفقدهم الإحساس بتذّوّق حلاوة الحُبّ الإلهي، ومن هنا فكلّما انجرف الإنسان مع الشهوات فإنّ ذلك سيبعده عن الله تعالى، ويفقده شيئاً من حلاوة حُبّه، الأمر الذي يجعلنا بحاجةٍ ماسّة إلى إعداد برنامج خاص يمكّننا اعتماده من الوصول إلى تلك المرتبة.

وهذا البرنامج يقوم على عدة أسس قد تـحدّث عنها علماء الأخلاق والعرفان، ويهمّني هنا الإشارة إلى بعض الخطوات الأساسية التي يمكننا استلهامها من القرآن الكريم، وهي خطوات هامّة ولا يستغني عنها الإنسان السائر في طريق محبّة الله، والساعي للوصول إلى تلك الكرامة العظيمة، وهي أن يكون ممن يحبّهم الله، وأعتقد أنّ اعتماد هذه الخطوات سيضع الإنسان على الطريق الصحيح، والخطوات هي:

١ ـ «فاتّبعوني يحببكم الله»

وأولى هذه الخطوات التي لا يتسنّى للإنسان دونها الوصول إلى رتبة «يحبّهم الله» هي الالتزام بالخطّ الرساليّ الذي جاءت به الرسل، فمحبّة الله تعالى لا تُنال بمجرّد الادعاءات الفارغة والمظاهر الخادعة والمزاعم العريضة، كما جرى مع بعض أتباع الشرائع السماوية السابقة الذين حدثنا عنهم القرآن الكريم بالقول: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقد فنّد الله

تعالى مزاعمهم وردّ ادعاءاتهم: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة ١٨].

إنّ محبّة الله إنّما تُنال بالالتزام والسير العملي الجادّ والصادق في خطّ طاعة الله، واتّباع رسله، وعلى رأسهم نبيّنا محمّد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران ٣١].

أعمال يحبّها الله

وقد أوضح لنا القرآن الكريم في العديد من آياته أهمّ الأعمال التي يحبّها الله تعالى، وإليك العناوين العامّة لهذه الأعمال التي جاء التعبير القرآني حولها بصيغة «يحبّ»، دون الدخول في بيان تفاصيلها ودون ذكر ما يناظرها في المعنى مما ورد في القرآن أو في السُّنة المعتبرة بتعابير مختلفة:

منها: التوكّل على الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ـ ١٥٩].

ومنها: الإحسان، قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة ١٩٥، ولاحظ آل عمران ١٣٤، المائدة ١٣ وغيرها]

ومنها: الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٦]

ومنها: التقوى، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ٧٦ ولاحظ: التوبة آية ٤ و٧]

ومنها: التوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة ٢٢٢]

ومنها: العدل، قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة ٤٢ ولاحظ: الحجرات ٩، والممتحنة ٨].

ومنها: التطهّر، قال سبحانه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة ١٠٨].

ومنها: الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف ٤].

وأخرى يبغضها

وفي المقابل، فإنّ هناك أعمالاً صرّح القرآن الكريم بأنّ الله لا يحبّها، لأنّها تمثّل خروجاً عن خطّ الاستقامة، وتعود بالضرر البليغ على الإنسان، وإليك عرضاً مجملاً ومختصراً لهذه الأعمال، مع الاقتصار ـ أيضاً ـ على العناوين الواردة بصيغة «لا يحبّ» في القرآن الكريم دون ما يناظرها في المعنى مما ورد في الكتاب والسّنة الشريفة:

منها: الاعتداء، وقد ورد ذلك في العديد من الآيات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٩٠، والأعراف ٥٥].

ومنها: الفساد والإفساد، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة ٦٤، والقصص ٧٧]

ومنها: الكفر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران ٣٢، الروم ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة ٢٧٦]

ومنها: الظلم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران ٥٧، ١٤٠، والشورى ٤٠]

ومنها: التكبّر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان ١٨، ولاحظ: النساء ٣٦، والحديد ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل ٢٣].

ومنها: الخيانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال ٥٨، ولاحظ: النحل ٣٨].

ومنها: الفحش وقول السوء، قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء ١٤٨].

ومنها: الإسراف، قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام ١٤١، والأعراف ٣١].

ومنها: البطر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص ٧٦].

ومن الضروري التنبيه إلى أنّ الله تعالى يهتمّ بدوافع العمل (النوعيّة) أكثر مما يهتمّ بكثرته (الكميّة)، وعليه فكلّ عمل يؤدّيه المكلّف خالصاً لوجه الله، أو لخدمة عيال الله، ولا يتحرّك في عمله رياءً أو عُجباً فهو عمل يرضاه الله ويحبّه ويثيب العبد عليه حتى لو كان يسيراً، وكل عمل يدخله الرياء والعُجْب فهو عمل يبغضه الله حتى لو كان جليلاً وكبيراً، ومن هنا فإنّ الله قد امتدح أهل بيت النبيّ ﷺ، لأنّهم يطعمون الطعام على حُبّ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان ٨ و٩]، بناءً على أنّ مرجع الضمير في كلمة ﴿حُبِّهِۦ﴾ إلى الله تعالى، كما يرى جمع من المفسرين، وليس إلى الطعام كما يرى جمع آخر.

ونظيره قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٧٧].

وفي تفسير قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يأتي الاتجاهان المذكوران في الآية السابقة.

٢ ـ مجاهدة النفس «أَرُوضُها بالتقوى»

وثاني هذه الخطوات وهي مكمّلة للخطوة الأولى، هي العمل على مجاهدة مستمرّة للنفس الأمارة حتّى لا يسيطر عليها حُبّ الأنا أو حُبّ الدنيا، بما يعميها عن الهدى أو يصدّها عن التقى، أو يحجبها عن حُبّ الله أو يبعدها عن لذيذ مناجاته، وما أكثر الحجب التي تَحجُبنا عن الله تعالى! فيغيب حُبّ الله عن قلوبنا في غمرة الهوى، وسطوة الشهوات، ووسوسة الشيطان!

وما أكثر العناصر التي تشدّنا نحو الإخلاد إلى الأرض وتحول بيننا وبين الطاعة والزلفى، فهناك النفس الأمّارة بالسوء التي تزيّن لنا الهوى، وهناك الشيطان الذي يغوينا ويملأ صدورنا بالوساوس، أمام كلّ ذلك يكون لزاماً علينا بعد الاستعانة بالله تعالى(١) أن نعيش حالة طوارىء روحيّة وحالة استنفار مستمرّة، وحالة جهاد لا تتوقّف للنفس الأمارة بالسوء، قال عليّ عليه السلام: «**إنّما هي نفسي أَرُوضُها بالتقوى، لتأتي آمنةً يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق**»(٢).

ولنتأمل في استخدامه عليه السلام لفعل المضارع «أروضها» الدّال على الاستمرار والتجدّد.

والرياضة الروحيّة بطبيعة الحال تستدعي محاسبة النفس ومراقبتها في دوافعها

---

(١) ومن أروع ما ورد في المناجاة حول هذا الموضوع هو ما نسب إلى الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الشاكين: «**إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل طويلة الأمل، إن مسّها الشرّ تجزع، وإن مسّها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة وتسوفني بالتوبة. إلهي أشكو إليك عدواً يضلني، وشيطاناً يغويني، قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزيّن لي حُبّ الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى. إلهي إليك أشكو قلباً قاسياً، مع الوسواس متقلباً، وبالرين والطبع متلبساً وعيناً عن البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما يسرّها طامحة..**» أنظر: بحار الأنوار ج ٩١ ص ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٧١.

ومنطلقاتها وفي هبوطها وارتفاعها، وللإنسان بحاجة إلى المراقبة والمحاسبة المستمرّة لا لنفسه وقلبه فحسب، بل لعقله وسلوكه أيضاً، لأن تلوّث العقل سيؤثّر سلباً على القلب، كما أنّ أيّ انحراف في السلوك، سوف يؤثّر على القلب أيضاً وربّما يميته، في الحديث القدسي: «**يا موسى** عليه السلام **لا تنسني على كلّ حال فإنّ نسياني يميت القلب**»[1].

٣ ـ التأمّل في آيات جماله وجلاله

والخطوة الثالثة على هذا الطريق، هي أن يعيش العبد على الدوام حالة تأمّل وتفكّر في آيات جمال الله وسبحات جلاله ومعاني كماله ودلائل حكمته ومظاهر قدرته عزّ وجلّ، فإنّ ذلك مدعاة لمحبته وعشقه، وعشقُ المحبوب يبدأ بعشق صفاته.

وقد أشارت رابعة العدوية إلى بعض هذه المعاني في مناجاتها الشعرية المعروفة:

أحُبّك حُبّين: حُبَّ الهوى
وحُبّاً لأنّك أهلٌ لذاكا

فأمّا الذي هو حُبُّ الهوى
فشغلي بذكركَ عمّن سِوَاكا

وأمّا الذي أنت أهلٌ له
فكشفُك لي الحجْبَ حتى أرَاكا

فلا الحمدُ من ذا ولا ذاك لي
ولكن لكَ الحمْدُ في ذا وذاكا[2]

إنّ التعرّف على الله تعالى والارتباط الروحيّ به من خلال التأمّل في صفاته والتدبّر في آياته سوف يركّز الإيمان به في القلوب ويجذّره في النفوس، ولا يبقى

(١) الكافي ج٢ ص٤٩٨.
(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ص ٩٤، والفتوحات المكية لابن عربي ج ٢ ص ٣٥٩، وإحياء علوم الدين للغزالي ج ١٤ ص ٦٨.

هذا الإيمان مجرّد قناعة فكرية وعقليّة جافّة وباردة، لأنّك عندما تؤمن به من خلال آياته البادية في الآفاق والأنفس فهذا يعني أنّه لن يقع ناظراك على شيء أو تمتد يداك إلى شيء إلاّ وترى الله فيه وقبله ومعه، ليغدوَ كلّ هذا الكون (وليس مكاناً خاصاً فحسب) هو معبد لله سبحانه، وليغدوَ الزمانُ كلُّه في كلّ مقاطعه وفواصله هو فرصة ملائمة للقاء المحبوب، فتكون دائماً في حالة اتصال روحيّ وتواصل عباديّ معه، وكما قال الشاعر[1]:

فيا عجباً كيفَ يُعصى الإلهُ
أم كيف يجحده الجاحد!
ولله في كلِّ تحريكةٍ
وفي كلِّ تسكينةٍ شاهِدُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ
تدلُّ على أنّهُ واحِدُ

٤ ـ الإمساك بالحُبّ «أبصرت فاثبت»

والخطوة الرابعة التي ينبغي الانتباه إليها هي أنّ المُحِبَّ لله ـ وفي سعيه المتواصل للفوز برضا المحبوب وحظوته بلذيذ مناجاته وقربه الدائم ـ بحاجة مستمرّة إلى الحرص على الإمساك بالحُبّ والعناية الدائمة به واختباره، لأنّ الحُبّ إذا أفلت منه وانطفأت حرارته وخلا القلب من وميضه أو خبا نوره، فإنّ ذلك سيخدش صفاء المودّة بينه وبين حبيبه، ومن غير المعلوم أن يُوفّق للإمساك به مجدّداً.

ورد في الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه الصادق عليه السلام قَالَ: **اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ النُّعْمَانِ الأَنْصَارِيَّ فَقَالَ لَه:**

كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَةَ بْنَ مَالِكٍ؟

(١) هذا الشعر هو لأبي العتاهية «إسماعيل بن مسلم»، أنظر: تاريخ بغداد ج٦ ص٢٥١.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه مُؤْمِنٌ حَقّاً!

فَقَالَ لَه رَسُولُ اللَّه ﷺ: لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ؟

فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرَتْ لَيْلِي وأَظْمَأَتْ هَوَاجِرِي وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي [وَ] قَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ وكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ.

فَقَالَ لَه رَسُولُ اللَّه ﷺ: عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّه قَلْبَه، أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ!

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه ادْعُ اللَّه لِي أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ مَعَكَ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْ حَارِثَةَ الشَّهَادَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّاماً حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ سَرِيَّةً ـ فَبَعَثَه فِيهَا فَقَاتَلَ فَقَتَلَ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً ثُمَّ قُتِلَ»[١].

أنظر إلى قوله ﷺ لحارثة «أبصرت فاثبت»، إنّه يريد القول له: لا يغرنّك ما وصلت إليه، ولا يكفي أن تصل أو تُبصر وإنّما الأهمّ كيف تثبت وتحافظ على ما وصلت إليه.

وقول حارثة: «كأنّي أنظر إلى أهل الجنة..» ورد نظيره في صفات المتقين، مما جاء في كلام عليّ عليه السلام: «**عَظُم الخالق في أنفسهم فصغُر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون**»[٢].

إيقاظ القلب بالمواعظ

وقد تسأل: ما هو الأسلوب الأمثل لنثبتَ على ما وصلنا إليه من بصيرة، أو لنحافظ على حرارة العلاقة الروحيّة بيننا وبين الله فتبقى علاقة يسودها الحُبّ

(١) الكافي ج٢ ص ٥٤ باب حقيقة الإيمان واليقين، قال الكليني: «وفِي رِوَايَةِ الْقَاسِمِ بنِ بُرَيْدٍ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ اسْتُشْهِدَ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ وكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ»، أنظر المصدر نفسه، وروى قبلها وفي الباب نفسه رواية أخرى بإسناده إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إنّ رسول الله ﷺ.. وهذه الرواية معتبرة سنداً، ويظنّ قوياً وحدة القضيّة المنقولة في الروايتين.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص١٦١.

والصفاء ولا تخدشها الأهواء ولا تفترسها الأحقاد؟

والجواب: إنّ الأسلوب الأمثل على هذا الصعيد هو ـ بالإضافة إلى ما ذكرناه للتّو من ضرورة المراقبة المستمرّة للنفس ومجاهدتها ومحاسبتها ـ :

أولاً: السعي الدؤوب إلى إيقاظ القلب وإحيائه بالمواعظ المنعشة وإمداده بشحنات أو جرعات روحيّة مستمرة، وهذا الشحن الروحي يتحقق من خلال التأمل الواعي والبصير في كلّ آيات الله، باعتبارها مظهراً من مظاهر حكمته وتجلّياً من تجليات حبه لخلقه، سواء كانت هذه الآيات في الآفاق أو في أنفسنا، وهكذا من خلال الاعتبار بمن مضى وقراءة التجارب الروحيّة للأنبياء عليهم السلام والأولياء.

ثانياً: الطلب من الله تعالى والتوسل إليه ليوفّق العبد للوصول إلى درجة المحبّين، كما كان يدعو الإمام زين العابدين عليه السلام فيما نُسب إليه من مناجاة: «**إلهي أسألك حُبَّك وحُبَّ من يُحبُّك وحُبَّ كلّ عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحبَّ إليّ مما سواك، وأن تجعل حُبّي إياك قائداً إلى رضوانك وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك**»[1].

الحُبّ الحركيّ والحُبّ التجريديّ

وأخالُ أنّ اتّباع المنهج المذكور في العلاقة مع الله تعالى والمعتمد على الخطوات المشار إليها، وأهمّها الخطوة الأولى ويمكن أن نسميَّه بمنهج «الحُبّ الحركيّ»، لن يوصل الإنسان إلى برّ الأمان على الصعيد الروحي والاجتماعي والأخلاقي فحسب، بل إنّ هذا المنهج ومن خلال أصالته القرآنية سوف يضيء على نقاط الخلل في المنهج الآخر الذي سلكه بعض المتصوّفة أو أهل العرفان، وهو المنهج الذي يكتفي بـ «الحُبّ التجريدي» في العلاقة مع الله، بما يفتح باباً واسعاً لأهل الأهواء في سبيل التحلّل والتهرّب من الالتزامات الشرعية،

(١) مناجاة المحبّين، مصدر سابق.

ولا يضمن هذا المنهج أو يمنع من الوقوع في شطحات الغلوّ والإسراف في الحُبّ، وذلك عندما يكتفي السالك في العلاقة مع الله تعالى بالحُبّ وحده، ولا يعير اهتماماً ملحوظاً للعمل والنشاط العبادي، بل يعتبره ولو في المرحلة الأخيرة من مراحل ما يعرف بخطّ السير والسلوك أمراً ثانويّاً، ويتمسّك أصحاب هذا المنهج ببعض الأعذار أو الحجج الواهية، من قبيل أنّ العمل العباديّ ليس واجباً نفسياً بل هو واجب غيري وعلى سبيل المقدمة، فهو ـ أي العمل ـ يرمي إلى إيصال الإنسان إلى مرحلة اليقين، فإذا وصل فلا يجب عندها إشغال النفس بهذه العبادات والصور الظاهريّة! ولذا عندما يُطلب من أتباع هذا المنهج الالتزام بالخطّ العملي الذي نصّت عليه الشريعة من الصلاة والصوم والحج.. وترك المحرّمات كشرب الخمر وأكل الربا.. فإنّهم يردّون بأنَّ هذه التكاليف الشرعية إنّما هي لعامة الناس ممن لم يتسنَّ لهم الوصول إلى مرحلة اليقين!

ونظيره ما يردّده بعض الناس في زماننا ولو من خلفيّة أخرى ممن يقولون لك عندما تطالبهم ببعض الالتزامات الشرعيّة: إنّ الإيمان في القلب!

ولكننا نقول لأصحاب منهج «إذا وصلت فاصنع ما شئت»: إنّكم واهمون ومخطئون وذلك لاعتبارين:

أولاً: إنّ «الوصول عند أهل الوصول يعني ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل». بهذه الكلمة المختصرة ردّ ابن أبي جمهور الأحسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على بعض مدعي الوصول[1]، وهو ردّ رائع ومتين. ومقصوده أنّ الواصل لا يترك العمل الذي كان سبب وصوله، أجل إنّ الواصل يختلف أداؤه للعمل عن غير الواصل، فغير الواصل تراه أثناء العمل منشغلاً بالعمل معجباً به، فتشغله ملاحظة العمل

(١) جاء ردّ الأحسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا في كتاب المجلي ج ٣ ص ٩٤٢، وهذا الكلام جاء في حوار بين ابن أبي جمهور وأحد الزهاد المنقطعين عن الناس، وهو حوار رائع، وأرغب في أن يطّلع عليه قارىء هذا الكتاب، ولذا فإني أنقله كما جاء في كتاب «المجلي» في الملحق الأول من ملاحق هذا الكتاب.

عن ملاحظة ربّ العمل (المعمول له)، بينما الواصل قد تجاوز هذه العقبة فهو يرى أن التطلّع إلى العمل لا يليق في حضرة ربّ العمل، لأنّ مقتضى الأدب أن لا تتطلّع في محضر ذي الجلال إلى غير بهائه وأن لا تنشغل بغير جماله.

على أنّه ما الذي يضمن لك أن تظلّ في مرحلة الوصول إذا تركت العمل؟ فالعمل كما أوصلك إلى هذه المرحلة، فإنّ له وظيفة أخرى، وهي أن يحميَك من الرجوع القهقري أو الطرد من ذاك المقام.

وبكلمة أخرى: إنّ العمل والنشاط الروحي مطلوب في الطريق ومطلوب بعد انتهاء الطريق والوصول إلى الغاية، فهو مطلوبٌ حدوثاً ليوصلك، ومطلوبٌ بقاءً لتحافظ على حالة الوصول، ولهذا يكون القول: «إذا وصلت فاصنع ما شئت» هو من جملة تسويلات الشيطان، أو النفس الأمارة بالسوء والميّالة إلى اللعب والراحة والدّعة وترك النشاط والعمل.

ثانياً: لو كان العمل هو مجرّد مقدمة للوصول وبعدها فلا يبقى له قيمة تذكر لكان الأنبياء والأولياء عليهم السلام هم أوّل من أُثر عنهم ترك العمل أو عدم الاهتمام به ولو جزئياً، لأنّهم عليهم السلام من أهل الوصول، والحال أننا نجدهم أحرص الناس على العمل والمداومة عليه، فهذا عليّ عليه السلام صاحب مقولة «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[1] لم يترك العبادة حتى في ذروة نشاطه الروحي.

ربما يقال: إنّ مقولة «**إذا عرفت فاصنع ما شئت**» ليست مقولة لبعض العرفاء أو المتصوّفة ليسهل ردّها ورفض مضمونها، وإنّما هي نصّ كلام وارد في رواية عن بعض الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

والجواب: صحيح أنّ المقطع المذكور وارد في الرواية لكنّه مقتطع من سياقه، ما أوجب فهماً خاطئاً له، وإليك الحديث بأكمله كما ورد في المصادر، فقد روى

(١) تقدم سابقاً تخريج مصادره، فلاحظ.

الكليني بإسناده عن محمد بن مارد قَالَ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللَّه (الصادق) عليه السلام: حَدِيثٌ رُوِيَ لَنَا أَنَّكَ قُلْتَ: «**إِذَا عَرَفْتَ فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ**»؟

فَقَالَ: **قَدْ قُلْتُ ذَلِكَ**.

قَالَ: قُلْتُ: وإِنْ زَنَوْا أَوْ سَرَقُوا أَوْ شَرِبُوا الْخَمْرَ!

فَقَالَ لِي: **إِنَّا لِلَّه وإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ! واللَّه مَا أَنْصَفُونَا أَنْ نَكُونَ أُخِذْنَا بِالْعَمَلِ ووُضِعَ عَنْهُمْ! إِنَّمَا قُلْتُ: إِذَا عَرَفْتَ فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ مِنْ قَلِيلِ الْخَيْرِ وكَثِيرِه فَإِنَّه يُقْبَلُ مِنْكَ**»[1].

ونقول لمن يريد التحرّر من الالتزامات الشرعيّة الدينيّة بحُجّة أنّ الإيمان في القلب: لا شكّ ولا ريب أنّ موطن الإيمان هو القلب، ولا قيمة لإيمان لا يغمرُ القلبَ بحُبِّ الله، لكنّ طهارة القلب لا بدّ أن تنعكس على السلوك وحركة الجسد، إذ كيف يكون قلبك طاهراً وأعضاؤك ترتكب الحرام، فتمتلأ البطن من المال الحرام، وتمتدّ اليدُ إلى إيذاء الضعفاء، وتتحرّك الرِجْلان في ظلم عيال الله، وتتطلع الباصرة إلى ما حرّم الله مما يندرج تحت عنوان خائنة الأعين؟!

كيف تعرف أنّ الله يحبُّك؟

في ضوء ما تقدّم يتضح أنّ الحُبّ الحقيقي والصادق لله تعالى هو الحُبّ الذي يُصَدِّقُه العمل والسير في خطّ طاعة الله، والذي يعني أن تحبّ الله في معترك الحياة، وليس في الكهوف والصوامع. وهذا هو العرفان الحقّ، إنّه عرفان القرآن، العرفان الذي يجعلك حاضراً في الميدان ولا يعزلك عن قضايا الناس.

وهؤلاء، أعني أصحاب الحُبّ الحركيّ، هم الذين يضمن لهم القرآن أن يبادلهم الله الحبّ بالحُبّ، إذ ليس مهماً أن تحبّ الله أو بالأحرى تتخيّل أنّك

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٦٤.

تحبّ الله تعالى، بل الأهمّ أن يحبّك الله ويبادلك الحُبّ بالحُبّ، وإذا كان بإمكانك أن تعرف من نفسك أنّك تحبّ الله تعالى، فكيف وأنّى لك أن تعرف أنّ الله يحبّك حتى لا يكون الحُبّ من طرف واحد كما يقال في لغة العصر؟

وباختصار: متى نصل إلى مرحلة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؟

والجواب عن ذلك قد قدّمه لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١]، فمن يستطع أن يضمن لنفسه السير في هدي محمّد ﷺ، تضمنْ له الآية المباركةُ أنّه جزماً ممنّ يحبّهم الله تعالى ويبادلهم الحُبّ بالحُبّ، إنّها معادلة سهلة وغير معقدة ولكنّها تحتاج إلى إرادة وصبر وأناة.

وهناك آية أخرى تؤكّد المبدأ عينه وهو أنّ حُبّه تعالى لا ينفكّ عن العمل، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة ٥٤]، فالذين «يحبّهم ويحبّونه» هم من اتصفوا بأنّهم أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، وأنّهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون فيه تعالى لومة لائم.

«حبّب إليكم الإيمان»

وليس عليك أيّها الحبيب القاصد إلى الله أن تعيش اليأس أو يثقلك الهمّ بسبب كثرة المعوقات التي تعكّر عليك صفو العلاقة الروحيّة مع ربّك ومحبوبك، لأنّه تعالى لن يتركك وحيداً في الميدان تصارع الشيطان والهوى وحدَك، فما أكثر ما هيّأ لك من السّبل وزوّدك من الإمكانات التي تشدّك نحو الكمال وتأخذ بيدك إلى درجة المقرّبين، ممن وصفهم في كتابه قائلاً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة ١٠ ـ ١٤]!

لقد زوّدك بفطرة صافية وضمير صاحٍ ينبّهك على الدوام إلى ما فيه صلاحك،

وأرسل لك الرّسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليكونوا خير معين لك في رحلتك، ليس فقط من خلال سيرتهم التي تعدّ مثالاً أعلى لك في الحياة، بل من خلال هذا الزاد الروحيّ العظيم الذي تضمّنته رسالاتهم وتعاليمهم.

وفوق ذلك كلّه، فإنّه تعالى قد منّ عليك بلطف لا نظير له، وهو أنّه حبّب إليك الإيمان وزيّنه في قلبك وكرّه إليك الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات ٧].

والاتجاه البارز في تفسير هذه الآية المباركة يذهب إلى أنّ المراد من تحبيبه تعالى للإيمان وتزيينه في القلوب وتكريهه للكفر والفسوق والعصيان هو أنّه تعالى «حبّب إليكم الإيمان بذِكرِ ثوابه، ومَدْحِ فاعليه على فعله، وكرّه الكفر بذِكرِ عقابه، وذمّ فاعليه على فعله»(١).

وهذا الاتجاه ـ كما هو واضح ـ يقتصر على تفسير التزيين بالتزيين التشريعي، ولكنّ الظاهر أنّه لا وجه لحصره بذلك، فهو يعمّ التزيين التشريعي والتكويني، والمراد بالتزيين التكويني هو تهيئة قلوبهم ونفوسهم بطريقة تجعلها منشدّة إليه تعالى ليكون محبوباً لهم ومرغوباً لديهم، كما أنّ طبيعة الإيمان الذي زيّنه الله في قلوبهم وماهيته ووظيفته تجعله عنصر أمن للإنسان، فهو ـ الإيمان ـ يلبي حاجة فطرية لدى الإنسان، وينسجم والفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها، فإنها ميّالة إلى الله سبحانه ومنقادة له، في الحديث عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّه** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ: يَعْنِي الْمَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللَّه** عَزَّ وَجَلَّ **خَالِقُه**»(٢).

ولا يبتعد عن هذا الرأي الذي ذكرناه في تفسير التزيين بما يجعله عامّاً وواسعاً لما يشمل التزيين التكويني، لا يبتعد كثيراً عنه ما ذكره بعض المفسرين من أنّه

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ١٣٢،

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٣.

تعالى إنّما زيّن الإيمان في القلوب «بنصب الأدلّة على صحته»[1]، فإنّ أهمَّ الأدلّة على صحّة الإيمان بالله تعالى هي الأدلة العقلية والهداية التكوينية الفطرية.

ومما يشهد لهذا الرأي أيضاً تقييد التزيين في الآية المباركة بأنّه في القلوب.

سابعاً: آثار حُبّ الله في الحياة

ثمَّ إنَّ حُبّ الله تعالى إذا تمكّن من قلب الإنسان، فسوف يترك آثاراً طيّبة ومهمّة في حياتنا الفردية والاجتماعية:

١ ـ فهو سوف يمنحنا الأمن والاطمئنان، قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:٢٨]، فمهما واجهنا من صعوبات يبقى حُبّ الله هو أنيسنا، يُروى عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال في دعائه: «**ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وما الذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟**»[2]، إنّ لسان المحُبّ على الدوام:

فليتَك تحلُو والحياةُ مريرةٌ
ولَيْتكَ تَرضى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامرٌ
وبيني وبينَ العالمينَ خَرَابُ
إذا صحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هيّنٌ
وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرَابُ[3]

(١) التبيان في تفسير القرآن ج ٩ ص ٣٤٥.

(٢) ورد هذا المقطع في الزيادة التي أضافها ابن طاووس على دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، أنظر: بحار الأنوار ج٩٥ ص٢٢٥، وفي انتساب هذه الزيادة إلى الإمام الحسين عليه السلام كلام، يمكن ملاحظته في الملحق رقم (٣).

(٣) من قصيدة لأبي فراس الحمداني قالها وهو في سجن الروم مخاطباً بها سيف الدولة، أنظر: يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٩٥.

٢ ـ وسوف يمنحنا الانضباط العملي والسلوكيّ، لأنّ المحُبَّ لا يمكن أن يُغضِبَ حبيبه أو يزعجه، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران:٣١]. إنّ مَنْ كان لديه معشوق هو مصدر الحُبّ والجمال والجلال والكمال وهو الله عزّ وجلّ لا يمكنه ـ إذا كان مخلصاً للعشق ـ أن يُشرِكَ في حُبّه طرفة عين أبداً، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما أحبّ الله عزّ وجلّ من عصاه**»، ثمّ تمثّل فقال:

تعصي الإلـــهَ وأنـــتَ تُـظْـهِـرُ حُـبَّـهُ
هـــذا لـعـمـرُك فـي الـفـعـالِ بـديـعُ
لـو كـــانَ حُـبُّــكَ صـــادقـاً لأَطَـعْـتَـهُ
إنّ الـمـحـبَّ لِـمَـن يُـحـبُّ مـطـيـعُ(١)

٣ ـ وهو سوف يدفعنا ـ أيضاً ـ لنحبّ كلّ من أحبَّ الله وأحبّه الله، بعيداً عن الهوى والعصبية.

وهذا الأثر (الثالث) سيكون مصبّ الحديث في المحور الثالث الآتي.

ثامناً: آثار حُبّ الله في العالم الآخر

والآثار الطيّبة لعلاقة العبد مع الله القائمة على أساس الحُبّ لن تظهر في الدنيا فحسب، بل ستظهر في العالم الآخر، ونوضحُ هذا الأمر من خلال النقطتين التاليتين:

١ ـ الموت ولقاء الحبيب

لا شكّ أنّ استقبال الإنسان للموت ومواجهته له ليست مسألة سهلة على الإطلاق، بيد أنّ المحبّ لله سيواجه الموت بطريقة مختلفة فهو يقدم على لقاء حبيبه وهو الله سبحانه وتعالى، أجل قد يتهيّبُ الموتَ لما يعنيه من مفارقة الأهل

(١) الأمالي للصدوق ص٥٧٨.

والخلّان والانتقال من عالَم يألفه إلى عالَم جديد لم يألفه ولم يعرفه حقّ المعرفة، ولكنّه لن يخافه أو يجزع منه، فضلاً عن أن يعترض على مشيئة الله في ذلك. الموت بالنسبة إليه مناسبة للقاء الحبيب، والحبيب لا يكره لقاء حبيبه بل يسرّه ذلك ويستبشر به، أرأيتَ المرأةَ التي تخرجُ عروساً من بيت أهلها وذويها فإنّ دموع الفراق، فراق أهلها ومراتع طفولتها، ستتغلّب عليها ولكنّها مع ذلك تخرج والأمل يشدّها والشوق يقودها إلى لقاء حبيبها ومعشوقها لتعيش معه حياةً هانئة وسعيدة، وكذلك مفارقة المؤمن للدنيا إنّها صعبة عليه بكلّ تأكيد، فالدنيا هي بيته وداره ومراتع صباه وهو يترك فيها أهله وخلّانه، ولكنّه في الوقت عينه يفارقها إلى لقاء الحبيب الأوّل، وإلى دار البقاء ومجاورة الأحبّة والصادقين والصالحين، وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام قال: **لمّا أراد الله تبارك وتعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام، أهبط إليه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا إبراهيم.**

قال: وعليك السلام يا ملك الموت، أداعٍ أم ناع؟

قال: بل داع يا إبراهيم، فأجبْ.

قال إبراهيم عليه السلام: فهل رأيت خليلاً يميت خليله؟!

قال: فرجع ملك الموت حتى وقف بين يدي الله جلّ جلاله، فقال: إلهي قد سمعت ما قال خليلك إبراهيم.

فقال الله جلَّ جلاله: يا ملك الموت، اذهب إليه وقل له: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟»[1].

وقد تقدّم سابقاً في زيارة «أمين الله» أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام طلب من الله تعالى بأن يجعل نفسه مشتاقة إلى فرحة لقائه عز وجل: «**اللهم اجعلْ نفسي مطمئنة بقضائك.. ومشتاقة إلى فرحة لقائك**».

(١) الأمالي للصدوق ص٢٦٤.

بكلمة أخرى: إنّ مَنْ وصل إلى مرتبة المحبّين واشتغل قلبه بحُبّ الله تعالى، فإنّه ومهما صعب عليه فراق الدنيا والأهل والولدان والخلّان والديار.. فإنّه سيظل واثقاً بأنّه إنّما يَقْدِمُ على ربّ غفور رحيم كريم، ولذا فهو يُقْبِلُ عليه بقلبٍ ملؤه التسليم واليقين وبنفس مطمئنة آمنة، وهذا ما نراه عند أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حيث استقبل الموت بكلّ سرور واطمئنان عندما ضربه ابن ملجم بالسيف على أمّ رأسه، وقال في تلك اللحظة العصيبة كلمته الشهيرة: «**فزت وربّ الكعبة**»[1].

٢ ـ حُبّ الله وأمل النجاة من النار

وحُبّ الله وكذا الحُبّ في الله لن تظهر ثمرتهما في دار الدنيا فقط، ولا عند الموت فحسب، بل إنّ الثمرة الأوفى والأطيب والأغلى لذلك سوف تظهر وتتكشف في يوم الحسرة والتغابن يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، هناك وفي ذاك الموقف الرهيب سيشعر كلّ من كان قلبُه نابضاً بحبّ الله بالأمن والسلام والاطمئنان، وسوف يكون حُبّ الله هو النور الذي يمشي به في صحراء يوم القيامة، وهو السبيل إلى مرضاة الله عزّ وجلّ، ولو أنّ العبد كان محبّاً لله تعالى صادقاً في حُبّه، لكنْ قد شاب حُبَّه بشيء من التقصير في جنب الله بما استوجب دخوله النار تطهيراً له فإنّ ذلك لن يطفئ جذوة الحُبّ من قلبه، بل ستبقى هذه الجذوة هي الأمل الذي ينقذه من النار «**ولئن أدخلتني النار لأخبرنّ أهل النار بحبّي لك**»[2]، وليس على الله بعزيز أن ينجّيه من النار ويخرجه منها، رعاية لصدقه وإخلاصه في الحُبّ، بل ليس على الله بعزيز أن يجنّبه دخول النار أساساً ويتجاوز عن تقصيره، كرمى لقلبه النابض بحبّ الله،

---

(١) أنظر: خصائص الأئمة للشريف الرضي ص ٦٣، والاستيعاب لابن عبد البر ج ٣ ص ١١٢٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٩ ص ٢٠٨، وأسد الغابة لابن الأثير ج ٤ ص ٣٨، وتروى هذه الكلمة عن أحد الصحابة وهو حرام بن ملحان خال أنس، وأنّه قالها في غزوة بئر معونة عندما طعن في جوفه بالرمح، فلمّا أحسّ بحرارة الرمح قال: «الله أكبر، فزت ورب الكعبة»، أنظر: صحيح البخاري ج ٥ ص ٤٣، وغيره من المصادر.

(٢) من دعاء السحر المروي عن الإمام زين العابدين وهو المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، أنظر: مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٥٩٦.

«إلهي هل تسود وجوهاً خرّت ساجدة لعظمتك؟! أو تخرس ألسنة نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك؟! أو تطبع على قلوب انطوت على محبتك؟! أو تصمّ أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك في إرادتك؟! أو تغلّ أكفاً رفعتها الآمال إليك رجاء رأفتك؟! أو تعاقب أبداناً عملت بطاعتك حتى نحلت في مجاهدتك؟! أو تعذّب أرجلاً سعت في عبادتك؟! إلهي لا تُغلقْ على موحّديك أبواب رحمتك ولا تحجبْ مشتاقيك عن النظر إلى جميل رؤيتك»[١].

وأمّا من خلا قلبه من حُبّ الله وامتلأ بحبّ من عداه عَزَّوَجَلَّ فليس له على الله حقّ، لأنّ «**المرء مع مَنْ أحبّ**»[٢].

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ يخاطب بعض أصحابه: «**من أحبّنا كان معنا يوم القيامة، ولو أنّ رجلاً أحبَّ حجراً لحشره الله معه**»[٣].

اللهم وإنّنا نحبّ نبيّك صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وآل بيته الأطهار عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، فنسألك أن تدنينا منهم وأن تحشرنا مع صفوة أحبائك وأوليائك وتجمعنا وإياهم في جنّات عدن، فهذا يا إلهي هو أملنا ورجاؤنا فيك، وهذا طمعنا في عفوك، فنحن نعترف بتقصيرنا وإسرافنا ونقرّ أنّنا بأعمالنا لا نستحقّ عليك شيئاً، ولكنّنا نملك قلوباً تنبض صادقة بحبّك وتتطلّع إلى عفوك وكلنا أمل أن تعاملنا بلطفك لا بعدلك، لأنّك إن عاملتنا بعدلك هلكنا.

المرء مع مَنْ أحبّ

ومن الآثار والخصائص الأخرويّة للحُبّ أنّه يقرّب الإنسان ويدنيه ممن يحبّهم، فمن أحبّ قوماً حشره الله معهم، وورد في الحديث أنّ أبا ذر وقد كان شخصاً معروفاً بانقطاعه إلى عليٍّ وأهل البيت عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، خاطب رسولَ الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وقال: «يا نبيّ الله، إنّي أحبّ أقواماً ما أبلغ أعمالهم؟

(١) من مناجاة الخائفين المنسوبة إلى الإمام زين العابدين عَلَيْهِالسَّلَامُ.

(٢) كما ورد في الحديث عن أبي جعفر الباقر عَلَيْهِالسَّلَامُ، أنظر: الكافي ج١ ص١٢٧.

(٣) الأمالي للصدوق ص٢٧٨.

قال: فقال: **يا أبا ذر، المرء مع من أحبّ، وله ما اكتسب.**

قلت: فإنّي أحبّ الله ورسوله وأهل بيت نبيّه؟

قال: **فإنّك مع من أحببت**»[1].

ومن الطبيعي أنّ هذا الحديث ونظائره[2] لا يهدف إلى التقليل من قيمة العمل، ولا ينبغي أن يفهم على أنّه يُشجّع على ترك العمل أو ترك الاقتداء بالمثل الأعلى والاكتفاء بالمحبّة والمشاعر الطيبة، فإنّ العمل ركن أساس من أركان الإيمان، على أنّ الحُبّ الصادق داعية للعمل ولا ينفكّ عنه، كما سيأتي بيانه لاحقاً.



(١) الأمالي للشيخ الطوسي ٦٣٢.

(٢) ففي حديث أبي موسى قال: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحبّ القوم ولمّا يلحق بهم، قال: «**المرء مع من أحب**»، صحيح البخاري ج ٧ ص ١١٣، وفي حديث أنس قال: «جاء رجل من أهل البادية، وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فحضرت الصلاة، فلما قضى ﷺ صلاته قال: **أين السائل عن الساعة؟** قال: أنا يا رسول الله. قال: **فما أعددت لها؟** قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل لا صلاة ولا صوم إلاّ أنّي أحبّ الله ورسوله. فقال له النبي ﷺ: «**المرء مع من أحبّ**»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشدّ من فرحهم بهذا. أنظر: علل الشرائع ج١ ص ١٤٠، ومسند أحمد ج ٣ ص ١٠٤.

المحور الثالث

دور الحُبّ في العلاقة مع أولياء الله

أولاً: محبّة رسول الله ﷺ

ثانياً: محبّة أهل البيت عليهم السلام

ثالثاً: من قصص المحبين

رابعاً: ثلاثية المعرفة والمحبّة والسلوك

المحور الثالث
دور الحُبّ في العلاقة مع أولياء الله

وإذا كان للحُبّ دور محوري في العلاقة مع الله تعالى كما أوضحنا في المحور السابق، فإنّ له ـ أيضاً ـ دوراً رئيسياً في العلاقة مع أولياء الله، فحبّ الله تعالى لا بدّ أن يمتدّ إلى حُبّ أوليائه من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والصالحين، ولا يمكننا أن نتصوّر شخصاً يكون صادقاً في دعوى حُبّ الله تعالى، وهو في الوقت عينه يعادي أولياء الله ورسله وعباده المؤمنين والصالحين.

ولأهميّة الحُبّ في العلاقة مع المثل الأعلى نجد أنّ الكتاب والسنة أَوْلَيَا هذا الأمر أهمية خاصّة، من خلال تأكيدهما على محبّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام، وهذا ما نوضّحه من خلال النقاط التالية.

أولاً: محبّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ربما كان أمراً طبيعياً أن تُقْرِن الأحاديث الشريفة محبته تعالى بمحبة أوليائه، إذ لا تستقيم ولا تجتمع دعوى محبّة الله تعالى مع كراهية أو عداوة أنبيائه عليهم السلام وأوليائه، وتذكر بعض الروايات أنّ محبة الإنسان لأنبياء الله عليهم السلام وأوليائه هي علامة كونه من أهل الخير، وأنّه إذا أراد المرء أن يعرف أنّه من أهل الخير فما عليه إلاّ أن يستفتي قلبه، فإن وجده محبّاً لأولياء الله فهو حقاً من أهل الخير، فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يُحِبُّ أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يُحبّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحبّ**

أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع مَنْ أحبّ»[1].

وعلى رأس الأنبياء والرسل الذين تُعتبر محبتهم لازمة وواجبة على العباد، يأتي الحبيب المصطفى محمد ﷺ، ولا شكّ أنّ حُبّ النبيّ ﷺ يدخل قلوب العارفين له بدون استئذان، لأنّه يمتلك من الخصائص الروحيّة والمزايا الخلقيّة ما يكفي ليكون قريباً من قلوب الناس جميعاً في حال التعرّف عليه بطريقة صحيحة، ولكن بصرف النظر عن ذلك فقد أراد الله تعالى أن يكون حُبّ نبيّه ﷺ واجباً شرعياً وشرطاً في صحّة الإيمان، فعن رسول الله ﷺ: «**لا يؤمنن عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين**»[2].

وفي الحديث عنه ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه، وأهلي أحبَّ إليه من أهله، وعترتي أحبَّ إليه من عترته، وذاتي أحبَّ إليه من ذاته**»[3].

وفي الحديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبّوا الله لِمَا يَغْذُوكُم من نعمه، وأحبوني بحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي بحبّي**»[4].

وسوف نبيّن لاحقاً لماذا كان لحُبّ الرسول ﷺ وآل بيته عليهم السلام هذا الدور الكبير في صدق الإيمان؟

ثانياً: محبّة أهل البيت عليهم السلام

وتأتي محبّة آل البيت عليهم السلام امتداداً طبيعياً لمحبّة النبيّ الأكرم ﷺ، وذلك لأنّهم عليهم السلام يمثّلون الامتداد الرسالي للنبيّ ﷺ، ولهذا تضافرت الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ والتي تدعو المسلمين إلى ضرورة محبتهم عليهم السلام وتربط محبة النبي ﷺ بمحبتهم، وإليك بعضاً من هذه الأحاديث:

(١) الكافي ج٢ ص ١٢٧، والمحاسن ج ١ ص ٢٦٣.
(٢) صحيح البخاري ج ١ ص٩، وصحيح مسلم ج ١ ص ٤٩، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٢٦.
(٣) الأمالي للشيخ الصدوق ص٤١٤.
(٤) سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٩.

١ ـ روي عنه ﷺ أنّه قال: «**من أحبّ عليّاً فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله**»[١].

٢ ـ في حديث آخر: قال رجل لسلمان: ما أشدّ حُبّك لعليّ! [قال:] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحبّ عليّاً فقد أحبّني ومن أبغض علياً فقد أبغضني**»[٢].

٣ ـ وروى بعضهم قال: سمعت أمّ سلمة تقول: أشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحبَّ عليّاً فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله**»[٣].

هذا بعض ما ورد في شأن الإمام علي عليه السلام، ونظيره ما ورد بشأن الإمامين الحسنين عليهما السلام، وإليك بعضاً من ذلك:

١ ـ روي عنه ﷺ في الحديث المشهور: «**حسينٌ مني وأنا من حسين، أحبّ اللهُ من أحبَّ حُسيناً**»[٤].

٢ ـ وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «**هذان ابناي، وابنا ابنتي، اللهم إنّي أُحبّهما فأحِبّهما، وأحِبَّ من يحبّهما**»[٥].

٣ ـ وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «**من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني**»[٦].

---

(١) تحف العقول ص ٤٥٩، ولاحظ: الاحتجاج للطبرسي ج١ ص ٤٠٦.

(٢) المستدرك للحاكم النيسابوري ج٣ ص١٣٠.

(٣) المعجم الكبير للطبراني، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣٢، ولاحظ: مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٨.

(٤) مسند أحمد ج ٤ ص ١٧٢، وسنن ابن ماجة ج ١ ص ٥١، وسنن الترمذي ج ٥ ص ٣٢٤، الإرشاد للمفيد ج٢ ص ١٢٧.

(٥) سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٣٢، ونحوه ما رواه المفيد في الإرشاد ج ٢ ص ٢٨،

(٦) سنن ابن ماجة ج١ ص٥١، ومسند أحمد ج٢ ص٢٨٨.

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في شأن الحسنين عليهما السلام وأبيهما وأمهما السيدة الزهراء عليها السلام.

ولا نستطيع أن نمرّ مرور الكرام عند هذا الاهتمام العاطفي الذي أولاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأهل بيته عليهم السلام، حيث نلاحظ أنّه لم يكتفِ بإظهار حُبّه لهم في مناسباتٍ شتَّى، بل كان يدعو المسلمين ويحثّهم على محبتهم ويربط محبته بمحبتهم، في ظاهرة تلفت الأنظار ويصعب الاقتناع بتفسيرها على أساس أنّها عاطفة بشريّة صرفة، وهي عاطفة الأب تجاه أبنائه وأحفاده، فإنّ مثل هذه العاطفة وإن كانت موجودة لدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّها حقّ دون شكّ، ولكنّ ما نراه في تعامل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع المذكورين من أهل بيته يتجاوز ذلك بكثير، فإنّه لو أمكن تفسير إصراره على إظهار حُبّه لهم في العديد من المناسبات بأنّه منطلق من العاطفة البشرية المذكورة،[1]، فإنّه لا يمكن تفسير دعوة الأمة إلى مودّتهم وأمره صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين بمحبتهم أنّه منطلقٌ من هذا الدافع العاطفي، فالعاطفة البشرية لا تقتضي أن يوجّه دعوة كهذه، فإنّ ذلك غير مفهوم، بل ربّما كان ذلك مثار التّهمة لو كان مجرّد عاطفة بشرية أبويّة.

وممّا يعزّز ما نقوله من نفي التفسير العاطفي المحض لتلك الظاهرة هو أنّ القرائن السياقية التي اشتملت عليها تلك الروايات الحاثّة على محبتهم تؤشّر إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنّما انطلق في دعوته تلك من منطلقات رساليّة وليست عاطفيّة بحتة، ومن هذه المؤشرات تأكيد الروايات المذكورة على الأجر والثواب المترتب على محبتهم، أو أنّ من أحبّهم فقد أحبّ الله تعالى، أو أنّ الله يحبّ من يحبّهم، وهذه التعابير وأمثالها تعبّر عن وجود بُعد رسالي وديني يتصل بمحبتهم.

(١) هذا مع أنّه قد يقال باستبعاد ذلك، لأنّ العاطفة لا تقتضي هذا المقدار من الإصرار على إظهارها ولا سيما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والتفسير المنطقي اللائق بعصمة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والذي ينزّهه عن الانسياق إلى هذا الحدّ مع المشاعر البشرية الأبويّة هو أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رَامَ ربط الناس عاطفياً بأهل بيته عليهم السلام لما لهم من دور في مستقبل الرسالة، وما يمثّلونه من مرجعيّة فكرية وروحيّة للأمّة يلزمها التمسك بهم والاقتداء بنهجهم.

المودة في القربى

ولا يقتصر الأمر على وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتأكيداته وحثّه على مودّة الأطهار من أهل بيته عليهم السلام، وإنّما يمتدّ الأمر إلى النصّ القرآني، فإنّه قد أكّد ودعا إلى مودّة أهل البيت عليهم السلام وجعلها أجراً للرسالة، قال تعالى: ﴿**قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ**﴾ [الشورى ٢٣].

ويلفت نظرنا في الآية المباركة أنّها استهلّت الدعوة إلى مودّة القربى بمخاطبة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بفعل الأمر «**قل**» ربما في إشارة إيحائية إلى أنّ هذه الدعوة ليست من عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّما هي دعوة من عند الله تعالى، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مأمور بتبليغ ذلك للأمّة.

ولأهميّة هذه الآية وما تحمله من مضمون وتشتمل عليه من دلالات كان من الضروري والمهمّ أن نتوقّف عندها عدّة وقفات، وأهم هذه الوقفات هي:

١ ـ ما الدليل على أنّ المقصود بالقربى هم أهل البيت عليهم السلام؟

٢ ـ كيف يطلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجراً على تبليغ الرسالة؟

٣ ـ ما المراد بالمودّة؟ وما الفرق بينها وبين المحبّة؟

٤ ـ ما هو دور المودّة في الارتباط بالقيادة؟

وبسبب عدم ارتباط النقطتين الأولى والثانية بموضوعنا فإنّنا نرجئ الحديث عنهما إلى ملاحق الكتاب، لاحظ الملحق الرابع. ونتطرق هنا إلى النقطتين الثالثة والرابعة لارتباطهما بموضوعنا ارتباطاً وثيقاً.

تسالم المسلمين على ضرورة مودّة آل البيت عليهم السلام

ولكن من الضروري في البداية أن ألفت نظر القارئ الكريم، إلى أنّه حتى لو شكّك شخص ما في كون المراد بالقربى في الآية المباركة هم أهل البيت عليهم السلام، فإنّ ذلك لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، وذلك لأنّ مودة أهل البيت عليهم السلام هي من المبادىء المتسالم عليها لدى عامّة المسلمين، ولم يشكّك في ذلك أحد، بل أفتى فقهاء المسلمين بوجوب أو استحباب الصلاة على الآل ـ عقيب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ في التشهد الأخير من الصلاة، وقد عبّر عن ذلك الإمام الشافعي أجمل تعبير بقوله:

يا آلَ بيتِ رسولِ الله حُبُّكُمُ
فرضٌ من اللهِ في القرآنِ أنزلَهُ
كفاكمُ من عظيمِ القدْرِ أنّكُمُ
منَ لم يُصَلِّ عليكم لا صلاَة لَهُ(1)

والظاهر أنّ الإمام الشافعي عندما تحدّث عن أنّ حُبّهم عليهم السلام فَرْضٌ أنزله الله في كتابه، كان ناظراً إلى آية المودة المذكورة، لأنّها الآية الوحيدة الدالة صراحة على مودة آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وللفخر الرازي كلام مهمٌ ورائع في هذا المجال ننقله إليكم ليرى الجميع كيف أنّ محبة أهل البيت عليهم السلام عابرة للمذاهب والطوائف، يقول الرازي: «آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ التعلقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل»، ويضيف قائلاً:

«وروى صاحب «الكشّاف» أنّه لما نزلت هذه الآية ـ يقصد آية المودة ـ قيل:

(١) أنظر: الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٤٨ و١٧٥، وإعانة الطالبين للبكري الدمياطي ج ١ ص ٢٠٠.

يا رسول الله مَنْ قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟

فقال: **عليّ وفاطمة وابناهما.**

فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبيّ ﷺ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدلّ عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى ٢٣]، ووجه الاستدلال به ما سبق، [سبق في تفسير الفخر الرازي].

الثاني: لا شكّ أنّ النبيّ ﷺ كان يحبّ فاطمة عليها السلام قال ﷺ: «**فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها**»(١)، وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ أنّه كان يحبّ عليّاً والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأمة مثله، لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف ١٥٨]، ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور ٦٣]، ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١]، ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الثالث: أنّ الدعاء للآل مَنْصِبٌ عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهّد في الصلاة، وهو قوله: «اللّهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد وارحم محمّداً وآل محمّد»، وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل عليهم السلام.

فكلّ ذلك يدلّ على أنّ حُبّ آل محمّد عليهم السلام واجب، وقال الشافعي رضي الله عنه:

يــا راكــبــاً قــف بالمحصَّبِ مِــن مِنَى
واهــتــف بــســاكــنِ خيفِها والــنــاهــضِ

(١) هذا الحديث مشهور وقد رواه المحدثون من علماء الفريقين، أنظر: صحيح مسلم ج ٧ ص ١٤١، وسنن الترمذي ج ٥ ص ٣٦٠، وأمالي الصدوق ص ١٦٥، وعلل الشرائع ج١ ص ١٨٦.

سـحـراً إذا فــاضَ الحجيجُ إلــى مِنَى
فـيـضـاً كـمـا نَـظْـمُ الــفـراتِ الـفـائـضِ
إن كـــان رفــضـــاً حُـــبُّ آل مـحـمّـد
فليشهدِ الـثـقـلانِ أنّـــي رافــضـــي»[1]

وينبغي أن يكون واضحاً وجلياً أنّ القرآن الكريم عندما يؤكّد على مودّة أهل البيت عليهم السلام، معتبراً أنّ مودّتهم هي أجر الرسالة، وكذلك عندما يؤكّد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مناسبات شتى على ضرورة محبتهم عليهم السلام بكلّ هذه التأكيدات المتعددة ممّا أشرنا إليه أو لم نُشِر، وعندما يجعل الصلاة عليهم عليهم السلام جزءاً لا يتجزأ من العبادة اليوميّة للمسلمين، فإنّ ذلك لا يمكن تجاهله ولا المرور عليه مرور الكرام، ولا يمكننا أن نقنع بتفسيره باعتباره أمراً ينطلق من اعتبار عشائري أو شخصي أو عاطفي أو من منطلق جزئيّ وخاص، والتفسير المنطقي والمقبول لذلك هو أنّ محبّة هؤلاء القوم لها اعتبار خاص في موازين الرسالة وحساباتها، وذلك لما لهؤلاء من دور مميز في مستقبل هذه الرسالة، وهذا ما سوف نزيده توضيحاً في الوقفة الثانية الآتية.

الفارق بين المودّة والمحبة

ونعود إلى الوقفة الأولى من الوقفات التي وعدنا بالبحث فيها من وحي الآية المباركة، وهي تتمحور بالإجابة على السؤال التالي: وهو أنّ الملاحظ في الآية المباركة (آية المودّة) استخدامها لكلمة المودّة وليس المحبّة، فهل هما لفظتان مترادفتان أم أنّ ثمّة فارقاً بين الودّ والحُبّ؟

ومعرفة الفارق لن تنفعنا في خصوص الآية المباركة، بل في غيرها ـ أيضاً ـ من النصوص الدينية التي استخدمت التعبيرين في مناسبات مختلفة.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٧ ص ١٦٦.

وأمّا الجواب على السؤال فهو يتلخص في أنّه يمكن أن يُذكر في المقام فارقان:

الفارق الأول: ما ذكره بعض اللغويين من أنّ «الفرق بين الحُبّ والودّ: أنّ الحُبّ يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعاً، والوداد من جهة ميل الطباع فقط، ألا ترى أنّك تقول: أحبّ فلاناً وأودّه، وتقول أحبّ الصلاة، ولا تقول أودّ الصلاة، وتقول أودّ أنّ ذاك كان لي، إذا تمنّيت وداده، وأودّ الرجل ودّاً ومودّة»[1].

ولو أننا أخذنا التفرقة اللغويّة المشار إليها بنظر الاعتبار فإنّ ذلك قد يؤشّر على أمر مهمّ، وهو أنّ مودة آل البيت عليهم السلام ـ بناءً على أنّهم هم المقصودون بالقربى في الآية كما مرّ ـ هي ممّا تقتضيه الفطرة والطبيعة البشريّة لو خلّيت ونفسها ولم تتلوّث بالأجواء والتيارات الفكرية المضادة، ولا تحتاج مودّتهم إلى مزيد تكلّف أو جهد تثقيفي مضاعف، لأنّ لأهل البيت عليهم السلام جاذبيّة خاصة تجعلهم مهوى القلوب والأفئدة، بسبب ما امتازوا به من مكارم الأخلاق ومحامد الصفات وما بلغوه من كمال روحيّ وقرب معنويّ من الله تعالى، ومن المؤكّد أنّ من أحبّ الله وتقرّب إليه فإنّ الله تعالى سيكسبه محبّة عباده.

إلاّ أنّ الملاحظة التي نسجّلها على التفرقة اللغويّة المذكورة هي أنّ الاستخدامات القرآنية لكلمة «المودة» لا تساعد كثيراً على ما قيل من أنّ الوداد لا يكون إلاّ من جهة ميل الطباع فقط، فإنّنا نلاحظ أنّها استخدمت في موارد عديدة لا تقتضي الطباع ميل الإنسان إليها، وإنّما اقتضتها التربية الخاصة، كما في قوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [آل عمران ١١٨]، فإنّ مودّتهم وتمنّيهم العنت والمشقة للمؤمنين ليست ممّا يقتضيه الميل الطبعي عند الإنسان.

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٧٤.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ﴾ [النساء ٨٩]، فإنّ مودّتهم وتمنيهم أن يكفر المؤمنون هو ليس مما تقتضيه الطبيعة أو الفطرة، لأنّها مفطورة على الخير لا الشرّ[١]، إلى غير ذلك من الموارد المشابهة لذلك.

الفارق الثاني: أن يقال: إنّ المودّة ليست مجرّد الميل القلبي، كما هو الحال في المحبّة، بل إنّ المودة تختزن شيئاً من الموالاة العمليّة، وتستبطن نوعاً من الحافزية المضاعفة للانقياد العملي على طبق الودّ.

وربّما تشهد لهذا الفارق العديد من الاستخدامات القرآنية لكلمة الموّدة، من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء ١٠٢]، فإن مودّة الكفار وتمنيهم أن يغفل المسلمون عن أسلحتهم ليميلوا عليهم ميلة واحدة لم تكن مجرّد أمنيات باطنية بل كانت مترافقة مع جاهزيّة عسكريّة وتحفّز لديهم ـ أعني الكفار ـ للانقضاض على المسلمين لدى أدنى غفلة لهم أو تراخ في صفوفهم.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة ١٠٩]، فإنّ المرجّح أن لا تكون مودّتهم ورغبتهم هذه مجرّد أمنيات مختزنة داخل النفس، وإنما هي مودّة تستتبع سعياً تحريضيّاً وتشويهيّاً للدين.

(١) إلاّ أن يكون النظر إلى طبيعتهم الثانية بعد الكفر، فإنّها تدفعهم إلى تمني كفر الناس وانحرافهم.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ٩٦]، فإنّ حرص اليهود (وهم المعنيون بهذه الآية بشكل مباشر) وغيرهم من بني الإنسان على الدنيا وتعلّقهم بها لا ينطلق من مجرّد مشاعر عابرة أو أمنيات حبيسة داخل النفس، بل إنّ ذلك غالباً ما يقترن بخطوات عملية وسعي دؤوب في سبيل حفظ الحياة والفرار من الموت.

وهذا المعنى لكلمة المودّة الذي يجعلها تستبطن شيئاً من الاندفاع العملي لو تمّ استظهاره وترجيحه فهو يعني أنّ المودّة المطلوبة تجاه ذوي القربى من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليست هي نبضة قلب مجردة بعيدة عن خطّ الاتباع لهم، ولا انفعالات عاطفية عابرة تقف عند حدود المشاعر، بل هي عبارة عن الحُبّ الحركيّ الذي يدفع الإنسان ليجسّد مشاعره على أرض الواقع ويحوّلها إلى موالاة حقيقية تستلهم خطاهم وتقتدي بهَدْيهم.

دور المودّة في الارتباط بالقيادة

وأما الوقفة الثانية، وهي أنّه كيف يكون لمودة أهل البيت عليهم السلام هذه المنزلة العظيمة بحيث تُجعل أجراً للرسالة، مع أنّها ـ أعني المودة ـ أمر بسيط، لأنّها عبارة عن ميل القلب وهذا أمر سهل ولا يحتاج إلى كثير من العناء والجهد؟

وبعبارة أخرى: لماذا هذا التركيز على عنصر المودّة في العلاقة مع المثل الأعلى من الأنبياء عليهم السلام والأولياء؟

والجواب على ذلك:

إنّ للمودّة والمحبّة دوراً مهمّاً في علاقة الإنسان مع قيادته، ولا سيّما القيادة المعصومة والحكيمة والعادلة، فإنّ بناء العلاقة مع القيادة على أساس المودّة والعاطفة أدعى للتفاعل معها واستلهام مواقفها والاقتداء بهديها، وقد أولى

الإسلام ـ ولا سيّما فيما جاءت به تعاليم أهل البيت عليهم السلام ـ هذا الأمر أهميّة خاصّة، فقد حثّ على التفاعل العاطفي مع القيادة المعصومة حتى بعد موتها، وهذا ما هدف إليه مبدأ الزيارة لقبور الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهدفت إليه فكرة إحياء مناسبات الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فإنّها ترمي إلى تجديد الارتباط بالقائد المعصوم وتوثيق عرى التواصل معه، ليبقى القائد حيّاً وفاعلاً ومؤثّراً في النفوس وحاضراً في الواقع بكلّ عطاءاته ودروسه، ولا يتحوّل إلى مجرّد شخصيّة تاريخية عابرة نستعيدها بطريقة عقلية جافة وجامدة.

وفي ضوء ذلك نفهم ما تضمنته الآية المباركة من إشارة إلى دور المودّة في مستقبل الرسالة، ويتضح أيضاً سرّ هذا التأكيد النبوي صلى الله عليه وآله وسلم في العديد من المناسبات والمواقف على ضرورة محبّة أهل بيته عليهم السلام، فالآية المباركة والأحاديث الشريفة المشار إليها إنّما ترمي بتأكيدها على عنصر المودّة إلى تأكيد مبدأ الارتباط بأهل بيته عليهم السلام، وبيان أنّ لهم دوراً محورياً في حفظ الرسالة نفسها، وهذا ما استفدناه من جعل مودّتهم أجراً للرسالة، إنّ ما يعنيه ذلك أنّ أهل البيت عليهم السلام هم صمّام أمان في هذه الأمة، يقي اتّباعهم والسير على نهجهم هذه الأمة من الانحراف والزيغ والضلال، كما نصّ عليه الحديث المشهور والمعروف بحديث الثقلين(1).

حُبّ عليّ عليه السلام ميزان الإيمان

وثمّة أمر آخر يلفت النظر في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن عليٍّ عليه السلام وهو ليس الدعوة إلى محبته عليه السلام فحسب، بل واعتباره ميزاناً يُعرَف من خلاله صدقُ إيمان الأشخاص، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقّ عليّ عليه السلام:

(1) وأسانيد هذا الحديث معروفة، وأكتفي بذكره مسنداً طبقاً لما جاء في سنن الترمذي، فقد أخرجه بإسناده عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»، أنظر: سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٢٩.

«إنّه لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق»(١).

وفي حديث آخر عنه ﷺ: **«من أطاع عليّاً فقد أطاعني، ومن عصى عليّاً فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أحبّ عليّاً فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله، لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلاّ كافر أو منافق»**(٢).

وربّما يسأل البعض: من المفهوم أن تكون محبّة الرسول علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق، ولكن كيف تكون محبّة عليّ عليه السلام هي علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق؟!

والجواب: إنّ هذا الكلام الصادر عن رسول الله ﷺ، وهو لا يتكلّم جزافاً ولا محاباة ولا من منطلقات عشائريّة أو نحوها، لأنّه كما وصفه ربّه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ [النجم ٣ ـ ٤]، فهذا يكشف عن أنّ لعليٍّ عليه السلام مكانةً عالية ورتبة سامية في قيادة المشروع الإسلامي بعد الرسول ﷺ تبرر أن يكون حُبُّه ميزان الإيمان. إنّ معنى أن يكون حُبّ عليّ عليه السلام هو علامة الإيمان ودليل صدق التديّن أنّه ـ أي علي عليه السلام ـ قد اختلط بالإيمان وانصهر بتعاليم الدين وقيمه انصهاراً تامّاً واندمج برسول الله ﷺ اندماجاً كليّاً، فهو لا ينطق إلاّ بالحقّ والصّدق، ولا ينبض قلبه إلاّ بالإيمان، ولا يتحرّك في حياته وفي كلّ تصرفاته إلاّ على خطّ الشريعة الغراء، ولو كان في قلبه أو عقله أو سلوكه شيء من الذات أو الأنا أو الهوى لما قال فيه النبيّ ﷺ ما قال، وهكذا كان عليّ عليه السلام

(١) روي هذا المضمون عن علي عليه السلام نفسه، أنظر: سنن الترمذي ج٥ ص ٣٠٦، وسنن النسائي ج٨ ص ١١٦، ومسند أحمد ج ١ ص ٥٩، وص ١٢٨، والسنن الكبرى للنسائي ج ٥ ص ١٣٧، وج٦ ص ٥٣٤، ورواه الطبراني في الأوسط عن عمران بن الحصين، المعجم الأوسط ج ٢ ص ٣٣٧، وعن ابن عباس أيضاً، أنظر: المصدر نفسه ج ٥ ص ٨٧، وهو مروي في مصادر الشيعة أيضاً وبطرقهم، أنظر: الأمالي للشيخ الصدوق ص ١٩٧، وعلل الشرائع له ج ١ ص ١٤٥، إلى غير ذلك من المصادر.

(٢) الكامل للجرجاني ج ٤ ص ٣٤٩، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٤٢ ص ٢٧٠.

كما تؤكّد ذلك كلّ حياته وسيرته من الولادة وحتى الاستشهاد كان إسلاماً يتحرّك وقرآناً يتجسّد، ولذا فلا غرو أن يكون موقفه عليه السلام ميزان العدل ويكون قوله ميزان الحقّ، ويكون كلامه ميزان الصدق، ويكون حُبّه ميزان الإيمان. وتلك فضيلة من فضائل عليّ عليه السلام وهي شاهد على عظيم مكانته في الدين ومنزلته لدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولنعم ما أجاب به بعضهم عندما سئل: ما تقول في عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟ فقال: «ما أقول في حقّ امرئ كَتَمتْ مناقبَه أولياؤُه خوفاً، وأعداؤه حسداً، ثمّ ظهر من بين الكتمانين ما ملأ الخافقين»[1].

ثالثاً: من قصص المحبّين

وتستوقفنا في هذا المجال العديد من القصص المعبّرة التي تعلي من مكانة الحُبّ وأهميته في العلاقة مع المثل الأعلى، ودوره في الخلاص الأُخروي، وسوف أكتفي بذكر قصتين في هذا المقام، ونحاول بعد ذلك التأمل في مضمونهما وعرضهما على قواعد الشريعة الإسلامية وهي المستقاة من محكمات الكتاب وثوابت السُّنة وقطعيات العقل:

١ ـ قِصَّةُ صَاحِبِ الزَّيْتِ

القصة الأولى: روى ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكُلَيني بإسناده عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه الصادق عليه السلام قَالَ: «**كَانَ رَجُلٌ يَبِيعُ الزَّيْتَ وكَانَ يُحِبُّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم حُبّاً شَدِيداً كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ فِي حَاجَتِه** (أي في شأن ما من شؤونه) **لَمْ يَمْضِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنْه، فَإِذَا جَاءَ تَطَاوَلَ لَه حَتَّى يَنْظُرَ**

(١) نسبه بعضهم للخليل بن أحمد الفراهيدي، أنظر: الرواشح السماوية للداماد ص ٢٨٩، وروضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ج ١٣ ص ٢٦٥، ونسبه بعضهم للشافعي، أنظر: كشف الغطاء ج ١ ص ١٠٥، وحلية الأبرار ج ٢ ص ١٣٦.

إلَيْه حَتَّى إِذَا كَانَتْ ذَاتُ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْه فَتَطَاوَلَ له رَسُولُ اللَّه ﷺ حَتَّى نَظَرَ إلَيْه ثُمَّ مَضَى فِي حَاجَتِه فَلَمْ يَكُنْ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ رَجَعَ، فَلَمَّا رَآه رَسُولُ اللَّه ﷺ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَارَ إِلَيْه بِيَدِه: اجْلِسْ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْه، فَقَالَ: مَا لَكَ فَعَلْتَ الْيَوْمَ شَيْئاً لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُه قَبْلَ ذَلِكَ (يقصد رجوعه السريع)؟

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه والَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيّاً لَغَشِيَ قَلْبِي شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِكَ حَتَّى مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْضِيَ فِي حَاجَتِي حَتَّى رَجَعْتُ إِلَيْكَ، فَدَعَا لَه وقَالَ لَه خَيْراً.

ثُمَّ مَكَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَيَّاماً لَا يَرَاه فَلَمَّا فَقَدَه سَأَلَ عَنْه.

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه مَا رَأَيْنَاه مُنْذُ أَيَّامٍ فَانْتَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وانْتَعَلَ مَعَه أَصْحَابُه وانْطَلَقَ حَتَّى أَتَوْا سُوقَ الزَّيْتِ فَإِذَاً دُكَّانُ الرَّجُلِ لَيْسَ فِيه أَحَدٌ فَسَأَلَ عَنْه جِيرَتَه؟

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه مَاتَ ولَقَدْ كَانَ عِنْدَنَا أَمِيناً صَدُوقاً إِلَّا أَنَّه قَدْ كَانَ فِيه خَصْلَةٌ!

قَالَ: ومَا هِيَ؟

قَالُوا: كَانَ يَرْهَقُ[1]**، يَعْنُونَ يَتْبَعُ النِّسَاءَ!**

فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: رَحِمَه اللَّهُ، واللَّهِ لَقَدْ كَانَ يُحِبُّنِي حُبّاً لَوْ كَانَ نَخَّاساً[2] **لَغَفَرَ اللَّه لَه»**[3].

٢ ـ قصّة الشيخ مع الإمام الباقر عليه السلام

القصّة الثانية: وقد رواها الكُلَيني ـ أيضاً ـ بالإسناد عن الحكم بن عتيبة قال: بينما أنا مع أبي جعفر (محمّد الباقر) عليه السلام والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخ

(١) الرهق ـ محركة ـ: ركوب الشر والظلم وغشيان المحارم.

(٢) النخاسي هو الذي يبيع الرقيق، وهي تدل على مبغوضية الإسلام لبيع الرقيق، واحتمل العلامة المجلسي أن يكون المراد بها من يبيع الأحرار عمداً، أنظر: مرآة العقول ج٢٥ ص١٧٩.

(٣) الكافي ج ٨ ص ٧٦.

يتوكأ على عنزة له[1] حتى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا بن رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم سكت.

فقال أبو جعفر عليه السلام: **وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.**

ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثمّ سكت حتى أجابه القوم جميعاً وردّوا عليه السلامَ.

ثمّ أقبل بوجهه على أبي جعفر عليه السلام ثمّ قال: يا بن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك، فوالله إني لأحبّكم وأحبّ من يحبّكم، ووالله ما أحبّكم وأحبّ من يحبّكم لطمع في دنيا، [والله] إنّي لأبغض عدوّكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوتر[2] كان بيني وبينه، والله إنّي لأحلّ حلالكم وأحرّم حرامكم وأنتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: **إليّ إليّ**، حتى أقعده إلى جنبه، ثم قال: **أيّها الشيخ إنّ أبي عليَّ بن الحسين عليهما السلام أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فقال له أبي** عليه السلام: **إن تَمُتْ تَرِدْ على رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **وعلى عليٍّ والحسن والحسين وعليِّ بن الحسين ويثلج قلبك ويبرد فؤادك وتقرّ عينك وتُستقبل بالرَّوْحِ والرَّيْحَان مع الكرام الكاتبين ولو قد بلغت نفسك ههنا** ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ **وإن تَعِشْ تَرَ ما يُقِرُّ الله به عينَك وتكونُ معنا في السنام الأعلى.**

[فـ] قال الشيخ: كيف قلت يا أبا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام.

فقال الشيخ: الله أكبر يا أبا جعفر إن أنا مِتُّ أردْ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليٍّ والحسن والحسين وعليِّ بن الحسين عليهم السلام وتقرّ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأُستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي إلى

(١) العنزة: عصا في رأسها حديدة.

(٢) الوتر: العداوة أو الجناية.

ههنا، وإن أعش أرَ ما يُقِرُّ الله به عيني فأكون معكم في السنام الأعلى؟!!

ثم أقبل الشيخ ينتحب[١]، ينشج[٢] ها ها ها حتى لصق بالأرض، وأقبل أهل البيت ينتحبون وينشجون لِمَا يَرَوْنَ من حال الشيخ، وأقبل أبو جعفر عليه السلام يمسح بإصبعه الدموع من حماليق[٣] عينيه وينفضها.

ثم رفع الشيخ رأسه فقال لأبي جعفر عليه السلام: يا بن رسول الله ناولني يدك جعلني الله فداك فناوله يده فقبلها ووضعها على عينه وخدّه، ثم حسر[٤] عن بطنه وصدره فوضع يده على بطنه وصدره، ثمّ قام فقال: السلام عليكم.

وأقبل أبو جعفر عليه السلام ينظر في قفاه وهو مدبر، ثمّ أقبل بوجهه على القوم فقال: **مَنْ أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا.**

فقال الحكم بن عتيبة: لم أرَ مأتماً قطّ يشبه ذلك المجلس»[٥].

وثمّة قصص وروايات أخرى تحمل المضمون نفسه الذي يُعلي من شأن الحُبّ ودوره الحاسم في تحديد مصير الإنسان الأخروي، الأمر الذي يدعونا ويفرض علينا هنا أن نثير التساؤل: هل أنّ الحُبّ وحدَهُ كفيل بإدخال الإنسان الجنّة حتى لو لم يصدّقْه العمل ولم يترجم هذا الإنسان الحُبّ في سلوكه وأخلاقه؟

والجواب: إننا وبكلّ تأكيد لا يحقّ لنا ولا نستطيع أن نحدّ من فضل الله تعالى ولطفه وكرمه، ولا أن نقترح عليه أو نحدّد له ما ينبغي أن يفعل، فهو يملك أن يعامل الناس بعفوه ورحمته الواسعة فيغفر لمن يشاء ويسامح ويعفو عمّن يشاء،

(١) النحيب: البكاء بصوت طويل.

(٢) النشج: صوت معه توجع وبكاء.

(٣) حملاق العين ـ بالكسر والضم ـ: باطن أجفانها الذي يسود بالكحلة أو ما غطته الأجفان من بياض المقلة، أو باطن الجفن الأحمر الذي إذا قلب للكحل رأيت حمرته أو ما لزق بالعين من موضع الكحل من باطن، وهو جمع حماليق.

(٤) أي كشف.

(٥) الكافي ج٨ ص٧٧.

لمجرّد أن يرى قلب العبد محبّاً له أو لخاصة أوليائه، ولكنّه أيضاً يملك أن يعاملنا بعدله وبما نستحقّ، وعدله لا يتحرّك اعتباطاً ولا جزافاً بل ينطلق من موازين يقبلها العقل والعقلاء ويشهد لصوابيتها الوجدان والمنطق.

ومن أهمّ هذه الموازين: ميزان «عدم المساواة بين المحسن والمسيء»، لأنّ في ذلك ظلماً للمحسن، وتشجيعاً على المعصية، وكما قال الإمام عليّ عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «**وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ وتَدْرِيباً لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ**»[1].

ومن مستلزمات هذا الميزان أن لا يُساوى بين من تقتصر علاقته بالله ورسوله وأوليائه على مجرّد العواطف والمشاعر وبين مَنْ يُقْرِنُ حُبّه بالعمل ويجسّد إيمانه من خلال السلوك، ولا شكّ أنّ الإسلام قد أكّد على أصالة العمل وأهميته كعنصر أساسي مقوّم للإيمان، وهذا ما تتكفّل النقطة الرابعة التالية بتوضيحه.

رابعاً: ثلاثية المعرفة والمحبّة والسلوك

والنقطة الجديرة بالتوقف عندها في المقام هي أنّ حُبّ الله تعالى وحُبّ رُسله عليهم السلام وأوليائه ليس مجرّد نبضة قلب، بل لا بدّ أن ينعكس على سلوك الفرد، وإلاّ كان حُبّاً فارغاً وخادعاً، وقد كتبتُ في كتاب «عاشوراء.. قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء»[2] عن أنّ العلاقة الناجحة بالمَثَل الأعلى تقوم على ثلاث ركائز: وهي المعرفة والعاطفة والسلوك، وتحدثت بإسهاب عن هذه الركائز ودورها في العلاقة المذكورة، وإذا أردتُ اختصار هذه الفكرة هنا فيمكن القول:

أولاً: إنّ المعرفة هي الركن الأوّل في صحّة العلاقة بالمثل الأعلى، لأنّ من لم يعرف

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٨.

(٢) أنظر: الكتاب المذكور ص٦٦ وما بعدها.

المثل الأعلى ـ نبيّاً كان أو إماماً أو وليّاً ـ قد يدفعه الجهل إلى معاداته ومحاربته، فـ «**الناس أعداء ما جهلوا**» كما قال عليّ عليه السلام فيما روي عنه[1]. إنّ معرفتك الصحيحة بالشخص لا بدّ أن تسبق مشاعرك تجاهه، فليس صحيحاً أن تُدخل أحداً إلى قلبك فتحبّه قبل أن يأذن لك العقل بذلك، ولا أن تُخرج أحداً من قلبك فتبغضه قبل أن يأذن لك العقل بذلك، وإذْنُ العقل ليس اعتباطياً وإنّما يكون بعد التعرّف على هذا الشخص ودراسة خصائص شخصيته الإيجابية أو السلبية. وإنّ مشكلة الكثيرين ممن شطحوا ـ على مستوى العاطفة ـ غُلوّاً أو تقصيراً أنّهم كانوا ممن تحرّكهم العواطف ولم ينطلقوا من قاعدة عقلية معرفيّة متينة، وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في مقولته الشهيرة: «**هلك فيّ رجلان: محبٌّ غالٍ ومبغضٌ قالٍ**»[2].

ثانياً: والمحبّة ـ أيضاً ـ لها دور في نجاح العلاقة مع المثل الأعلى، لأنّ من عرف المثل الأعلى في فضائله وكمالاته وخصائص شخصيته ولم يحبّه فقد خان المعرفة، لأنّ المعرفة السليمة يُفترض أن تدفع نحو المحبّة إذا كان الطرف الآخر أهلاً للمحبّة، إلاّ إذا كان في قلب الإنسان مرض ما، أرأيت إنساناً تعرّف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكارم أخلاقه وجميل صفاته أيستطيع أن يبغضه؟! أَوَ رأيت شخصاً حَسَنَ السريرة تعرّف على عليّ بن أبي طالب عليه السلام في مروءته وشجاعته وشهامته وبلاغته ونبله هل يملك إلاّ أن ينحنيَ له إجلالاً واحتراماً؟!

ثالثاً: والركيزة الثالثة في صحّة العلاقة مع المثل الأعلى هي السلوك، لأنّ مَنْ عرف المثل الأعلى وأحبّه فلا بدّ أن يدفعه ذلك إلى العمل بما يطلبه منه وأن يتّبع هديه ويسير على نهجه.

وهذه الركيزة هي ذات دور محوري لا يقلّ أهميّة عن الركيزتين الأولى والثانية، ويمكن القول:

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٤٢.

(٢) م. ن، ص٢٨.

إنّ المعرفة الصحيحة والحُبّ الصادق هما اللذان يؤكّدهما السلوك ويصدّقهما العمل، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران ٣١]. فادّعاء محبة الله تعالى لا تلتئم مع محاربة رسوله ﷺ ومعاداته.

وتشير آية أخرى إلى أن حُبّ الله تعالى للعباد يتوقف على عنصرين أساسيين: عنصر عقدي وهو الإيمان، وآخر سلوكي وهو العمل الصالح، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [٩٦].

باختصار: إنّ السلوك العمليّ للإنسان هو الميزان الذي في ضوئه يتميّز الحُبّ الصّادق من الكاذب، فالمشاعر الصادقة هي التي يصدّقها العمل، أمّا إذا ظلّت في حدود الادّعاءات والشعارات فهي مشاعر كاذبة ومخادعة.

ولعلّنا لا نجانب الصواب في التشخيص إذا قلنا: إنّ ما نراه من انفصام في شخصيّة بعض الناس بما يجعل عقله وعاطفته في جهة، وسلوكه العملي في جهة أخرى معاكسة هو حالة مَرَضِيّة، تنشأ من ضعف الإرادة، أمام الغريزة، وقد لا نحتاج إلى قراءة صفحات التاريخ لنكتشف وجود أشخاص سقطوا أمام ضغط الغريزة فتخلّوا عن مبادئهم ومشاعرهم، فنحن نرى هذه النماذج رأي العين فما أكثر الناس الذين عرفوا الحقّ وربّما أحبّوه بادىء الأمر ولكنّهم مع ذلك تنكّروا له وانقلبوا على أهله وحاربوهم، لأنّه لم ينسجم مع مصالحهم ولم يحقّق رغباتهم وطموحاتهم الشخصية!

وقد علّمتنا دروس التاريخ أنّ الأشخاص الذين يحاربون الحق من موقع الجهل به هم أهون حالاً وأخفّ ضرراً من الأشخاص الذين يحاربونه مع علمهم به ومعرفتهم بأهله، فالصنف الثاني هم ـ في الأغلب ـ أشخاص قد تملّكهم الحسد والحقد فاندفعوا بضراوة في معاداة الحقّ وأهله.

في ضوء هذه الركائز الثلاث المستوحاة من كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ والمؤيّدة بحكم العقل علينا أن نقرأ ما جاء في بعض النصوص الخَبَريّة ممّا قد يكون ظاهره أنّه يُكتفى في صحة الإيمان أو في نجاح العلاقة بالله ورسله الأخذُ بركيزة واحدة فقط من تلك الركائز، ولا يعير أهميّة لسائر الركائز، فنصٌّ كهذا لا بدّ أن يُقرأ في ضوء ثلاثية المعرفة والعاطفة والسلوك، لأنّها تشكّل ضابطاً وموجّهاً في قراءة تلك النصوص.

ومن النماذج البارزة لتلك الأخبار ما ورد من أنّ « **حُبّ عليّ حسنة لا تضرّ معه سيئة**»[1] فهذا الخبر ـ على فرض صحته ـ لا يرمي إلى إلغاء دور العمل في استقامة الإنسان، فضلاً عن أن يُستفاد منه التشجيعُ على فعل السيئات، وإنّما يُراد به أنّ حُبّ عليّ عليه السلام إذا كان حُبّاً صادقاً فإنّه سوف يدفع صاحبه إلى التخلّق بأخلاق عليّ عليه السلام والاهتداء بهديه، ما يجعل من حُبّ علي عليه السلام سياجاً يحصّنه ويمنعه من فعل المعاصي والسيئات، وبعدها فلو صدرت منه بعض السيئات مع عدم الإصرار عليها ومن دون التمرّد على الله، فإنّها تكون مغفورة ولن تضرّ بإيمانه واستقامته، فيكون هذا الحديث نظير ما جاء في الحديث القدسيّ المروي عن الإمام الرّضا عليه السلام: «**لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أَمِنَ من عذابي**»، فإنّ الإمام الرّضا عليه السلام بعد أن حدّث بهذا الحديث وهو في طريقه إلى خراسان، وركب الراحلة عاد والتفت إلى الناس مرّة أخرى وقال: «**بشروطها وأنا من شروطها**»[2].



(١) عوالي اللئالي ج٤ ص٨٦.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢ ص١٤٥.

المحور الرابع

دور الحُبّ في الخطاب الديني

أولاً: مسؤوليّة الخطاب الديني «حبّبونا إلى الناس».

ثانياً: الداعية وحُبّ الناس.

ثالثاً: هكذا انتشر الإسلام.

رابعاً: المهدي عجل الله فرجه الشريف ورسالة الحُبّ.

المحور الرابع
دور الحُبّ في الخطاب الديني

قد لا يكفي ـ في رأي الكثيرين ـ أن يكون الإسلام هو الدين الذي ينسجم مع الفطرة في تعاليمه وأحكامه، ويتوافق مع العقل في أسسه وركائزه ومقاصده الكليّة، قد لا يكفي ذلك لتنشدّ إليه النفوس وتقبله العقول، ويُقْبِلَ الناس على اختياره والانخراط فيه، بل لا بدّ أن يمتلك بالإضافة إلى ذلك خطاباً جذّاباً يتماهى مع تلك الفطرة وينسجم مع معطيات العقل ويكون بمستوى الرسالة وطموحاتها.

ومن هنا، وفي هذه المرحلة التاريخيّة التي تمّت فيها «شيطنة» الإسلام وعُمل على تشويهه إلى أبعد حدٍّ، ليس بأيدي خصومه فحسب، بل وبأيدي بعض الحمقى من أتباعه، فإنّ التحدي الكبير أمامنا هو كيف نقدّم الإسلام؟ وهل ننجح في إزاحة هذه الصورة المنفّرة التي انطبعت في الأذهان عن هذا الدين وإبدالها بصورة مشرقة تليق بسمو القيم التي بشّر بها هذا الدين؟

إنّ المسؤولية في ذلك تقع على عاتق الخطاب الديني، فإذا نجح هذا الخطاب في أن يجدّد نفسه ويطوّر أساليبه ليقدّم الإسلام على حقيقته الناصعة، التي تضجّ بالرّحمة وتمتلئ بالمحبّة، وحقيقته باعتباره خشبة خلاص وسفينة نجاة صالحة لقيادة البشرية الغارقة في المادة والمتعطشة للروح والمعنى إلى برّ الأمان، إذا نجح الخطاب الإسلامي في هذه المهمة فإنّ ذلك كفيل بتغيير الصورة النمطيّة

السائدة اليوم عن الإسلام. وهذا المحور من بحثنا معنيٌّ بتسليط الضوء على دور قيمة الحُبّ في الخطاب الديني المعاصر.

أولاً: مسؤوليّة الخطاب الديني «حبّبونا إلى الناس»

والذي أعتقده أنّ الخطاب الديني عموماً سواء الخطاب الذي يتحرّك به الخطيب والمبلّغ، أو الفقيه والمجتهد، أو الفيلسوف أو المتكلّم معنيٌّ بأن يستفيد من قيمة الحُبّ، ويتخذها قيمة هادية وحاكمة لكلِّ ما يُقدّمه ويُنتجه، سواء كان موعظة أو فتوى أو فكراً، والسؤال: هل إنّ من يتحدّث باسم الإسلام اليوم يعي ما إذا كان خطابه ـ فكراً أو فتوى أو موعظة ـ يُسهم في تحبيب الناس بالإسلام وجذبهم إليه، أو إنّه يُسهم في تنفيرهم وإبعادهم عنه؟

إنّ الوظيفة الأساس للخطاب الديني هي ما عبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «**حبّبونا إلى الناس ولا تبغّضونا إليهم، فَجُرُّوا إلينا كلّ مودّة وادفعوا عنّا كلّ شرّ**»[1].

ويؤسفني القول: إنّ خطابنا الديني على مستوى الظاهرة لم يستهدِ قيمة الحُبّ ونظائرها من القيم ولم يستحضرها أو يستثمرها في فهمه للإسلام أو في تقديمه له ودفاعه عنه، ولذا غدا خطاباً يطغى عليه التشدّد والقسوة، وربّما تمجّه الأسماع وتنفر منه الطباع، وإليك توضيح ذلك:

١ ـ الله وصورة الجلّاد!

لعل الجريمة الكبيرة التي جنيناها على أنفسنا وديننا، أنّنا ـ في بعض خطابنا الديني ـ لم نرَ الله تعالى، أو لم نقدّمه كما ينبغي أن يُقدّم، بل رأيناه مصدراً للخوف والرّعب، حيث تتقدّم عندنا ـ في حديثنا عن الله ـ صُوَرُ العذاب على صُوَرِ الرحمة،

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٨، الحديث ٨ من الباب ١ من أبواب أحكام العشرة.

فالله هو الجلّاد المنتقم، وتغيب عن هذا الخطاب صورة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، إنّ الخطاب الديني الذي يقدّم الله تعالى على هذه الصورة، إنّما يُكرّه اللهَ إلى الناس، ويحوّل تصوّره ـ أي الله ـ إلى كابوس دائم ومخيف، ما يدفع بعض الناس إلى أن يفرّوا من الدين، ومن الحديث عن الله، ولستُ أبالغ فيما أقول ولا أتحدّث بكلام تهويليٍّ، بل هو كلامٌ من صلب الواقع.

جريمة نكراء

وإليكم ـ كشاهد على ما أقول ـ هذه القصة التي هي من أعجب ما واجهتُه في حياتي: أتاني قبل مدّة شاب ملتزم دينياً، فرأيته حائراً خائفاً نحيلاً!

قلت: ما بك يا فلان؟

قال: إنّي أكره الله!! فصُدمت لِمَا سمعت ولم أكدْ أصدّق أذنيّ لأوّل وهلة، لأنّي لم أكن أتوقّع مثل هذه الإجابة، ولم تواجهني من قبل، فنحن قد اعتدنا أن يأتينا بعض الأشخاص، ولا سيّما من الشباب ليقول: أنا أشكّ في وجود الله! فكيف تثبت لي وجوده؟ أمّا أن يأتيَ إليك شخص يؤمن بالله ويقول لك: «أنا أكره الله!» فهذا أمر عجيب!

قلت للشاب: أتكره الله أم أنّك لا تؤمن به؟

قال: أنا أؤمن به وأعتقد بوجوده، لأنّ كلّ شيء في هذا الكون يدلّ عليه.

إذن لِمَ تكرهه، قلتُها له مستنكراً؟!

فحكى لي الشاب، قصّته التي أوصلته إلى هذه النتيجة الصادمة، وهي قصّة جرت بينه وبين رجل من مدّعي العرفان زوراً، وكانت «نصيحة» هذا الشخص «العرفاني» له هي التي أوصلته إلى هذا الحالة الغريبة والكارثية، وخلاصة القصّة:

إنّ هذا الشاب وهو طالبٌ جامعي، قد تعرفّ إلى فتاةٍ كانت معه في الجامعة

وأُعجِبَ بها وأحبّها حُبّاً بريئاً، ولأنّه لا يستطيع الزواج منها في مرحلة الدراسة، لعدم تيسّر أسباب الزواج ولا ظروفه، فأخذ هذا الأمرُ يقلقه، ولا سيّما أنّه خشي الوقوع في الحرام، فشكى أمره إلى ذاك الرجل الذي كان يثق به، فـ«أفتاه» ذاك الرجل بأنّ عليه ترك الفتاة فوراً، لماذا؟ لأنّه لا يمكن أن يجتمع في قلبه حُبّان: حُبّ الله، وحُبّ هذه الفتاة!

فاستجاب الشاب المسكين لهذه «النصيحة»، وأبلغ الفتاة بتركه لها وتخلّيه عنها، لأنّه لا يريد أن يقع في فخّ الشِرْك، بل يريد أن يكون حُبّه خالصاً لله وَحْدَهُ!

ولم يمضِ وقت قصير حتى أخذ الفتى يعيش صراعاً داخلياً مريراً، لأنّ حُبّ الفتاة كان لا يزال نابضاً في قلبه رغم مكابرته وإبلاغه الفتاة بقرار الابتعاد عنها والتضحية بها «لحساب» الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ خوف الشرك بالله على زعم ذلك « العارف» لا يزال يؤرّقه، وفي ذروة هذا الصراع الداخلي المرير الذي لازم هذا الشاب لأشهر عديدة، والذي زاده التهاباً ابتعادُ الفتاة كلياً عنه، خلص الشاب إلى النتيجة التالية وهي: أنّ «حُبّ الله» هو الذي أفقده حبيبته وهو السبب في خسارتها، فانقلب رأساً على عقب، وتحوّل حُبُّه لله إلى بغضٍ له ﷻ، أي أصبح الله هو خصمه وعدوّه الذي أفقده حبيبته!.

ومع أنّ هذا الاستنتاج الذي وصل إليه هذا الشاب خاطئ بكلّ تأكيد، لكنّه وأمثاله ضحيّة من ضحايا الخطاب الديني المتخلّف والمنفّر، إنّه ضحيّة الجهل، إذ متى كان حُبّ الرجل للمرأة، أو حُبّ المرأة للرجل يتنافى وحُبّ الله؟! أحببْ من شئت إنساناً أو حيواناً أو جماداً، لكن ليكنْ حُبّك إياه في خطِّ حُبّك لله تعالى.

على أنّ الحُبّ عندما يكون انجذاباً لا شعورياً ولا إرادياً نحو الآخر لا يكون مبغوضاً عند الله تعالى، لأنّه انفعال جِبِلّيٌّ طبيعي خارج عن الإرادة، وما كان كذلك لا يُلام عليه صاحبه، ولا يُنهى عنه.

أجل، يُفترض بالمؤمن أن لا ينجرف مع المشاعر إلى الحدّ الذي يخرج عن توازنه، أو يدفعه الهيام لارتكاب الحرام، ولو على مستوى النظر أو اللمس أو غير ذلك من المقدّمات المحرّمة، ولا يجوز أن نبرِّر كثيراً من التجاوزات الشرعيّة على أساس الحُبّ أو العشق. ولنا عودة إلى هذا الاستثناء في محور لاحق بعون الله.

٢ ـ النبي ﷺ وصورة الجزّار!

وكما أساء بعضُ خطابنا الديني وليس كلُّه إلى صورة الله تعالى عندما قدّمه إلى الناس على صورة الجلّاد الذي يلتذّ بتعذيب الضحيّة، فإنّه أساء أيضاً إلى صورة الأنبياء عليهم السلام، فقدّمهم باعتبارهم دعاة فتك ورسل كراهية، لا باعتبارهم دعاة سلام وحُبّ ووئام، ليصبح شعار النبيّ الأكرم محمد ﷺ وعنوان رسالته هو الذبح والنَّحر وجزّ الرقاب! ويستند أصحاب هذا الخطاب التكفيري إلى حديث مزعوم يَروُونه عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح»[١].

أهكذا هو رسول الله حقاً؟ وبالذبح بُعث وأُرسل؟!

كلّا وألف كلّا، وكيف يكون كذلك وهو الرحمة المهداة، وقول الله في وصفه هو أصدق القول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

لقد خطّ الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ من خلال هذه الآية المباركة منهجاً يسير عليه في كلّ حركته الرساليه، وعنوان هذا المنهج هو الرحمة، فكيف لهذا النبي ﷺ أن يحيد عن هذا المنهج، ليجعل الذبح عنوان رسالته؟!

إنّ النبي ﷺ الذي يقول عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[٢]، ويجسّد الرحمة في كلّ سلوكه هل يعقل أن يناقض نفسه ويقول: أنا رسول الذبح؟!

(١) صحيح ابن حبان، رقم الحديث ٦٦٨٧.

(٢) أنظر: سنن الدارمي ج١ ص٩.

عندما يطلّ بعض ذابحي البشر علينا ليقدّم لنا النبيّ الأكرم ﷺ باعتباره صاحب رسالة عنوانها الذبح فهل يعي هؤلاء إلى أيّ حدٍّ سوف يقتنع المسلمون ـ قبل الآخرين ـ بهذا الكلام المنافي للفطرة وللمنطق وللقيم التي بشّر بها القرآن الكريم، والمجافي لروح الإسلام والتعاليم التي جاء بها النبي ﷺ نفسه؟!

حديث الذبح

أمّا حديث «جئتكم بالذبح» فهو حديث مرفوض، لعدة اعتبارات، ومن أهمها مخالفته لكتاب الله تعالى، وقد سجّلنا عدة ملاحظات على الحديث المذكور في كتاب «العقل التكفيري»[١]، ونضيف هنا إلى ما ذكرناه هناك ملاحظتين:

الأولى: أنّ هذا الكلام مخالف لسيرة النبيّ الأكرم ﷺ أيضاً، لأنّ الحديث المذكور يزعم أنّه ﷺ خاطب قريشاً بهذا الكلام وقال لهم: «يا معشر قريش قد جئتكم بالذبح»، ومعلوم أنّه ﷺ لم يظهر رحمته وتسامحه مع أمة أو جماعة كما أظهرها مع قريش، فقريش التي آذته وطردته وعذّبته وعذّبت أصحابه ولاحقتهم وحاصرته وأهل بيته في شِعب أبي طالب حتى أنهكهم الجوع والمرض، لم يتعامل معها النبي ﷺ إلاّ بالرحمة والعفو والتسامح، وكلمته حين فتح مكة: «**إذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٢] لا تزال مدوّية إلى يومنا هذا. فأين الذبح الذي بُعِث به النبي ﷺ إلى معشر قريش؟!

الثانية: إنّ بناء تصوّر إسلامي يتصل بتحديد وظيفة النبي ﷺ وهدف بعثته لا يمكن الاعتماد فيه على أخبار الآحاد ولو كانت صحيحة، فكيف إذا كانت غير ثابتة الصحة، ومعارضة لكتاب الله، الذي تعدّ موافقته ميزاناً وشرطاً في قبول الأخبار؟!

اتقوا الله ـ أيّتها الجماعة ـ في رسولكم إن كان فعلاً رسولاً لكم ونزّهوه عن هذا الحضيض الذي تعيشون فيه والأوحال التي تتمرّغون فيها، وارتفعوا إلى

(١) أنظر: العقل التكفيري، قراءة في المنهج الإقصائي ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص ٣٣٧.

المستوى الإنساني السامي الذي يليق بكم كأمّة أراد لها النبيّ ﷺ أن تكون الأمة الرائدة والشاهدة على الأمم.

٣ ـ الآخرة واختصارها بصور النيران

وهكذا فإنّ هذا الخطاب التهويلي والتخويفي قدّم لنا يوم القيامة بصورة مجتزأة يغلب عليها طابع العذاب والنيران وتتقدّمها مشاهد الجحيم المروّعة، مع تجاهل أو شبهه لمشاهد الرحمة الإلهيّة، هذه الرحمة التي هي الصفة الأبرز لله سبحانه وتعالى والتي لأجلها خلق الإنسان وبشّره بالجنان وتوعّده بالنيران، كما أسلفنا بيان ذلك، وهذه الرحمة التي تسبق الغضب والنقمة، وهذه الرحمة التي تتطلع إليها عنق إبليس في ذلك اليوم(١).

وبذلك يكون الخطاب الديني التنفيري قد جنى على العقائد الثلاث للمسلمين وهي: «الإيمان بالله» و«الإيمان بالرسول» و«الإيمان بالمعاد»، فقدّمها بطريقة تهويليّة منفّرة!

٤ ـ الشريعة والأغلال

هذا في جانب العقيدة، وأمّا على مستوى الشريعة فقد غدت من خلال هذا الخطاب أو من خلال الممارسات والتطبيقات التي يقوم بها أصحاب هذا الخطاب عبئاً ثقيلاً على النفوس، بحيث يشعر الإنسان المسلم ليس بالعجز عن امتثالها فحسب، بل وبالنفور منها، إنّ الشريعة التي طابعها العام هو السهولة واليسر، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج ٧٨]، ويستفاد من قول النبي الأكرم ﷺ: «**إنّما بُعثت بالحنيفيّة السمحة**»(٢) قد حوّلها الخطاب الديني المتشدّد إلى قيود تكبّل المسلم وتُثقل كاهله وتعرقل حياته وتُوقعه في

(١) لمزيد من التعرف على مظاهر الرحمة الإلهية راجع ما سجّلناه في كتاب: «هل الجنة للمسلمين وحدهم؟» ص٤٩ ـ ٧٢

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص ٥٢٨، ومسند أحمد ج٥ ص ٢٦٦.

المشاكل الصحيّة والنفسيّة، كما نلاحظ ذلك لدى الأشخاص الذين ابتُلوا بكثرة الوساوس بشأن الطهارة أو القراءة في الصلاة أو نحوها، حيث ساهم الخطاب المذكور القائم على كثرة الاحتياطات في تفاقم أزماتهم ومشاكلهم.

إننا أمام عقل مقفل لا يعي مقاصد الشريعة وآفاقها، فتراه مستغرقاً بالهوامش ويثير المعارك على التفاصيل، يستهين بالكبائر ويستعظم الصغائر، عقل متحجّر لا يلتفت إلى أهميّة الاجتهاد وضرورته في حركيّة الإسلام ومرونته.

ثانياً: الداعية وحُبّ الناس

ولعلني لا أجانب الصواب إذا قلت: إنّ الحُبّ هو أفضل أساليب الدعوة إلى الله تعالى، وإنّ أهمّ ما ينبغي أن يتّسم به الداعية إلى الله تعالى وإلى القيم الدينية أن يكون إنساناً مفعماً بالمشاعر الطيبة والصادقة، ليتسنى له أن يرسل نفحات حُبّه للناس ويشملهم بعاطفته، وأن يستخدم لغة الحُبّ ويمارسها في عمله الرسالي، وبذلك يتسنّى له النجاح في عمله وجذب قلوب الناس إلى رسالته، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت ٣٤].

إنّ إسلوب الدفع بالتي هي أحسن هو الذي يحوّل العدو اللدود إلى صديق حميم، والدفع بالتي هي أحسن يكون باختيار الكلمة الطيبة والتحلّي بالابتسامة المشرقة؛ وبهذا يضمن الداعية النجاح في عمله الرسالي، ولا يحقّ له ـ أي للداعية ـ أن يكون فجّاً أو فظّاً أو حتى مزاجياً في دعوته وتعامله مع الناس، فالمسألة ليست شأناً شخصياً ليتصرّف أو يتكلم بما يحلو له، وإنما القضيّة هي قضيّة الرسالة، والرسالة لا تسمح لأحدٍ أن يعبث باسمها أو يتحرك بمزاجية على حسابها، ولذا فإنّ واجب الحركيين والرساليين أن يضعوا المزاج جانباً، وأن يدربوا أنفسهم على تحمل الأذى الذي يلاقونه من الناس، قال تعالى مخاطباً نبيَّه

الأكرم ﷺ وكلَّ الرساليين من خلاله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد يكون من المناسب أن يطلّ الداعية على الناس بمظهر جذاب وغير منفّر، فإنّ مظهر الداعية في نظافته وتجمّله وتهذيب لحيته وتحسين هندامه وترتيب لباسه قد يكون مؤثراً في نجاحه في عمله الدَعَويّ وجذب الناس إلى القيم التي يؤمن بها.

ومن هنا فإنّ على الداعية أن يتعلّم محبّة الناس جميعاً، فيحبّ المؤمن لإيمانه، ويحبّ الفاجر أو الفاسق أو الكافر لإنسانيّته، لأنّه لا مشكلة لنا مع الكافر أو الفاسق أو الضالّ في شخصه كإنسان، وإنّما مشكلتنا معه في كفره وضلاله وفسقه، وإذا عملنا على التفريق بين الأمرين فسوف يتسنّى لنا أن ندخل إلى قلب الكافر أو الفاسق ونفتح عقله على الهداية ويصبح أكثر استعداداً لقبول الحجّة والاستماع إلى الحقّ.

وما أحوجنا في هذه المرحلة التي يعلو فيها صوت الحقد والكراهية إلى المعاهد الدينيّة التي تعلّم طلابّها كيف يحبّون الناس ويبتسمون في وجوههم، وذلك بأن تُدخِلَ ـ هذه المعاهد ـ الحُبّ في مناهجها ومقرراتها الدراسيّة، وتبيّن لطلابها ما هي أفضل الأساليب للدخول إلى قلوب العباد، ومن المهم على هذا الصعيد أن يُصار إلى تطوير الأساليب المعتمدة في التبليغ وتجديدها، فالأسلوب ليس مقدّساً في ذاته إلا بما يحمله من مضمون ينطوي على معانٍ سامية ومقدّسة.

إلاّ أنّ ما نلاحظه اليوم هو كثرة المدارس الدينيّة التي تعلّم روّادها الكراهية والأحقاد، وتُقدِّمُ الآخر المذهبي والآخر الديني بصورة سوداوية قاتمة تنزع عنه كلّ حرمة ولا ترى له ذمّة أو كرامة! وهنا تكمن المصيبة الكبرى والطامة العظمى، وعبثاً نحاول تغيير الواقع المأزوم إن لم نبدأ بخطوات إصلاحية هادفة انطلاقاً من هذه المعاهد، وذلك بالعمل الدؤوب على تفكيك البنى التحتيّة التي يرتكز عليها العقل

التكفيري المتشدّد المسيطر على الكثير من هذه المعاهد، وتقديم منهج ديني بديل يجمع بين الأصالة والتجديد، ويحمل روح التسامح الذي جاءت به الشريعة الغرّاء. ومحال أن ننجح في مواجهة هذه المدارس والحدّ من تأثيرها بمجرّد دعوات فارغة وإدانات باردة ومؤتمرات تعقد في الصالونات الفاخرة على موائد السلاطين.

أنت حبيبي!

ويطيب لي في هذا المقام أن أنقل للقارئ الكريم قصة رائعة حدثني بها بعض الأخوة ونحن في جوار بيت الله الحرام، وهي عبارة عن حادثة معبّرة جرت بين شخصين مسلمَيْن قاصدَيْن إلى حج بيت الله، وكان أحدهما من أصحاب المنهج التكفيري المتشدّد، بينما الآخر كان رجلاً مسلماً مؤمناً يتحلّى بخُلُق رفيع، فقد التقى هذان الرجلان في بعض المواقف في الديار المقدسة، ولمّا عرف أحدهما مذهب الآخر من خلال السؤال المباشر، أو من خلال بعض الممارسات العبادية التفصيلية التي تميّز مذهباً عن الآخر، ما كان من المسلم التكفيري بعد أن عرف مذهب الآخر إلاّ أن امتلأ غيظاً وحنقاً وبان الغضب على وجهه واندفع يهاجمه بقسوة وعنف لفظي حيث قال له: أنت ملعون!

فأجابه المسلم الآخر: ولكن أنت أخي وحبيبي!

اغتاظ التكفيري أكثر فأكثر، وردّ عليه بنبرة أعلى: أنت كافر!

فأجابه المسلم الآخر: ولكن أنت أخي وحبيبي.

وكلما اندفع التكفيري في الشتم والسب واللعن والتكفير كان المسلم الآخر يزداد هدوءاً دون أن تستفزه كل تلك الكلمات النابية، فقد كان مصمِّماً على أن يكون حجُّه مثالياً، ولذا أصرّ على أن يملك أعصابه وأن ينزّه لسانه عن كل ألفاظ الفحش والهجر في تلك الديار المقدسة.

وللمرّة الثالثة والرابعة كان يواجه لعن الآخر وسبّه له بالقول: أنت حبيبي!

فما الذي جرى بعدئذ؟

يقول ذاك المسلم التكفيري بعد أن استفاق من كبوته في وقت لاحق: إنّ إصرار هذا المسلم على أن يظلّ مبتسماً بشوشاً، ويردّ على قسوتي وخشونة كلامي ومنطقي باللطف والمحبة جعلني أنهزم أمامه وأفقد قدرتي على مقاومة حُبّه وتودّده لي. فانصرفت من أمامه وأنا أشعر بصدمةٍ نفسية وهزيمة داخلية لم تفارق مخيلتي لمدة طويلة حتى دفعتني إلى إعادة النظر في أفكاري المتشدّدة واكتشفت من خلال البحث والمطالعة أنّ الإسلام هو أكثر رحابة ممّا نتصوّر، واهتديت إلى أنّ لدى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام كنزاً معرفياً وروحياً ثميناً وأنّ مَنْ جهله فهو مغبون.

حُبّ الناس عنوان شخصية المؤمن

والحقيقة أن حُبّ الناس هو خُلُق نبيل ولا يختصّ بالداعية، فكلّ إنسان سويّ ولا سيّما الإنسان المؤمن لا ينبغي أن يحمل في قلبه إلاّ المودة والمحبّة للناس جميعاً، لأنّ ذلك هو عنوان شخصيته، فليس مقبولاً أن يكون المؤمن صاحب شخصيّة منفرّة ومبغوضة من قبل النّاس، بل إنّ إيمانه بالله تعالى والتزامه بهدي الإسلام سيصقل شخصيته لتغدوَ شخصية تُؤلَفُ وتُحَبُّ من قبل الناس جميعاً.

بَيْدَ أنّ الصورة اليوم عن المسلم قد انعكست، فأصبح بعض من ينتحل التديّن وينتمي إلى المسلمين شخصيةً مخيفةً للآخرين منفّراً في سلوكه مقززاً في منظره متكبراً متعجرفاً في مشيه ومنطقه، وهذا لا يمثّل ابتعاداً وانحرافاً عن تعاليم الإسلام ووصايا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فحسب، بل ويمثّل تشويهاً لصورة الإسلام وإساءة للشخصية الإسلامية.

إنّ الإيمان السليم والتديّن الصحيح ينبغي أن يدعو المؤمن ويقوده ليكون صاحب خُلُقٍ طيّب ومعشر حَسَن، يعلوه البِشْر وتَسْبِقُه الابتسامة، ويكون مشيه التواضع ومنطقه الصواب ولسانه الصدق وحديثه الأنس، وقد ورد في الحديث

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**البِشْرُ الحسن وطلاقة الوجه مكسبة للمحبة، وقربة من الله. وعبوس الوجه وسوء البِشْر مكسبة للمقت وبُعْدٌ من الله**»[1].

بذلك يكسب المرء الإخوان ويكثر أصدقاؤه وأعوانه، ويفتح قلوب الناس على رسالة الإسلام، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**ثلاث يوجبن المحبة: حُسْنُ الخُلُق، وحُسْنُ الرِّفق، والتواضع**»[2].

ويولي الإسلام في دعوته إلى محبّة الناس عنايةً خاصة بالمستضعفين والمساكين، وهو إنّما يأمر بمحبتهم ويدعو للاهتمام بهم، لأنّهم معدن كلّ خير، وهم الأكثر استجابة لدعوة التغيير، لذا كانوا أحباب الله وأحباب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففي الحديث عن أبي ذرّ الغفاري: «**أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحبّ المساكين والدنو منهم**»[3].

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً أبا ذرّ أيضاً: «**عليك بحبّ المساكين ومجالستهم**»[4].

وفي حديث المعراج: «**يا أحمد! محبّتي محبّة الفقراء، فأدنِ الفقراءَ وقرّب مجلسهم منك، وأَبْعِدِ الأغنياء وأَبْعِدْ مجلسهم عنك، فإنّ الفقراء أحبائي**»[5].

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام: «**يا عليّ! إنّ الله عزّ وجلّ وهبك حُبّ المساكين والمستضعفين في الأرض، فرضيتَ بهم إخواناً ورضوا بك إماماً**»[6].

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص ٢٩٦.
(٢) عيون الحكم والمواعظ ص٢١٢.
(٣) الخصال للصدوق ص ـ ٣٤
(٤) معاني الأخبار ص ٣٣٥.
(٥) إرشاد القلوب للديلمي ج١ ص٢٠١.
(٦) فضائل الشيعة للشيخ الصدوق ص١٤.

ثالثاً: هكذا انتشر الإسلام

إنّ الكلمة الطيبة المفعمة بالمحبّة والقائمة على أساس الحجة والبرهان هي الأسلوب الأجدى والأمثل ـ كما قلنا آنفاً ـ في الدعوة إلى الله تعالى ونشر الرسالة الإسلامية، وهذا ما تؤكّده التجربة الإسلاميّة التاريخيّة، فإنّ الإسلام ما استطاع أن يمتلك قلوب الناس بتلك السُّرعة القياسيّة إلاّ لأنّ المسلمين الأوائل حملوا الرسالة بإخلاص وحُبّ، واعتمدوا أسلوباً ليناً ملؤه الحنوّ والمحبّة والرأفة.

١ ـ بالحُبّ مَلَك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم القلوب

فهذا سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان له أن يتربّع على عرش القلوب إلاّ لأنّه انتهج أسلوب الحُبّ والرحمة والعفو، وبذلك استطاع أن يحوّل ألدّ أعدائه إلى أصدقاء، قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، إنّ ما نستوحيه من هذه الآية المباركة هو أنّ حُبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس وليونته لهم ورفقه بهم كان خلقاً عفوياً يتحرك به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته الخاصة والعامة، كما يتحرك به في دعوته إلى الله، وهذا سرّ نجاحه وانتشار رسالته وإقبال الناس عليه.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨]، وهذا الحرص على هداية الناس والاهتمام لأمورهم والتألم لما يؤلمهم أو يشقّ عليهم كان سجيّة تلقائية لدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير مُتكلَّفة ولا مصطنعة. فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم في أعماق قلبه ووجدانه يعيش الحسرة ويكابد الهمّ والغمّ وهو يرى قومه بعيدين عن نور الهداية، حتى خفّف الله عليه بقوله عزّ وجلّ: ﴿ **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [فاطر: ٨]، وقد أوضحنا هذه الفكرة في المحور الأول من محاور هذا الكتاب، فقرة «**الحب وتحطيم الحواجز مع الآخر**».

بهذه الروحيّة الإنسانيّة المتسامحة تمكّن رسول الله ﷺ من اختراق الحواجز التي وضعت في وجه الدعوة الإسلاميّة.

وإنّ سيرته ﷺ العطرة طافحة بالشواهد والدلائل التي تؤكّد صحة ما قلناه، فَفَتْحُ مكة المكرّمة وهو من أهم المنعطفات في تاريخ الإسلام لم يكن لينجح في الوصول إلى ما وصل إليه إلاّ لأنّ النبيّ ﷺ قد اعتمد سياسة الرّفق والعفو مع أهل مكّة الذين آذوه وطردوه، فهو لم ينتقم منهم ولا عاملهم بما يستحقون، ولا ردّ السيّئة بمثلها، وإنّما عفا وتجاوز عنهم ومنحهم الأمان وأطلقها كلمة خالدة عبر الزمن: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1]. ولمّا بلغه أنَّ منادي المسلمين ينادي يوم فتح مكة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلّ الحُرْمَة»، لم يرضَ ﷺ بذلك، بل سارع إلى رفع شعار آخر بديلاً عنه فقال: «**اليوم يوم المرحمة**»[2].

وقد أثمرت سياسة الرّفق التي اتّبعها ﷺ مع مشركي العرب وغيرهم ممن بلغتهم الدعوة، فأقبلوا على الإسلام زرافاتٍ ووحداناً ودخلوا في دين الله أفواجاً، وأصبح النبيّ ﷺ أحبّ الناس إلى قلوبهم، وهذا ما تطفح به كتب السيرة

---

(١) الكافي للكليني ج ٣ ص ٥١٣، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ١١٨، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٥٢.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص٥٩٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٧ ص ٢٧٢، والمعروف أنّ الذي رفع الشعار المذكور هو الصحابي سعد وأن النبيّ ﷺ أمر عليّاً عليه السلام بحمل الراية من سعد، أنظر: تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٣٤، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٦. وقد أجاد الشاعر المعروف بـ «حيص بيص» في التعبير عن هذا الخلق النبوي الرفيع الذي لا ينضح إلا بالخير والرحمة، يقول ابن خلكان: «قال الشيخ نصر الله بن مجلي وكان من الثقات أهل السنة: رأيت في المنام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقلت له: يا أمير المؤمنين تفتحون مكة فتقولون: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، ثم يتمّ على ولدك الحسين يوم الطف ما تم! فقال: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لا، فقال: اسمعها منه، ثم استيقظت فبادرت إلى دار «حيص بيص» فخرج إليّ، فذكرت له الرؤيا، فشهق وأجهش بالبكاء! وحلف بالله إن كانت خرجت من فمي أو خطي إلى أحد وإن كنت نظمتها إلاّ في ليلتي هذه، ثم أنشدني:

مَلَكْنَا فكان العفو منّا سجيّة ... فلمّا ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحلّلتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نعفّ ونصفحُ
فحسبكُمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

أنظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٢ ص ٣٦٥.

والتاريخ، وأكتفي هنا بنقل صورة واحدة تعبّر عن هذا المعنى خير تعبير، يُحكى أنّ ثُمامة بن أثال سيّد اليمامة بعد أن أسلم وقف مخاطباً رسول الله ﷺ: «ما كان على وجه الأرض أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلّها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ..»(١).

أنظر كيف يتحوّل العدو إلى صديق؟ وكيف يصبح أبغضُ الناس إليك أقربَهم إلى قلبك؟! إنّ ذلك لا يحصل بالترهيب والترغيب ولا بالجدال والخصام وإنّما يتحقق ذلك بأن تمتلك ـ بالإضافة إلى الحجّة الدامغة ـ قلباً رؤوفاً كبيراً يسع الناس وطموحاتهم ويتحسّس آلامهم ومعاناتهم وينشدّ إلى آمالهم وتطلعاتهم.

٢ ـ وبالحُبّ تربّع عليّ عليه السلام على عرش القلوب

وهذا أمير المؤمنين عليه السلام إنّما غدا معشوق القلوب وأحبّه الجميع بسبب حُبّه للناس، وعدله في الرعيّة، وإيثاره الآخرين على نفسه، وتفانيه في خدمة عيال الله، وبذا دخل حُبّه قلوب الموالين له من المسلمين، كما دخل قلوب غير المسلمين، ممن عرف عليّاً عليه السلام وقرأ سيرته، فهذا الشاعر بولس سلامة يقول:

جلجل الحقُّ في المسيحيّ حتى
عُدّ مِنْ فرْطِ حُبِّهِ علويا
يا سماءُ اشهدي ويا أرض قرّي
واخشعي إنّني ذكرتُ عليّا(٢)

لقد كان عليّ عليه السلام حاكماً على القلوب من دون مرسوم، ومتربعاً على عرشها دون منافس، وسيظلّ كذلك رغم محاولات التشويه والتزوير، ولئن استطاع بعض منافسي عليّ عليه السلام على السلطة أن يصل إلى المُلْك ويشتري

(١) أنظر: السنن الكبرى للنسائي ج ١ ص ١٠٧.
(٢) عيد الغدير ص٢٢٧.

الناس بالمال ويرهبهم بالسلاح، فإنّه لم يستطع منافسة عليّ عليه السلام في أن يحجز مكاناً له في قلوب الناس ووجدانهم.

وإليك صورة مشرقة ومعبّرة ورائعة عن هذا الحُبّ المتبادل بين عليّ عليه السلام وبين الناس، وكيف أنّه لم تستطع كلّ أساليب التضليل والتشويه ووسائل الترهيب والترغيب أن تزيل حُبّه من قلوب عباد الله تعالى، فهذه امرأة همدانيّة تدخل ذات يوم على معاوية بعد استشهادِ عليّ عليه السلام، فيسألها معاوية عن الذي دفعها للخروج مع الرجال إلى معركة صفين الطاحنة، فأجابته وهي في قصره في الشام: إنّ الذي دفعني إلى ذلك هو «حُبّ عليّ واتّباع الحقّ».

ولروعة هذه القصة واشتمالها على مشاهد عزّ وإباء ومواقف كرامة وشهامة فإنّي أنقلها وأضعها بين أيديكم كما رواها المؤرخ المسلم ابن طيفور في كتابه القيّم «بلاغات النساء»، فقد روى عن أبي موسى عيسى بن مهران، حدّثني محمّد بن عبيد الله الخزاعي، يذكره عن الشعبي، ورواه العباس بن بكار عن محمّد بن عبيد الله، قال: استأذنتْ سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، فلمّا دخلت عليه، قال: هيه يا بنت الأسك! ألست القائلة يوم صفين:

شمّر كفعل أبيك يا ابن عمارة
يومَ الطّعانِ وملتقى الأَقرانِ
وانصرْ عليّاً والحسينَ ورهطَهُ
واقصدْ لهندٍ وابنها بِهَوَانِ
إنّ الإمامَ أخو النبيّ محمّدٍ
عَلمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ
فَقِهِ الحتوفَ وسِرْ أمامَ لوائِهِ
قُدُماً بأبيضَ صارمٍ وَسِنَانِ

قالت: إي والله، ما مثلي من رغب عن الحقّ أو اعتذر بالكذب.

قال لها: فما حملك على ذلك؟

قالت: حُبّ عليّ عليه السلام واتّباع الحقّ.

قال: فوالله ما أرى عليك من أثر عليٍّ شيئاً.

قالت: أُنْشِدُك اللهَ يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى وتذكار ما قد نُسي.

قال: هيهات، ما مِثْلُ مقامِ أخيكِ ينسى، وما لقيتُ من أحدٍ ما لقيتُ من قومك وأخيكِ!

قالت: صدق فوك لم يكن أخي ذميمَ المقام ولا خفيَّ المكان، كان والله كقول الخنساء:

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ بِهِ
كأنّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

قال: صدقتِ، لقد كان كذلك.

فقالت: مات الرأس وبُتر الذنب، وبالله أسال أمير المؤمنين إعفائي ممّا استعفيت منه.

قال: قد فعلتُ، فما حاجتك؟

قالت: إنّك أصبحت للناس سيّداً ولأمرهم متقلّداً، واللهُ سائلُك من أمرنا وما افترض عليك من حقنا، ولا يزال يَقْدِمُ علينا من ينوّه بعزّك ويبطش بسلطانك، فيحصدنا حصد السنبل ويدوسنا دوس البقر ويسومنا الخسيسة ويسلبنا الجليلة. هذا بسر بن أرطأة قدم علينا من قبلك فقتل رجالي وأخذ مالي، يقول لي: فوهي بما استعصم الله منه وألجأ إليه فيه (ربما تقصد أنّه أمرها بسبّ عليٍّ عليه السلام) ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة، فإمّا عزلته عنّا فشكرناك، وإمّا لا، فعرفناك.

فقال معاوية: أتهدّديني بقومك، لقد هممت أن أحملَكِ على قَتَبٍ أشرس فأردّكِ إليه، يُنَفِذُّ فيك حُكْمَه! فأطرقت (أي المرأة) تبكي، ثمّ تقول:

صـلّـى الإلـــه عـلـى جـسـم تـضـمَّـنَـهُ
قـبـرٌ فـأصـبـح فـيـه الـعــدلُ مـدفـونـا
قـد حـالـف الـحـقَّ لا يبغي بـه بـدلاً
فـصـار بـالـحـقّ والإيـمــانِ مـقـرونـا

قال لها: ومَنْ ذلك؟

قالت: عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟!

قالت: قدمت عليه في رجلٍ ولاّه صدقتنا قَدِمَ علينا من قِبَلِه، فكان بيني وبينه ما بين الغثّ والسمين، فأتيتُ علياً عليه السلام لأشكوَ إليه ما صنع بنا، فَوجَدتُه قائماً يصلّي فلمّا نظر إليّ انفتل من صلاته! (ربّما كانت الصلاة نافلة، وربّما قيل: إنّ خدمة الناس عند عليّ عليه السلام لا تقلّ أهميّة عن الصلاة).

ثمّ قال لي برأفة وتعطّف: ألكِ حاجة؟

فأخبرتُه الخبر، فبكى، ثمّ قال: **اللهم إنّك أنت الشاهد عليّ وعليهم،** (يقصد ولاته) **إنّي لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك،** ثم أخرج من جيبه قطعة جلدٍ كهيئة طرف الجواب، فكتب فيها: «**بسم الله الرحمن الرحيم:** ﴿**قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ**﴾ [الأعراف ٨٥] ﴿**وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾**﴾ [هود ٨٥ ـ ٨٦]، إذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يَقدُمَ عليك من يقبضه منك، والسلام.

فأَخَذْتُه (والمتكلّم هو المرأة الهمدانية) منه، والله ما خَتَمَه بطين ولا خَزَمَه بخزام، فقرأتُه!

فقال لها معاوية: لقد لمّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تفطمون.

ثم قال: اكتبوا لها بردّ مالها والعدل عليها.

قالت: إليَّ خاص أم لقومي عام؟

قال: ما أنت وقومك؟!

قالت: هي والله إذن الفحشاء واللؤم، إن لم يكن عدلاً شاملاً وإلاّ فأنا كسائر قومي.

قال: اكتبوا لها ولقومها»[١].

٣ ـ الفاتح الأقل تعصباً في التاريخ

ويذكر الباحثون والمؤرخون أنّ الفاتح المسلم إنّما استطاع إخضاع الممالك وإقناع الشعوب المختلفة بالدين الجديد لا لقوّة السيف والغلبة صرفاً، وإنما لأنّه كان يحملُ رسالة جديدة لاقت صدى طيّباً في النفوس، ناهيك عن أنّ الفاتح المذكور كان إلى حدٍّ كبير وبيّن ينتهج سياسة الرفق وسبيل التسامح مع أهل البلاد التي افتتحها، يقول «برتراند راسل» المفكر والفيلسوف الإنكليزي المعروف في كتابه «السلطان» في فصل: «العقائد منابع السلطان»:

«لا ريب أنّ الديانة التي جاء بها محمد كانت عنصراً أساسياً في النجاح الذي حققته بلاده وحقّقه قومه.. وقد أظهر المسلمون منذ بداية عهدهم تسامحاً في التعامل مع المسيحيين الذين أخضعوهم... ولا ريب أنّ الفضل في سهولة

(١) بلاغات النساء ص ٣١، ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج ٦٩ ص ٢٣٤، ورواه ابن حمدون في التذكرة الحمدونية ج٢ ص٢١.

فتوحاتهم واستقرار إمبراطوريتهم يعود إلى هذا التسامح الذي يبدو بارزاً إذا ما قورن بالحماسة التعسفيّة الاضطهادية التي عرفت بها الكنيسة الكاثوليكية»[١].

ويقول الكاتب والباحث اللبناني أمين معلوف:

«لا توجد ديانة معصومة عن التعصّب، ولكننا لو قمنا بمحصّلة هاتين الديانتين «الغريمتين» ـ يقصد المسيحية والإسلام ـ لوجدنا أنّ الإسلام ليس سيّئاً لهذه الدرجة. ولو كان أسلافي مسلمين في أرض قد اجتاحتها الجيوش المسيحية، بدلاً من أن يكونوا مسيحيين في بلاد غزتها الجيوش المسلمة، لا أعتقد أنّهم كانوا سيستمرون في العيش طوال أربعة عشر قرناً في مدنهم وقراهم، محافظين على ديانتهم. فماذا كان مصير مسلمي إسبانيا؟ وماذا حلَّ بمسلمي صقلية؟ لقد أُبيدوا عن بكرة أبيهم، وذُبحوا وأُرغموا على سلوك طريق المنفى أو جرى تنصيرهم بالقوّة.

لقد تميّز الإسلام، منذ بداياته، بقدرة لافتة على التعايش مع الأديان الأخرى. ففي أواخر القرن الماضي، كانت إسطمبول عاصمة الدولة الإسلامية العظمى، تضم أغلبية من غير المسلمين، جلُّهم من اليونان والأرمن واليهود. فهل يسعنا أن نتصوّر، في الفترة نفسها، عدداً لا بأس به من غير المسيحيين، مسلمين كانوا أم يهوداً، يعيشون في باريس أو لندن أو فيينا أوبرلين؟ وحتى اليوم لا يزال الكثير من الأوروبيين يمتعضون لسماع صوت المؤذن في مدنهم!»[٢].

وفي ضوء هذا فإنّ ما يُحكى عن أنّ الإسلام ما كان له أن ينتشر إلاّ بالسيف هو كلام مبالَغ فيه، فبصرف النظر عن أنّ بعض الدول الإسلاميّة الكبرى لم يدخلها الفاتح الإسلامي أصلاً، وإنّما دخلها التجار المسلمون، كما هو الحال في دول جنوب شرق آسيا، أقول: بصرف النظر عن ذلك، فإنّ القوة لا تنشر الفكر، لأنّها قد تستطيع أن تُرهب الإنسان ولكنّها لا تستطيع إقناعه، وقد تستطيع أن تقمعه،

(١) السلطان، آراء جديدة في الفلسفة والاجتماع ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) الهويات القاتلة ص٨٢ و٨٣.

ولكنّها لا تستطيع أن تجنّده لصالحها، وما وجدناه عند الشعوب التي دخلت الإسلام بعد الفتوحات أنّها انخرطت في الدين الجديد طواعية، وتحمّست بسرعةٍ له وحملت رايته، وتقدّمت بذلك على العرب المسلمين، فهل يصدّق عاقل أنّ الفرس ـ مثلاً ـ وهم أصحاب ثقافة ضاربة في التاريخ دخلوا الإسلام مكرهين؟! وأنّى للإكراه والسيف أن يجعلهم قوّة تعمل بإخلاص ونشاط منقطع النظير لصالح الإسلام، لا أقصد أنّهم صاروا قوّة عسكرية فحسب، بل قوّة علميّة وأدبية، فقد أبدعوا في الكثير من المعارف الإسلامية، فكتبوا في لغة القرآن ما لم يكتبه العرب، وبذلك ازدهرت العربية على أيديهم، حيث كانوا ممن أسهم في تقعيد قواعدها ووضع قواميسها ومعاجمها، وألّفوا وكتبوا أيضاً في كافة العلوم والمعارف الإسلامية من علم الحديث إلى علم التفسير إلى علم الكلام والفلسفة إلى علم الفقه إلى غير ذلك.

رابعاً: المهدي ﻋﺠﻞ الله فرجه الشريف ورسالة الحُبّ

ورسالة الحُبّ والعدل، هي الرسالة التي سيحملها الإمام المهديّ المنتظر ﻋﺠﻞ الله فرجه الشريف إلى العالم الغارق في الكراهية والأحقاد، وليست رسالته أبداً هي رسالة الذبح والقتل وسفك الدماء، ولكنّ ما يؤسف له أنّ بعض خطابنا الديني قد أساء لصورة المهديّ المنتظر ﻋﺠﻞ الله فرجه الشريف فقدّمه على أنّه حامل السيف وأنّه لا شأن له إلاّ القتل وسفك الدماء ونبش القبور[1].

وهذا في الحقيقة يمثّل تشويهاً لصورة المهدي ﻋﺠﻞ الله فرجه الشريف ولرسالته، فالمهديّ لا يمتلك مبادىء خاصة به (غير مبادئ الإسلام) يسير عليها، وليس لديه سيرة مخالفة لسيرة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وإنما يتحرّك بموجب المبادىء التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف، ويأتي على رأسها: مبدأ العدل، وهو مبدأ قرآني بامتياز،

(١) ورد في بعض الأحاديث التي تصف الإمام المهدي ﻋﺠﻞ الله فرجه الشريف: «ليس شأنه إلاّ القتل ولا يستتيب أحداً»، أنظر: الغيبة للنعماني ص٢٤٠.

وما أرسل الأنبياء عليهم السلام إلاّ لإقامة العدل، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

وطبيعيّ أنّ العدل لن ينتشر بسحر ساحر، فالتحديات أثناء ظهور المهدي عجل الله فرجه الشريف ستكون كثيرة، والانحراف كبيراً قد لامس الذّروة وحدّ انقلاب المفاهيم رأساً على عقب، فأصبح الحق باطلاً والباطل حقاً، وقوى الاستكبار والاستغلال لن تستكين بل ستشهر كلّ أسلحتها في وجه دعوة الحقّ التي يمثّلها المهدي، مستعينةً بكلّ وسائل التشويش والتضليل والخداع، ولذا كان لا بدّ لنجاح المهمّة والرسالة المهدوية من الاستعانة بشتى العناصر والعوامل المساعدة في نشر رسالة العدل والسلام، فبالإضافة إلى وجود استعداد فطري لتقبّل دعوة العدل عند عامة بني الإنسان، فإنّ المهدي عجل الله فرجه الشريف مستعيناً بكلّ الوسائل النظيفة والمشروعة والهادفة سيتكئ على منظومة من القيم التي سوف يساعده حملها والتبشير بها في نشر دعوته المحقّة وانخراط الناس في مشروعه التغييري العالمي، ومن أهمّ هذه القيم قيمة الحُبّ، لأنّ الناس في المرحلة المهدويّة وفي كلّ المراحل هم بأمسّ الحاجة إلى رسالة تحتضن آمالهم وتطلّعاتهم، وتحنو على فقيرهم ومسكينهم، وتجيب على أسئلتهم وتنتشلهم من الضياع الروحيّ، ولهذا كان من الطبيعي أن يكون المهدي عجل الله فرجه الشريف هو صاحب القلب الكبير كما هو صاحب الحُجّة البيّنة والبرهان الجليّ.

إنّ المهدي عجل الله فرجه الشريف ـ كما يوحي اسمه ـ هو حامل راية الهدى والنور، وهو المخلِّص الذي يسعى بكلّ ما هُيّئ له من إمكانات أن ينتشل الإنسان من نير العبودية، وأن ينشر الأمن والأمان في ربوع المعمورة، وأن يملأها قسطاً وعدلاً بعدما مُلِئت ظلماً وجوراً.

المحور الخامس

الحبّ في مدرسة عاشوراء

أولاً: عاشوراء.. مدرسة الحُبّ

ثانياً: حُبّ الحسين عليه السلام وحُبّ الله عزّ وجلّ

ثالثاً: الحسين شهيد الحُبّ الإلهي

رابعاً: معسكر المتفانين في الله وفي حُبّ وليّه

خامساً: عندما يحُبّ القاتل قاتله!

المحور الخامس
الحُبّ في مدرسة عاشوراء[1]

وتعود عاشوراء مثقلةً بكلِّ جراحات التاريخ وآلامه بكلّ سهامه ومواجعه..

وتعود عاشوراء مضمّخة بالأحمر القاني معلنةً على رؤوس الأشهاد: «**إنّي لا أرى الموتَ إلاّ سعادةً والحياةَ مع الظالمينَ إلاّ بَرَماً**»[2]..

وتعود عاشوراء مفعمة بكلّ معاني العزّة والإباء، ويعود النداء الحسيني الخالد: «**هيهات منّا الذلّة**»[3]..

وتعود عاشوراء ويعود معها الشوق والحنين، والدمع والأنين..

وتعود عاشوراء ونستعيد معها صبر زينب عليها السلام وعزيمة الحسين عليه السلام، وإيثار أبي الفضل العباس، وشجاعة عليّ الأكبر، وتضحيات كلّ تلك الصفوة الطاهرة من أصحاب الحسين عليه السلام..

هكذا عرفنا عاشوراء وفهمناها وهكذا نريدها، وهكذا ينبغي أن تكون وتستمر..

أولاً: عاشوراء.. مدرسة الحب

ولكن هل لنا أن نرى في عاشوراء قيمةً إضافية، غير ما هو معروف ومتداول من قيمها ودروسها؟ هل لنا أن نرى في عاشوراء غير الدماء والأشلاء وغير الصراخ والعويل؟

---

(١) هذا المحور عبارة عن محاضرة ألقيت في مسجد الإمامين الحسنين عليهما السلام في بيروت ـ حارة حريك، وقد حافظنا على نصّ المحاضرة كما هي باستثناء بعض التعديلات الطفيفة.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٥.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٥.

هل لنا أن نرى الحُبّ في وسط الدماء والأشلاء؟

بكلّ تأكيد يمكننا أن نرى تلك القيمة (قيمة الحُبّ) مع أنّها قيمة غائبة أو مغيّبة عن قاموسنا الإسلامي، وعن حياة الفرد المسلم، يمكننا أن نتعلّم الحُبّ في مدرسة عاشوراء، لأنّ عاشوراء ليست مدرسة للحقد والكراهيّة، ولا لإثارة الغرائز وإيقاد الفتن، وإنّما هي مدرسة نتعلّم فيها كلّ المعاني السامية، وعلى رأسها قيمة الحُبّ الإنساني والعشق الإلهي، بل يمكننا القول: إنّ حاجتنا إلى الحسين عليه السلام وحاجتنا ـ قبل ذلك ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما عليّ عليه السلام والزهراء عليها السلام وكلّ المُثل العليا، هي في جانب أساسي منها، تعود إلى حاجتنا الماسة إلى الحُبّ والروح والعاطفة، لأنّ هؤلاء هم مصدر الحُبّ والجمال والسلام، كما هم مصدر الفكر والأخلاق.

إنّ حاجتنا إلى الحسين عليه السلام هي أمسّ من حاجة التائه في الظلمات إلى مصباح ينير له الدرب وإلى مرشد يدلّه على معالم الطريق، وأشدّ من حاجة العطشان إلى الماء الذي يروي الغليل.

يقول الشاعر[1] مخاطباً ـ الإمام الحسين عليه السلام:

سلامٌ عليك فأنت السلامُ
وإنْ كنتَ مختضباً بالدمِ
وأنتَ الدليلُ إلى الكبرياءِ
بما دِيسَ من صَدْرِكَ الأكرمِ
وإنّكَ معتصم الخائفين
يا مَنْ مِنَ الذبح لم يُعْصَم

لقد رأى هذا الشاعر بعين البصيرة صورة السلام في وسط الدماء والأشلاء، ورأى الحسين عليه السلام قدوةً للأحرار ودليلاً إلى العزّة والإباء حتى عندما يداس

(١) هو الشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد، وهو ينتمي إلى ديانة الصابئة.

صدره الشريف بسنابك خيل الظالمين! ورأى الحسين عليه السلام موئلاً للمعذبين الخائفين حتى وهو يذبح على رمضاء كربلاء!

والذي أعتقده أنّ أروع ما في عاشوراء هو مشاهد العشق والحُبّ لله وفي الله، هذه المشاهد التي نراها في مخيّم الإمام الحسين عليه السلام، حيث يبلغ حُبّ الله مستوىً يغدو معه لقاء الموت في سبيل الله سعادة، وبذل النفس في سبيل المعشوق شهادة، وسوف نذكر بعضاً من تلك المشاهد فيما يأتي.

ثانياً: حُبّ الله تعالى وحُبّ الحسين عليه السلام

ما هو الرابط بين حُبّ الله، وحُبّ أوليائه؟

سأستهل هذه النقطة بهذا التساؤل الذي أخال أننا أشبعناه بحثاً في المحور الثاني من هذا الكتاب، حيث ذكرنا أنّ على المسلم أن يوحّد الله في الحُبّ، ليكون حُبُّه خالصاً لله تعالى، ولا يُشْرِك معه أحداً، ولا شكّ أنّ حُبّ أولياء الله، هو مِنْ حُبّ الله تعالى، فلا يتنافى وحُبّه تعالى، تماماً كما أنّ حُبّنا لكلّ مَنْ وما حولنا من بشر أو أرض أو جبال أو أنهار أو أشجار.. لا يتنافى وحُبَّ الله، ما دام حُبّ هذه الأمور متحرِّكاً في خطّ حُبّ الله.

ومن هنا، فأنت معنيٌّ بأن تحُبّ أولياء الله ـ وهم رسله وحججه على العباد ـ لأنّهم عليهم السلام **«أحبّاء الله وَأوِدّاؤُه»**، بل لأنّهم **«الأدلّاء على الله»**، وهم يدلّونك على طريق الحُبّ الإلهي، وأعتقد أنّ حُبّ أولياء الله لا يحتاج إلى وصايا خاصة من أحد، فهم بما يمتلكون من روحانية خاصة وأخلاقية عالية سوف يجتذبون الناس إليهم ويدخلون القلوب بدون استئذان، وذلك هو سرّ إمامتهم وولايتهم.

ومع ذلك، فإنّ الله تعالى قد أكّد على أهميّة محبتهم، حتّى جَعَلَ مودّتهم أجرَ الرسالة، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣][1]، وهكذا نجد أنّ

(١) ورد في العديد من الروايات أنّ المقصود بالقربى في الآية المذكورة قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتحديداً أهل الكساء منهم،

رسول الله ﷺ، قد نصّ على أهميّة محبّتهم مؤكداً أنّ بها قوام الإيمان، فقال ﷺ ـ فيما روي عنه ـ: «**حسين مني وأنا من حسين أَحَبَّ الله مَنْ أَحَبَّ حسيناً**»[1]، إنّ حُبّ الحسين عليه السلام ـ إذاً ـ هو من حُبّنا لرسول الله ﷺ، وحُبُّنا لرسول الله ﷺ هو من حُبّنا لله، بينما بغض الحسين عليه السلام ـ كما بُغض أبيه عليّ عليه السلام ـ هو علامة على عدم حُبّ الله ولا رسوله، أي هو علامة النفاق، كما جاء في الأحاديث المختلفة[2].

الحُبُّ الملهم

وإننا عندما نتأمّل مليّاً في هذا التأكيد القرآني أو النبوي على أهميّة حُبّ أهل البيت عليهم السلام وارتباطه بالإيمان، فإننا ندرك بأنّ ثمّة عناية خاصة وراء ذلك، فإنّ الحُبّ ـ كنبضة قلب ـ ما كان له أن يبلغ هذه المرتبة العظيمة في الدين بحيث يكون أجراً للرسالة إلاّ لأنّ هؤلاء يمثّلون الامتداد الطبيعي لرسول الله ﷺ، وأنّ لهم دوراً في استمرار الرسالة على أصالتها، بهذا يمكن أن نفهم كيف يمكن أن يكون حُبّ الحسين عليه السلام من حُبّ رسول الله ﷺ، وكيف يرتبط حُبّ الله تعالى بحبه عليه السلام، وقد أوضحنا هذا الأمر بما فيه الكفاية في محور سابق.

ثالثاً: الحسين عليه السلام شهيد الحُبّ الإلهي

وعندما نطلّ على علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالله تعالى، فإنّا نجدها قائمة على أساس الحُبّ لله والذوبان فيه، وقد تجلّى ذلك في كلّ حياة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولا سيّما في عاشوراء، حيث نجدُ أنفسنا أمام ظاهرة منقطعة النظير من حُبّ الله وعشقه، وإليك توضيح ذلك من خلال صورتين روتهما لنا المصادر التاريخية:

فقد روى الطبراني في المعجم الكبير بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنه، قال: لمّا نزلت ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ فقالوا: يا رسول الله ومَنْ قرابتُك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: **علي وفاطمة وابناهما**» أنظر: المعجم الكبير ج٣ ص٤٧، وقد تكلمنا بإسهاب حول دلالة هذه الآية في المحور الثالث، فراجع.

(١) مسند أحمد: ج٤ ص١٧٢.

(٢) سنن النسائي ج٨ ص١١٥.

الصورة الأولى: «هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله».

عندما يسقط أصحاب الحسين عليه السلام وأبناؤه صرعى على رمضاء كربلاء، يخرج الحسين عليه السلام إلى جيش عمر بن سعد طالباً منهم أن يُقدّموا لابنه الطفل الرضيع شربة من ماء، لأنّ العطش قد أَخَذَ منه مأخذاً عظيماً، وكان جواب القوم أن رماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد وهو في حجر والده! فماذا تتوقع أن يكون موقف الحسين عليه السلام بعد أن يَرمي دمَ رضيعه نحو السماء؟ هل يبكي أو يشكو أو يجزع أو يتراجع؟

كلا، لا ذا ولا ذاك، كان موقفه أن يتوجّه إلى الله تعالى ليترنّم بكلمات العشق التالية: «**هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله**»[1]!

ما أصعبه من موقف! أن يُذبَح رضيعُك في حِجْرِك! ولكن ما أعظمه من يقين «**هوّن ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله**»! فما دام أنّ هذا الفداء هو لله وفي سبيل الله فإنّ وقعه على النفس يغدو عذباً وهيّناً، وهذا اليقين الذي بلغه الحسين عليه السلام قد حوّل هول الفاجعة ومرارتها إلى بلسم للجراح وعزاء أمام ألم المصاب.

ويتردّد على ألسنة البعض أنّه عليه السلام لمّا كثرت الجراحات في جسد الإمام الحسين عليه السلام كان يقول: «**إلهي إنْ كانَ هذا يرضيك فَخُذْ مِنّي حتّى تَرْضَى**»، ولكني لم أعثر على هذا الكلام في المصادر، أجل نُقل هذا الكلام عن الإمام الحسن عليه السلام بعد أن أخذ السُّمُ منه مأخذاً عظيماً ولفظ كبده، فقد رُوِيَ أنّه في هذا اللحظات «استقبل القبلة وقال: «**يا ربّ خُذْ مِنّي حتّى تَرْضَى**»[2].

الصورة الثانية: «إنّي أحبّ الصلاة».

جاء في تاريخ الطبري وغيره أنّه وفي اليوم التاسع من محرّم وبعد أن أصبحت الخيارات واضحة، «**إما السلّة، وإما الذلّة**» طلب الإمام الحسين عليه السلام من أخيه

(١) اللهوف في قتلى الطفوف ص٦٩.

(٢) شرح إحقاق الحق: ج٢٦ ص٥٥٨.

أبي الفضل العباس أن يتفاوض مع عمر بن سعد وهو قائد الجيش المناهض للحسين عليه السلام في مسعى لإقناعه بتأخير القتال إلى يوم غدٍ، وأن يدعهم هذه العشية وشأنهم، لكن لماذا يا تُرى؟ هل ليودّعوا العيال؟ أو ليجدوا طريقاً لأجل الهرب والفرار؟

كلا، لا هذا ولا ذاك، ودعونا نتعرّف على سبب هذا الطلب في تأخير المعركة من لسان الحسين عليه السلام نفسه يقول عليه السلام «**لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي قد كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار**»(١).

ما أعظمه من طلب وما أرقاها من أمنية! «**لعلّنا نصلّي لربنا**»، لماذا تصلي يا أبا عبد الله؟ هل لطلب الجنة والحور العين أو خوفاً من النار وزبانيتها؟

كلا، لا هذا ولا ذاك، بل لـ «**أني قد كنتُ أحبّ الصلاةَ له وتلاوةَ كتابه وكثرةَ الدعاء والاستغفار**»!

ولا ندري أيَّ صلاة صلّاها الحسين عليه السلام تلك الليلة؟ وفي أيّة حالة من حالات الانقطاع إلى الله كانت صلاته؟!

فعلاً إننا لا ندري، لأنّ هذا المقام المعنوي لا يفقهه إلّا من ذاق حلاوته، ولكن ما نستطيع أن نجزم به أنّ صلاته عليه السلام كانت صلاة المحبّين العاشقين الوالهين.

ونلاحظ هنا أنّ الإمام عليه السلام لم يُذهله تكاثر الهموم فيحتّم في كلامه، ويقول مثلاً: «**لنصلّي**»، بل قال: «**لعلّنا نصلّي**»، لأنّه عليه السلام قد لا يُستجاب لطلبه بتأخير المعركة ولا يُمهل لأداء الصلاة.

ثمّ الأهمّ من ذلك أنّه عليه السلام يقول: «**إنّ الله تعالى يعلم أنّي أحبّ الصلاة، كما أحبّ تلاوة القرآن والدعاء والاستغفار**».

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣١٦.

تلك هي حال الحسين عليه السلام، إنّه يُحبُّ الصلاة ويعشقها، وكان إذا دنا وقتها يغمره الشوق، لأنّه سينطلق في حالة من العروج الروحي إلى لقاء الله تعالى..

ولكن يا ترى ما هي حالنا نحن في أوقات الصلوات؟

إنّ الكثيرين منّا يشعرون بهمّ كبير إذا دنا وقت الصلاة، وإذا فرغوا من أدائها تراهم يتنهدون ويحمدون الله على الانتهاء منها، وكأنّ ثمة عبئاً ثقيلاً كان جاثماً على صدورهم وقد ارتاحوا منه بعد أداء الصلاة!

ما أعظم الفارق بين الصلاتين! صلاةٍ يحمدُ مصليها ربَّه على دخول وقتها شوقاً إلى لقياه عزّ وجلّ، وصلاةٍ يحمدُ مصليها ربَّه على الفراغ منها، لينصرف إلى شؤونه ودنياه!

طلب استمهال آخر

وتحدّثنا بعض المصادر أنّ الحسين عليه السلام قد طلب توقيف الحرب أو تأخيرها قليلاً مرّة أخرى، وذلك في ظهيرة يوم العاشر من محرّم، فإنّه وبعد أن قُتل جمعٌ من أصحاب الحسين عليه السلام وأحسّ بعض الصحب عليه السلام أنّ الموت قد اقترب والأجل قد دنا، تقدّم من الإمام الحسين عليه السلام قائلاً:

يا أبا عبد الله.. نفسي لك الفداء، إنّي أرى هؤلاء القوم قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتّى أقتل دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها.

قال: فرفع الحسين عليه السلام رأسه، ثمّ قال: «**ذَكَرْتَ الصلاة جَعَلَكَ اللهُ مِنَ المُصلِّين الذاكِرِين، نعم هذا أوّل وقتها، ثمّ قال: سلوهم أن يكفّوا عنّا حتّى نصلّي..**»[1].

فالحسين عليه السلام ـ إذن ـ يطلب من القوم استمهاله بضع دقائق، لماذا؟

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص ٣٣٤.

هل ليرتاح أو ليشرب الماء؟ كلاّ، بل لأجل أن يؤدِّيَ صلاة الظهر! وأيّ صلاة تلك هي التي صلّاها الحسين عليه السلام ظهيرة العاشر من محرم؟

صلّى عليه السلام والسِهام تنهمر عليه كالمطر من كلّ جانب حتّى استشهد بعض أصحابه ممّن وقف أمامه ليحميَه من السِهام ويمكّنه من الصلاة جماعة بمن تبقّى من أصحابه![1].

إنّ إصرار الحسين عليه السلام على إقامة الصلاة وهو في وسط القتلى والأشلاء، يذكّرنا بموقف أبيه عليّ عليه السلام في ليلة الهرير في صفّين، فقد كان ـ والسِّهام تتساقط عليه والسيوف والأسنّة تتشابك من حوله ـ ينظر إلى السماء مراقباً وقت الصلاة، فقال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين ما هذا الفعل؟

قال: **أنظرُ إلى الزوال** (وصول الشمس إلى منتصف النهار) **حتّى نصلّي**.

فقال له ابن عباس: إنَّ عندنا لشغلاً بالقتال عن الصلاة!

فقال عليه السلام: **على ما نقاتلُهم؟ إنّما نقاتلهم على الصلاة**[2].

رابعاً: معسكر المتفانين في الله وفي حُبّ وليّه

وهذا الفداء المنقطع النظير وتلك التضحيات الجسام التي شهدناها يوم عاشوراء يجعلان المرء حائراً أمام هذه الثلّة الطاهرة التي عشقت الحسين عليه السلام وفدته بأرواحها والنفوس، ومع أنّ هؤلاء الشهداء الأخيار هم جميعاً في مرتبة عالية من التفاني في الله والإخلاص له، وهي مرتبة لا ينالها إلاّ الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً، ولكنّا مع ذلك نشير إلى بعض المشاهد والنماذج المعبّرة عن بلوغهم مرتبة العاشقين للقاء الله والمتفانين في حُبِّه ورضاه:

(١) أنظر: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٢١.

(٢) أنظر: كشف اليقين للعلامة الحلي ص١٢٢، ووسائل الشيعة: ج٤، ص ٢٤٦، الباب ٤١ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها، الحديث٢.

عندما تتحوّل الأجساد إلى دروع!

النموذج الأوّل: ويتمثّل بوقوف بعض صحابته عليه السلام أمامه ليقيَهُ السِّهام المتوجّهة إليه، ويتلقّاها بصدره وجسده، ليحميَ الحسين عليه السلام ويمكّنه من أداء الصلاة جماعة، إنّ هذا الفداء منقطع النظير ولا يفعله إلاّ أولئك الذين أعاروا جماجمهم لله، ولا يفهمه إلاّ من ذاق حلاوة العشق الإلهي. فقد رُوي أنّ الإمام عليه السلام طلب من زهير بن القين وسعيد بن عبد الله قائلاً: «**تقدّما أمامي حتّى أُصلّيَ الظهر**»، فتقدّما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتّى صلّى بهم صلاة الخوف.

ورُوي أنَّ سعيد بن عبد الله الحنفي تقدّم أمام الحسين عليه السلام «فاستُهدف لهم، يرمونه بالنّبل، كلما أخذ الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً قام بين يديه، فما زال يُرمى حتّى سقط إلى الأرض وهو يقول: اللهم العنهم لعن عادٍ وثمود، اللهم أبلغ نبيّك السلام عنّي، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت بذلك نصرة ذرية نبيّك، ثمّ مات، فوجدوا به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح!»(١).

إنّ هذا النموذج من التفاني والتضحية والفداء في سبيل المبدأ هو حقّاً نموذج بديع ومنقطع النظير.

فرحٌ وسرور ساعة لقاء الحتوف!

النموذج الثاني: الذي يعكس حُبّ هؤلاء العظماء لله تعالى وسرورهم بلقائه، هو ما نجده عند «برير بن خضير» حيث يُنقل عنه أنّه أخذ يهازل ويمازح «عبد الرحمن بن عبد ربّه»، فقال له الأخير: «والله ما هذه بساعة باطل!

فقال برير: والله إنّ قومي لقد علموا أنّي ما أحببت الباطل شابّاً ولا كهلاً، ولكنّي

(١) بحار الأنوار: ج٤٥، ص ٢١.

مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلاّ أن يميل هؤلاء بأسيافهم»[1].

وفي بعض المصادر أنّ حبيب بن مظاهر أيضاً أخذ يمزح ويضحك، فقال له برير بن خضير الهمداني: ـ وكان يُقال له سيّد القرّاء ـ: «يا أخي ليس هذه بساعة ضحك! قال: فأيّ موضع أحقُّ من هذا بالسرور؟ والله ما هو إلاّ أن تميل علينا هذه الطغاة بسيوفهم فنعانق الحور العين»[2].

تمني الحياة لأجل الموت!

النموذج الثالث: هو نموذج أولئك الصحابة الذين كانوا يتمنّون الموت ثم الحياة مرّة أخرى ليتسنّى لهم الجهاد مجدّداً بين يدي الحسين عليه السلام، فهذا سعد بن عبد الله الحنفي وقف بين يدي أبي عبد الله عليه السلام وقال: «والله لا نخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيك، والله لو علمت أنّي أقتل ثمّ أحيا ثمّ أُحرق حيّاً ثمّ أذرّ يُفعل ذلك بي سبعينَ مرّةً ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلةٌ واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً»[3].

ولا أخالني بحاجة إلى التعليق على هذه الكلمات المفعمة بالصدق والإيمان واليقين، والتي يتبدّى من ثناياها ويلوح من فقراتها أننا أمام نفوس آمنة مطمئنة بلقاء الله ولقاء حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وأكتفي بهذا القدر من نماذج التفاني في الله تعالى، وإلاّ، فمشاهد الحُبّ والولاء لدى أصحاب الحسين عليه السلام كثيرة جداً، فقد كانوا يتمنّون أن يُقتلوا ثمّ يُنشروا ثمّ يُقتلوا ثمّ يُنشروا، يُفعل ذلك بهم ألف مرّة، فداءً للحسين عليه السلام كما قال زهير بن القين وغيره[4].

(١) الكامل في التاريخ: ج٤، ص ٦٠.
(٢) اختيار معرفة الرجال: ج١، ص ٢٩٣.
(٣) تاريخ الطبري ج٤ ص٣١٨.
(٤) م.ن، ج٤، ص ٣١٨.

خامساً: عندما يحُبّ القاتل قاتله!

ذكرنا في المحور الثاني أنّ من يسيطر عليه حُبّ الله، فلا يمكن أن يُشرك معه أحداً، في فعل أو قول أو نبضة قلب، ونقول هنا: إنّ من يمتلئ قلبه بحبّ الله، فلن يعرف هذا القلب غيرَ لغة الحُبّ ولن يجد متّسعاً للحقد، لأنّ الحُبّ والبغض لا يجتمعان في قلب المؤمن، ولهذا فإنّه حتّى عندما يبغض أعداء الله وأعداء الإنسانية، فهو لا يبغض فيهم سوى كفرهم وعصيانهم وتمرّدهم على الله، ولكنّه في العمق يشفق على أشخاصهم، لأنّهم يسيئون إلى أنفسهم ويوردونها مورد الهَلَكَة، ولذا فهو يتألم عليهم ويدعو لهم بالهداية. وَلَهِدَايَةُ شخصٍ واحد من أعدائه أحبّ إليه من أن يموت هذا الشخص على يديه، ولو كان يموت ظالماً، ويبوء بآثامه، وهذا ما عبّر عنه عليّ عليه السلام: «**فوالله ما وقعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحبّ إليّ من أن أقاتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها**»[1]، فكلّ همّ عليّ عليه السلام هو أن يحيا الناس وأن يعيشوا بأمنٍ وسلام، والحياة الحقيقية عنده هي حياة الهدى التي تفتح القلوب على الله وتفتح العقول على الإبداع لِمَا فيه خير الإنسان.

وهكذا كان نجله الحسين عليه السلام.. كان يخاف على أعدائه من مغبّة جرأتهم عليه وإقدامهم على قتله وسفك دمه. يحدثنا أحدهم أنه وقف على الحسين عليه السلام فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «**معنا أنت أم علينا؟**

يقول: فقلت: يا بن رسول الله: لا معك ولا عليك، تركت أهلي وولدي، أخاف عليهم من ابن زياد.

فقال الحسين عليه السلام: «**فولِّ هرباً حتّى لا ترى لنا مقتلاً، فوالذي نفس محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم **بيده لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا إلاّ أدخله الله النار**»[2].

---

(١) نهج البلاغة: وهي خطبة له قالها عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفّين.

(٢) وقعة صفّين: ص ١٤١.

وهكذا نراه عليه السلام يقول ذلك لعبيد الله بن الحرّ الذي فرّ من الكوفة حتّى لا يلتقي بالحسين عليه السلام، ولكن تشاء الأقدار أن يلتقيه في الطريق، ويقصد الإمام عليه السلام خيمته طالباً منه النصرة والانضمام إليه، لكنّه اعتذر، فقال له الحسين عليه السلام: «**فإن لم تنصرنا فاتَّقِ الله أن تكون ممّن يقاتلنا، والله لا يسمع واعيتنا أحد ثُمَّ لا ينصرنا إلاّ هلك**»(١).

فالحسين عليه السلام صاحب القلب الكبير يخاف على هذا الشخص أو ذاك من النار أو الهلاك إن حضرا مقتله ولم ينصراه.

وفي كلّ الأحوال، فإنّ هذا الشخص وأمثاله لن ينجو من المساءلة يوم القيامة، ولا ندري إذا كان الله تعالى يقبل أعذارهم، بالخوف على الذرّية، لأنّ ذرّية الإنسان المسلم ليست أعزَّ من ذرّية الحسين عليه السلام، كما أنّ اعتذاره بالقول: «لا لكم ولا عليكم» هو كلام مرفوض، لأنّه لا حيادية بين الحقّ والباطل، ومن لم يخذل الباطل فهو قد خذل الحقّ، ومن لم ينصر الحق فقد نصر الباطل، وقد سئل الإمام عليّ عليه السلام عن الذين اعتزلوا القتال معه في حروبه فأجاب: «**خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل**»(٢).

الحسين عليه السلام صاحب مشروع إحيائي وليس انتقامياً

وبالحديث عن الحق، فإنّ الانتصار للحق كان واحداً من أهمّ أهداف النهضة الحسينية، هذه الأهداف التي انطلقت من عناوين قرآنية بامتياز، ومن أهم هذه العناوين: عنوان «الإصلاح»، فقد جاء في وصيّة الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية: «**وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمة جدّي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة أبي علي بن أبي طالب**»(٣).

(١) الإرشاد للمفيد: ص ٨١، وتاريخ الطبري: ص ٣٠٨.
(٢) نهج البلاغة: ج٤ ص٥.
(٣) الفتوح لابن أعثم ج ٥ ص ٢١، وبحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٣٠

إنّ هذا النص العاشورائي وسواه من النصوص يؤكّد أنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام لم يكن صاحب مشروع انتقاميّ ولا ثأريّ، ولم يكن راغباً في سفك الدماء، وإنّما مشروعه هو إحياء النفوس وهداية الناس جميعاً إلى الإسلام.

إنّ المشروع الذي حمله الحسين بن عليّ عليه السلام هو المشروع عينه الذي حمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمله أبوه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو مشروع الهداية، كما أنّ الثقافة التي بشّر بها عليه السلام هي ثقافة الحُبّ والرحمة والتواصل، ومسؤوليتنا أن نقدّم الحسين عليه السلام باعتباره داعية للسلام وللحُبّ، كما هو داعية للعدل.

الحسين عليه السلام والصورة الدموية

وإذا كان مشروع الحسين عليه السلام هو هذا، فلا بدّ أن تكون وسائل إحياء ذكرى الحسين عليه السلام على مستوى هذا المشروع ومنسجمة مع رسالته عليه السلام كامل الانسجام، ولذا عندما يصرّ البعض على إحياء ذكرى عاشوراء من خلال وسائل الإدماء المعروفة فإنّه يحييها بعمل منفّر في نظر الكثيرين من أتباع الحسين عليه السلام ومحبّيه فضلاً عن غيرهم، الأمر الذي يفرض إعادة النّظر في جدوى هذه الوسيلة[1].

إنّ أهميّة الشعائر الحسينية والإحياءات المختلفة لذكرى الحسين عليه السلام وكلّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام أن تؤدّيَ هذه الوظيفة، وهي أن تُدخل الحسين عليه السلام إلى القلوب، وتعرّف الناس برسالته، فإذا كانت أساليب الإحياء منفّرة أو مقزّزة بشكلها أو بمضمونها، فإنّها ستشكّل خيانة للحسين عليه السلام. إنّ المقياس في نجاح الوسيلة الإحيائية هو في تمكّنها من أن تفتح قلوب الناس على الحسين عليه السلام، وأنت إذا فَتحت قلوب الناس على الحسين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام فأنت بذلك ستدخل بكلّ سهولة إلى عقولهم لتفتحها على فكر الحسين عليه السلام، وستدخل

(١) ومن يُرِدْ التعرف على الموقف من هذه الممارسة الإدمائية فيمكنه مراجعة ما كتبناه حول ذلك في كتاب: عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء ص١٢٠ وما بعدها.

إلى حياتهم لتغيّرها على صورة الحقّ الذي يمثّله الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا هو مشروع حفيده الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، فهو لن يخرج ـ كما أشرنا سابقاً ـ لأجل الثأر والانتقام واستخراج جثث الموتى من القبور ثمَّ صلبها، كما يزعم البعض، بل إنّه سوف يخرج حاملاً لواء العدل، ومبشِّراً بثقافة الحياة، ولا حياة بدون عدل، فالعدل هو عماد الحياة، كما أنّه لا حياة بدون حُبّ، فالحُبّ هو روح الحياة.

بيّض قلبك والبس ما شئت

ولهذا تعالوا أيها العاشقون للحسين عليه السلام ونحن نبكيه أن نبكيَه بكاء المحبّين لا بكاء المنتقمين، وهلموا بنا ونحن نلبس السواد على الحسين عليه السلام أن لا ندع اللون الأسود يدخل قلوبنا ليملأها بالحقد والبغضاء، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن لبس السواد «**بيّضْ قلبك والبسْ ما شئت**»[1]، فالسواد هو تعبير رمزي عن التعاطف مع الحسين عليه السلام، ولكن لا بدّ أن تبقى قلوبنا نقيّة بيضاء، كبياض قلب الحسين عليه السلام، وكنقاء شرف زينب، وكصفاء منحر الطفل الرضيع.

والسلام على الحسين عليه السلام وعلى عليٍّ بن الحسين عليه السلام وعلى المُستشهدين بين يدي الحسين عليه السلام وعلى السائرين على نهج الحسين عليه السلام ورحمة الله وبركاته.



(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ص٣٤٧.

المحور السادس

الحُبّ بين الحلال والحرام

أولاً: مودّة أعداء الله

ثانياً: الحُبّ ومراعاة ضوابط العقل والشرع والأخلاق

ثالثاً: الحُبّ بين الجنسين

رابعاً: حُبّ الدنيا

المحور السادس
الحُبّ بين الحلال والحرام

هل إنّ قيمة الحُبّ هي من القيم المطلقة التي لا تقبل الاستثناء، أم أنّها من القيم النسبيّة والمتغيرة؟ وهل يكون الحُبّ محرّماً ومبغوضاً في بعض الحالات؟ وما هي تلك الحالات؟

وفي الإجابة على هذا التساؤلات نقول: لا ريب أنّ قيمة الحُبّ وما يتشعّب عنها من قيم أو يماثلها في المعنى والمآل من قبيل قيم: التسامح والسلام والرّفق.. تمثّل مبادىء أصيلة في الفكر الإسلامي، فالسّلام بما يختزن من معاني الحُبّ والرفق هو القاعدة الأساس في العلاقات الإنسانية على اختلاف دوائرها ومستوياتها، وأمّا الحرب أو القتال فهو استثناء تفرضه ضرورات الاجتماع البشري مما هو مذكور في محلّه ولا مجال للتوسع في بيانه وتوضيحه في هذا المقام.

ونحن قد تحدثنا عن الأبعاد المختلفة لقيمة الحُبّ في المحور الأوّل، وأوضحنا أنّ الإسلام يريد لهذه القيمة أن تكون هي الحاكمة والسائدة في شتى الدوائر الإنسانية، وما نريد التطرّق إليه هنا هو ما يمكن أن يُذْكَرَ من استثناءات أو قيود على هذه القيمة، وهذا ما نوضحه في النقاط التالية:

أولاً: مودّة أعداء الله

النقطة الأولى التي يجدر بنا التوقف عندها ودراستها بعناية في قضية الحُبّ هي ما يتصل بمودّة أعداء الله والإنسانية، فهل إنّ مودّة هؤلاء محرّمة،

أم أنّ المحرّم هو توليهم وتأييدهم؟

الذي يظهر من كلام بعض العلماء[1] أنّ المودّة أو المحبّة حتى لو اقتصرت على مجرّد الميل القلبي فهي محرّمة، وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة ٢٢].

وعن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «**إياك أن تحُبّ أعداء الله، وتصفّي ودّك لغير أولياء الله، فإنّ مَنْ أحبّ قوماً حُشر معهم**»[2].

وعنه عليه السلام: «**لا توادّوا الكافر، ولا تصاحبوا الجاهل**»[3].

ولكن السؤال: ما المراد بالمودّة التي نهت الآية الكريمة أو الروايات عنها؟ هل هي مجرّد الميل القلبي؟ ثمّ ومَنْ هم الذين أمرت الآية بترك مودّتهم، هل هم فئة خاصّة ممن كفر بالله ورسوله أم مطلق الكافر؟

يقول الشيخ الطوسي في تفسير الآية المذكورة: «يوادّه: يواليه، وإن كان ذلك الذي يوادّه أباه أو ابنه أو أخاه أو عشيرته، فمن خالف ذلك ووالى من ذكرناه كان فاسقاً، لا يكون كافراً، وكلّ كافر فهو محادّ لله ولرسوله. والموادة: الموالاة بالنصرة والمحبّة، فهذا لا يجوز إلا للمؤمن بالله دون الكافر، والفاسق المرتكب للكبائر، لأنّه يجب البراءة منهما، وهي منافية للموالاة»[4].

---

(١) أنظر: مغني المحتاج للشربيني ج٤ ص٢٥٦ وإيضاح الفوائد لفخر المحققين ج٢ ص٣٨٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ ص٩٨.

(٣) م. ن، ص٥٢١.

(٤) التبيان في تفسير القرآن ج٩ ص ٥٥٦. وبالمولاة أيضاً فسّرت المودّة في كلام الشيخ الطبرسي في جوامع الجامع ج٣ ص٥٢٦، ونظيره ما في مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص٥١٧.

والملاحظ في كلام الشيخ الطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه قد فسّر المودّة بالموالاة، وليس بمجرّد المحبّة الصرفة، ولكنّه من جهة أخرى رأى أنّ كل «كافر» أو «فاسق مرتكب للكبائر» تحرم موادّته وتجب البراءة منه.

وبياناً لهذه المسألة وتعليقاً على كلام الشيخ الطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمكننا القول:

١ ـ إنّ مودّة أعداء الله تعالى والرسول ﷺ والمتمثلة بتوليّهم ونصرتهم ودعم بقائهم لا تنسجم مع خلوص الإيمان لدى الشخص، فإخلاص المسلم لإيمانه وقناعاته العقائدية يفرض عليه أن يتولّى أولياء الله ويتبرأ من أعدائه، فتوليه لأعداء الله وأعداء رسوله ﷺ يمثّل خيانة عظيمة للخطّ الذي ينتمي إليه، وهذا المعنى ليس مستغرباً، فكلّ جماعة لديها انتماء معين ـ سواء كان انتماءً دينياً أو غير ديني ـ لا تقبل لأتباعها الازدواجية في الولاء، وتعتبر ذلك خيانة عظمى.

٢ ـ إن الآية المباركة اشتملت على عنوان خاص، وهو عنوان «من يحادّ الله ورسوله»، والمحادّة هي المخالفة والمعاداة والمعاندة، فالمعادون لله ولرسوله هم من نهت الآية عن مودّتهم، وهذا العنوان لا ينطبق على كلّ من ليس مسلماً[1]، فغير المسلم إن كان مسالماً وغير محاربٍ للمسلمين لا ينطبق عليه هذا العنوان، وبالتالي فلا يتعيّن على المسلم أن يحمل له الحقد والكراهية، بل إنّ الله تعالى أمرنا بأن نسير مع المسالمين من غير المسلمين على أساس البِّر والقسط، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٨].

(١) ومن هنا رأى بعضهم أنّ الآية خاصة في أهل الحرب ولا تشمل أهل الذمة، أنظر: أحكام القرآن للجصّاص ج١ ص٤٥.

٣ ـ إنّ المودّة والمحبّة إذا تحوّلت إلى تولٍّ ونُصرة لأعداء الله والرسول ﷺ فلا شك في حرمتها، إذ كيف للمؤمن أن يناقض إيمانه وينصر أعداء دينه! قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة ٢٣].

وهكذا إذا كانت الموادة تمثّل حالة ركون وخضوع للظالم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود ١١٣].

وأمّا إذا لم تتحوّل الموادّة إلى تولٍّ ونُصرة ولم تكن مودّة للكافر بسبب كفره فلا دليل على حرمتها، وذلك لأنّ هذه المودّة ما دامت مجرّد مشاعر عابرة فإنّها قد لا تكون اختيارية للإنسان ليؤاخذ عليها، نعم على الإنسان المسلم أن يرصد حركة هذه المشاعر وتطوّرها لديه حتّى لا تتحوّل إلى حالة ولاء ونصرة.

على أنّنا ـ كما كان يردد سماحة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ لا نكره في الكافر شخصه بل كفره، وهذا لا يمنع من أن تحبّ فيه خصال الخير، أو تحبّه بلحاظ بعض مكارم الأخلاق التي يحملها، فتحبّ حاتم الطائي لكرمه، أو تحبّ النجاشي (ملك الحبشة الذي آوى المهاجرين الأوائل من المسلمين) لعدله.. إنّ مواجهتك ورفضك ونفورك وبراءتك من المحارب والظالم والمعادي لقضايا الأمة والإنسان لا يعني أن تحمل الحقد عليه بشكل شخصيّ، فالصراع هنا ليس صراعاً شخصيّاً، وإنّما هو صراع رساليّ ومبدئيّ، إنّه صراع الحقّ والباطل[1].

وبهذا يتضح أنّ المودة التي حرّمتها الآية المباركة ليست مجرّد الميل القلبي،

(١) وقد سئل السيد الخوئي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يتخذ بعض المسلمين بعض الكفار كشركاء في التجارة أو أصدقاء أو جيران فيحبونهم قلبياً، فهل يجوز الحُبّ والودّ لغير المسلم؟ فأجاب: قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة ٨]، وأضاف بعض تلامذته معلقاً على السؤال المذكور: «إذا لم يكن الحُبّ من جهة كفرهم فلا بأس»، صراط النجاة ج ٢ ص ٤٢٩.

وإنّما هي المودّة المتمثلة بالمولاة أو النصرة، كما اختار الشيخ الطوسي رَحِمَهُ اللهُ، وهذا المعنى هو الأقرب إلى الجوّ القرآنيّ العام حيث نهى القرآن عن «اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين»، ونهى أيضاً عن «الركون إلى الذين ظلموا» كما تقدّم، وهو الأقرب إلى التعبير المستخدم في الآية المباركة التي هي محلّ الكلام، فإنّها لم تَنْهَ عن «المودّة»، بل عن «الموادّة»، والموادّة صيغة مبالغة، ومعلوم أنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني، وبناءً على ذلك فإنّ المعنى المرجح لـ «يوادّون» والمناسب لكونها صيغة مبالغة هو أنّ هؤلاء إما أنّ لديهم إصراراً على مودّة أعداء الله، أو أنّ المودّة قد تعمقت وتجذّرت في النفوس وأصبحت من الطرفين مع ما قد ينطوي عليه ذلك من شبهة وارتياب.

ولا يغيب عن بالنا التذكير بما تقدّم سابقاً في التفرقة بين المودّة والمحبّة حيث قلنا إنّ المودّة تختزن شيئاً من التولي العملي وليست هي مجرّد نبضة قلب كما هو الحال في المحبّة.

أضف إلى ذلك أنّ القرآن الكريم قد أباح للمسلم أن يتزوج من غير المسلمة وهي الكتابية، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة ٥]، ومن المعلوم أنّ الزواج لا ينفكّ عن مشاعر الودّ والميل القلبي، فهل يباح للمسلم أن يتزوّج امرأة ويطلب منه أن يبغضها ويكرهها!

وهكذا نجد أنَّ الإمام عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أمر عامله على مصر (مالك الأشتر) أن يحمل في قلبه «**الرحمة للرعية والمحبّة لهم واللطف بهم**»، مع أنّهم ليسوا بأجمعهم من المسلمين، بل هم صنفان: «**إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**»(١).

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٤.

ومن هنا يتضح خطأ التوهم الذي يحمله البعض ويبشّر به حول ضرورة أن يتخلّص المسلم من أيّة مشاعر طيبة أو ميول قلبية تجاه غير المسلمين، فهذا يعبّر عن فهم خاطىء لبعض النصوص الدينيّة، فالإسلام لا يطلب من المسلم أن يحمل الكراهيّة لغير المسلمين، ممن لا يناصبونه العداء ولا يكيدون له، بل إنّه يريد للمسلم أن يفتح قلبه لغير المسلمين وأن ينفتح عليهم من موقع العارف بهويته والواثق بقناعته وأن يبنيَ جسور التواصل معهم في سبيل الخير وأن يتعاون معهم لما فيه مصلحة الإنسان والتأكيد على القيم المشتركة.

المقاتل النبيل

بل إنّ المسلم حتى لو كان في حالة حرب مع الآخرين، فليس مطلوباً منه سوى أن يدافع عن وجوده وأرضه وعرضه وكرامته بكلّ ما أُوتي من قوّة، دون أن يمنعه ذلك من أن يشعر بالشفقة عليهم، ولا سيّما أنّ المعسكر المعادي قد يشتمل على العديد من العناصر المضللة والمخدوعة، فمن جرّد نفسه من شهوة الانتقام والتشفي فإنّه يقاتل بحزم وقوّة، ولكنّه في الوقت عينه يقاتل بنبل وشرف، فلا تسمح له أخلاقه أن ينحدر في قتاله إلى ارتكاب بعض الممارسات الوحشيّة من قبيل التمثيل بجثث القتلى والتنكيل بهم، أو تعذيب الأسرى أو ما إلى ذلك من ممارسات لا أخلاقية، إنّ المقاتل النبيل يأسف ويحزن لكونه مضطراً لقتل أعدائه، أو لأنّ خصمه يموت على يديه وهو في خطّ الغواية والضلال.

وهذا السموّ الأخلاقي هو ما نجده عند النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام فقد تساموا في حربهم وسلمهم، فحاربوا بنبل وشرف، وكانوا يأسفون لكلّ معاند يسقط على أيديهم وتضطرّهم ظروف المعركة لقتله، ولذا كانوا يؤثرون السِّلم على الحرب والصلح على القتال ولا يبدأون أهل حربهم بقتال[1]، فهذا رسول الله ﷺ كان

(١) فمن وصية لأمير المؤمنين عليه السلام لعسكره قبل لقاء عدوهم بصفين: «**لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم فإنكم بحمد الله على حجة، وتركِكم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم**»، أنظر: نهج البلاغة ج٣ ص ١٥، ونحوه ما في تاريخ الطبري ج ٤ ص ٦٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٣٤٦.

داعية السلام وليس داعية حرب، وكان يؤثر الصلح على غيره، ولم يخض حرباً أو يسلك طريق القتال إلاّ بعد أن كانت تُفْرَض عليه.

وهذا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام المعروف ببسالته وشجاعته لم يكن مولعاً بالحرب ولا بقتل خصومه وأهل حربه، بل كان حقن الدماء أحبّ إليه وآثر عنده من سفكها، وهو القائل فيما روي عنه كما مرَّ معنا سابقاً: «**فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها**»[1].

الحُبّ في الله والبغض في الله

وباعتقادي، فإنّ هذا ما ترمز إليه عبارة «البغض في الله»، الواردة في الأحاديث الشريفة باعتبارها فضيلة للمؤمن، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أفضل الأعمال الحُبّ في الله والبغض في الله**»[2]. وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**أوثق عرى الإيمان الحُبّ في الله والبغض في الله**»[3].

فإنّ معنى أن تبغض في الله تعالى أن يكون بغضك منزّهاً عن الأهواء الشخصيّة والحسابات الخاصة الضيّقة، بل يكون البغض بغضاً رساليّاً، بسبب أنّ الآخر معادٍ لله تعالى، ومعاداة الله تعني معاندة الفطرة ومعاداة الإنسانية وظلم عباد الله، وأنت إذ تبغضه فإنّك تبغض ما يحمله من فكر منحرف وهدّام وما يقوم به من ممارسات ظالمة وعدوانية.

عدم الحُبّ لا يعني الدعوة إلى الكراهية

ويجدر بنا التنبيه هنا إلى أنّ النسبة بين الحُبّ والكراهية ليست هي نسبة الضدين اللذين لا ثالث لهما ولا نسبة النقيضين باصطلاح المناطقة، وإنّما

(١) نهج البلاغة ج١ ص١٠٤.

(٢) سنن أبي داوود ج٤ ص

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٢٦، والمحاسن للبرقي ج ١ص ١٦٥، والحديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنظر: الكافي ج ٢ ص ١٢٥، والمحاسن ج ١ ص ٢٦٣.

هي نسبة الضدين اللذين لهما ثالث، أي يمكن ارتفاعهما، ولهذا إذا لم يُطلب منك الحُبّ في محلّ معين فلا يعني ذلك أنّه يطلب منك الكراهية والبغضاء، فعندما يرد في الحديث عن عليٍّ عليه السلام: «**لا تبذلنّ ودّك إذا لم تجد موضعاً**»[(١)]، أو يروى عنه عليه السلام في حديث آخر: «**لا تمنحن ودّك من لا وفاء له**»[(٢)]، فهذا لا يمثّل تحريضاً على الكراهية، وإنّما هو إرشاد إلى ضرورة اختيار الأصدقاء الذين تصافيهم المودّة.

ثانياً: الحُبّ ومراعاة ضوابط العقل والشرع والأخلاق

النقطة الثانية: ونشير فيها إلى بعض الضوابط التي لا بدّ من مراعاتها في حركة عاطفة الحُبّ وامتداداتها ويمكن إرجاع هذه الضوابط إلى عنوان واحد ورئيسي، وهو أن تكون عاطفة الحُبّ منقادة لأحكام العقل وضوابط الشرع والأخلاق، وإليك توضيح ذلك وبيانه:

١ ـ الحُبّ وعزّة الإنسان

إنّ الحُبّ هو قيمة نبيلة ولكنّها تندرج في منظومة كبيرة من القيم الأخلاقية والإنسانية، ومن الطبيعي أن يؤخذ بهذه القيم مجتمعة لا أن يصار إلى التفكيك بينها، أو يؤخذ بقيمة معينة على حساب القيم الأخرى، ولا شك أنّ الكرامة الإنسانية تأتي على رأس منظومة القيم التي لا بدّ أن يُحافظ عليها عندما يتماشى الإنسان مع عاطفة الحُبّ، ولا يجوز في منطق الأخلاق والدين أن يؤديَ الحُبّ إلى سحق كرامة الإنسان، وبناءً على ذلك فلا ينبغي أن يمارس الإنسان الحُبّ بطريقة تمثّل ضعفاً أو ذلاً ومهانة له أمام الآخرين، أو توحي بمداهنة الآخر ومصانعته، فأنت لا تستطيع أن تحبّ من موقع الضعيف الذليل، بل إنّ هذا في العمق ليس حُبّاً، وإنما هو تظاهر بالحُبّ.

(١) عيون الحكم والمواعظ ص ٥٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص٥١٧.

نعم إن كان إظهار مشاعر الحُبّ منطلقاً من حالة اضطرار أو خوف على النفس أو المال أو العرض فلا ضير في ذلك، لأنّ المضطر معذور في منطق العقل والدين، والله تعالى قد رفع التكليف عن الإنسان في حالات الاضطرار والضرر والحرج، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة ١٧٣].

وفي الحديث النبوي المشهور والمعروف بحديث الرفع: «**رفع عن أمتي.. وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون.. وما اضطروا إليه..**»[(١)].

وأمّا إذا لم يكن ثمّة ضرورة تفرض المداراة، فيكون في إظهار التودّد على نحو التذلل للآخر نوع من التملّق أو الغش والخداع والمداهنة، وهذا كلّه مرفوض عقلاً وشرعاً، ناهيك بكون ذلك يعبّر عن ذلّ نفس لدى الإنسان، والله تعالى يأبى له ذلك ويرفضه رفضاً حاسماً، لأنّه تعالى يريد للإنسان أن يكون عزيزاً، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون ٨]، كما ويريد له أن يكون كريماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء ٧٠].

وعليه فما يقع فيه بعض الرجال العاشقين المغرمين بامرأة معينة ـ مثلاً ـ من الانسحاق أمامها والتذلل لها هو أمر محرّم ومرفوض شرعاً، وهكذا ما قد يصدر من بعض النساء تجاه بعض الرجال، والموقف عينه يجري إزاء ما يفعله الفقير أو طالب الحاجة مع الغني أو صاحب الجاه أو المسؤول من الانكباب على أقدامهم وتقبيلها فهذا التصرّف مرفوض ولا تبرّره الحاجة، لأنّ فيه إذلالاً للنفس التي أعزّها الله تعالى، ومن أعزّه الله تعالى فلا يحقّ لأحدٍ أن يذلّه ولا يُسمح له أن يذلّ نفسه.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ص ٣٥٣، والخصال له ص ٤١٧، وراجع الكافي ج ٢ ص ٤٦٣.

ويُفترض بالطرف المقابل الذي تُؤدّى هذه الممارسات أمامه تزلفاً إليه وطمعاً في جاهه أو ماله أن يرفض هذه السلوكيات ويمنع منها، فقد روي أنّ جماعة من الفرس استقبلوا علياً عليه السلام عندما مرّ في طريقه على الأنبار فنزلوا عن خيولهم ثمّ جعلوا يركضون أمامه ويتحرّكون بطريقة فيها هيجان، فنهاهم عن ذلك، رافضاً مثل هذا السلوك في التعامل مع القائد[1].

٢ ـ الحُبّ القاتل

ومن الطبيعي والضروري في آن أن تكون عاطفة الحُبّ منقادةً للعقل غير مفارقهٍ له، وذلك لأنّنا نتحدث عن عاطفة جيّاشة (وهي عاطفة الحب) قد تسيطر على أحاسيس الإنسان وتفقده توازنه، ما قد يتسبب في إيقاعه في أخطاء مميتة، ما لم يتسنّ للمحبّ أن يحكّم عقله ويسيطر على مشاعره، وهذا ما يحصل عادة مع المحبّ الهائم الذي لا يستطيع السيطرة على مشاعره تجاه الحبيب، أو الذي لم يستجب له الطرف الآخر ويتفاعل معه ويقابله الحُبّ بالحُبّ، فإنّه قد يندفع في ذروة الانفعال أو الجرح العاطفي الذي أصابه إلى إيذاء محبوبه وإلحاق الضرر به أو إلحاق الضرر بنفسه، ومن هنا قيل: «ومن الحُبّ ما قتل».

ومن أبرز الأمثلة على حالة العشق التي تُفقِدُ الإنسان توازنه، وربّما تحوّل حُبّه إلى حالة حُبّ هائج: ما بدر من «زليخا» زوجة عزيز مصر تجاه يوسف الصدّيق، فقد هامت به حتى أورده حُبّها إلى السجن، وتجاوزت نتيجة لذلك حدود الأخلاق والدين، وقد حدّثنا القرآن الكريم عن حُبّها الأعمى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٌ فِي

(١) يقول الشريف الرضي: وقال عليه السلام ـ وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار (الدهقان زعيم الفلاحين) فترجّلوا له واشتدوا بين يديه ـ: **ما هذا الذي صنعتموه؟**
فقالوا: خُلُقٌ منا نعظِّم به أمراءنا.
فقال: **والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم. وإنكم لتشقّون به على أنفسكم في دنياكم وتشقّون به في آخرتكم، وما أخسر المشقّة وراءها العقاب، وأربح الدعة معها الأمان من النار»** أنظر: نهج البلاغة ج ٤ ص ١٠، والقصة مذكورة في وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ١٤٤، وشرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٠٣.

ﭐلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف ٣٠]، فإنّ المراد بعبارة: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أنّ حُبّه وصل إلى شغاف قلبها، والشغاف: حجاب القلب[1]، فلم تتمالك زليخا نفسها، حتى دفعها حُبّها الأعمى إلى أن تفقد توازنها وترتكب الخيانة العظمى لربّها ولزوجها بطلب الوصال المحرم من يوسف عليه السلام الذي أبى واستعصم ورفض خيانة سيّده عزيز مصر، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف ٢٣].

ومعاناة يوسف الصدّيق عليه السلام مع امرأة العزيز لم تكن المعاناة الوحيدة التي تعرّض لها بسبب الحُبّ وتداعياته، فقد تعرّض لأكثر من نكبة وابتلاء على هذا الصعيد، ففي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**قال السّجان ليوسف: إنّي لأحُبّك، فقال يوسف: ما أصابني ما أصابني إلاّ من الحُبّ! إنّه كانت خالتي (عمتي) أحبتني فسرقتني، وإن كان أبي أحبّني فحسدوني إخوتي، وإن كانت امرأة العزيز أحبّتني فحبستني!**»[2].

ثالثاً: الحُبّ بين الجنسين

النقطة الثالثة: ونتعرّض فيها إلى مورد من موارد الالتباس التي يقع فيها الجدل بشأن عاطفة الحُبّ، وهو قضية الحُبّ بين الجنسين (الذكر والأنثى) ممن لم تربطهما رابطة زواج شرعي، (أما الحُبّ بين الزوجين فهو مطلوب ويشكّل صمّام أمان لاستمرار الحياة الزوجية كما أسلفنا في المحور الأول) وكثيراً ما يقع التساؤل عن موقف الإسلام من هذا النوع من الحُبّ، الذي يسبق عقد الزواج وقد ينتهي بالزواج، وقد يفشل ولا يتكلّل بالنجاح، فما هو الموقف الإسلامي من هذا الحُبّ هل يحرّمه أم يبيحه؟

(١) تفسير جوامع الجامع ج ٢ ص ٢١٥.

(٢) تفسير القمي ج١ص ٣٥٤.

العشق الحرام والعشق المباح

وفي الجواب على ذلك لا بدّ من التفصيل بين نوعين من الحُبّ أو العشق:

النوع الأول: حالة العشق التي تربط الرجل بالمرأة التي لا يحلّ له الارتباط بها، إما لكونها مُحْصَنَة ومتزوجة من غيره، أو لكونها من محارمه الذين يحرم الزواج بهنّ على كلّ حال كالخالة والعمة وبنت الأخت أو الأخ.. وهذا النوع من العشق هو عشق محرّم، وعلى الإنسان أن يضع حدّاً له ولا يسترسل معه في إظهار المشاعر بالقول أو الإيماءة أو نحو ذلك، والتحريم هنا ينطلق من اعتبارات مفهومة ومنطقية تأخذ بعين الاعتبار مصلحة الإنسان النوعية، وتهدف إلى حماية الاستقرار العائلي والمجتمعي والأخلاقي.

أجل، ربما يقال: إنّ العشق في مبادئه غير اختياري للإنسان، وما ليس بالاختيار لا يمكن أن يقع مورداً للذم واللوم، فالتكليف إنّما يتعلق بالأمور الإرادية التي يملك الإنسان أمر أن يفعلها أو يتركها، أمّا ما لا يتسنّى للإنسان أن يتجنبه، كونه أمراً فطرياً أو لا إرادياً، فهذا خارج عن دائرة التكليف؛ والعشق أو الحُبّ باعتباره عاطفة إنسانية تتملك القلب والمشاعر قد تكون كذلك، أرأيت حُبّ الأم لابنها، إنّه حُبّ تأمرها به الفطرة ولا تملك أن ترفضه أو تمنع نفسها منه، وحتى لو صرّحت بالكراهية فإنّها تقول بلسانها ما ليس في قلبها، نعم لا يمنع ذلك من أن تنفك الأم عن حُبّ ابنها لبعض الأسباب الطارئة، وهكذا هو الحال في حُبّ الإنسان ـ ذكراً أو أنثى ـ للآخر حتى لو كان ممن يحرم الزواج منه، فإنّه قد يفرض نفسه على الإنسان ولا يملك له دفعاً ولا ردّاً[1]، وبالتالي فلا يلام الإنسان عليه أيّاً كان الطرف المحبوب.

---

(١) ولا أخال أحداً يستطيع إنكار أنّ الحُبّ في بعض مستوياته هو خارج نطاق الإرادة، وقد أقرّ العلماء بذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ [النساء ١٢٩] حيث أفادوا أنّ المقصود بالعدل المنفي هو العدل في المجال العاطفي، لأنّه عدل غير مقدور.

وتعليقاً على ذلك أقول: إنّ ما ذُكر صحيحٌ من حيث المبدأ، بيد أنّ امتدادات هذا الحُبّ وتعبيراته التي تتجّسد في القول أو في الفعل هي ـ بشكل أو بآخر ـ تحت إرادة الإنسان واختياره، ومن هنا يمكن تعلّق التكليف بها، فيقال للإنسان: إنّ من واجبك أن تسيطر على مشاعر الحُبّ وأن لا تسمح لها بالتمادي عندما يكون الطرف الآخر ممّن لا يتسنّى لك الارتباط الزوجي به لمانع شرعي، كما لو كانت المرأة التي أحببتها محصنة، وبالتالي فإنّ على المرء في هذه الحالة أن يعمل على أن يبرّد من غلواء المشاعر، ولا سيّما أنّ إظهارها قد يتسبب بتخريب العلاقة الزوجية للطرف الآخر وربّما يترتّب على ذلك ما لا تحمد عقباه.

وغالباً ما يحصل هذا النوع من العشق بين الطرفين اللذيْن كانت تربطهما حالة حُبّ وودّ قبل ارتباط أحدهما بعقد زواج مع شخص آخر (ثالث)، أو كانت تربطهما مشاعر ودّية منذ الصغر، ثمّ سارت الظروف بطريقة لم تساعدهما على الارتباط الزوجي، فارتبطت المرأة برجل آخر، ولكن بقيت تلك المشاعر القديمة دفينة في داخل قلبها أو في داخل قلب الرجل ولم يستطيعا لها دفعاً أو تذويباً.

النوع الثاني: حالة الحُبّ بين طرفين يكون الارتباط العقدي بينهما مباحاً في ظرف تحرّك هذه المشاعر، كما لو أحبّ الرجل امرأة غير متزوجة وكانت ممن يحلّ له الزواج منها أو بالعكس، وفي هذه الحالة ليس ثمّة ما يمنع شرعاً من وجود هذه المشاعر، ولا دليل على حرمتها أو وجوب كبتها، أجل، ينبغي الحرص على تنزيهها ـ قدر المستطاع ـ عن أجواء الإثارة الشهوانية، لتبقى حالة حُبّ عذري يطوف في القلب، وليس حالةً غرائزية تثير شهوات الإنسان وربّما تدفعه إلى الوصال المحرم.

وقد لا نحتاج دليلاً على شرعيّة هذا النوع من الحُبّ، لأنّه إن كان تعبيراً عن مشاعر لا إرادية فقد ذكرنا أنّه لا مجال لتعلّق التكليف بها والنهي عنها، بل حتى لو اقترنت هذه المشاعر والعواطف بحالة من الوعي والتصميم الإرادي

في استحضارها وتعميقها في النفس، فإنّ ذلك لا يخرجها عن المشروعية، وليس ثمة ما يمنع منها، أو يقتضي حرمتها، ولسنا نجد في النصوص الدينية ما ينهى عنها أو يعتبرها عيباً أو دنساً، بل إنّنا لا نعدم نصوصاً دينية تقرّها وتعتبرها حالة إنسانية طبيعية، فالقرآن الكريم عندما أصدر تعليماً قضى بموجبه منع النبيّ محمّد ﷺ من الزواج بامرأة أخرى لتضاف إلى ما عنده من زوجات، فإنّه ـ أعني القرآن ـ أشار بلطف إلى تواجد هذه الحالة البشرية عند رسول الله ﷺ، وهي حالة إعجابه بالمرأة الحسناء وانشداده إليها، قال تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب ٥٢]..

واستناداً إلى هذه الآية المباركة علينا التفريق بين نوعين من نظر أحد الجنسين إلى الآخر مع عدم وجود رابطة شرعية بينهما، وهما: النظر التلذذي الشهوي، والنظر الإعجابي، والنظر المنهي عنه هو الأول دون الثاني، وليس صحيحاً أنّ النظر الإعجابي لا ينفكّ عن التلذذ الشهوي الغرائزي، فالرجل قد ينظر إلى المرأة الحسناء بإعجاب غير غرائزي، تماماً كما ينظر بإعجاب إلى الطفلة الجميلة فيسره النظر إليها، أو ينظر إلى ابنته الحسناء فيعجبه جمالها ويُسَرُّ بذلك، فهذا النظر ليس نظراً شهوياً غرائزياً، بل هو نظير تطلّع المرء إلى المناظر الجميلة وإعجابه بها، وهكذا الحال في المرأة.

وخلاصة القول: إنّ الحُبّ إذا تحوّل إلى حالة غرائزية بعيداً عن العقد الشرعي الذي ينظّم العلاقة بيين الجنسين، فإنّه يغدو مذموماً ومرفوضاً، فضلاً عما إذا امتد إلى ما هو أبعد من ذلك، فتحوّل إلى وصال حقيقي بين الطرفين، إن المحبّ في هذه الحالة يكون قد ابتذل الحُبّ وعكّر صفوه وشابه بغيره وخان إيمانه بالله تعالى، لأنّ المؤمن الصادق والموحد هو الذي يحبّ لله وليس على حساب الله تعالى.

الأنبياء عليهم السلام وحُبّ النساء

وقد اتضح مما ذكرناه أنّ الميل الفطري إلى الجنس الآخر هو ميل يتساوى فيه الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من بني آدم، فالأنبياء عليهم السلام ليسوا مستثنين من هذه السّنة الإلهية المتمثلة في ميل الرجل الفطري نحو المرأة وحُبّه لها، وميل المرأة نحو الرجل وانشدادها إليه، وقد دلّت الآية المتقدمة على تواجد هذه الفطرة لدى النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وورد في الأحاديث الشريفة التأكيد على ذلك، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال: «**حبب إليّ من دنياكم: النساء، والطيب، وجُعِل قرّة عيني في الصلاة**»[1].

وعن أَبي عَبدِ اللَّه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**مِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ (صَلَّى اللَّه عَلَيْهِمْ) حُبُّ النِّسَاءِ**»[2].

إلى غير ذلك من الأحاديث التي عقد لها المحدِّثون باباً خاصاً في كتبهم تحت عنوان «باب حُبّ النساء»[3].

وربّما تسأل: كيف نفهم هذه الأحاديث؟ وما المقصود فيها بحُبّ الأنبياء عليهم السلام للنساء؟ هل هي ناظرة إلى الجانب العاطفي المجرّد عن البعد الغرائزي الجنسي؟ أم أنّها شاملة لذلك؟

والجواب: إنّ من الممكن أن يراد بحُبّ الأنبياء عليهم السلام للنساء الإشارة إلى المشاعر الإنسانية العفوية والبريئة تجاه الجنس الآخر، فهذا الحُبّ هو انعكاس للفطرة الصادقة التي فطر الله الناس عليها، والأنبياء عليهم السلام بطبيعة الحال هم أصفى الناس فطرةً وأزكاهم خلقاً، وأكثرهم تجسيداً للمشاعر الصادقة والنبيلة.

ومن الطبيعي أن يمثّل ما جاء في هذه النصوص دعوة إلى احترام النساء

(١) مسند أحمد ج٣ ص١٢٨، والخصال للصدوق ص١٦٥.

(٢) الكافي ج٥ ص٣٢٠، والتهذيب ج٧ ص٤٠٣.

(٣) أنظر: الكافي ج٥ ص٣٢٠، ومن لا يحضره الفقيه ج٣ ص٣٨٤.

والتعامل معهن على أساس الحُبّ والمودّة، والابتعاد عن احتقارهن أو التعامل الدوني معهنّ، لأنّ الحُبّ الحقيقي يفرض على المحبّ إذا كان صادقاً في مشاعره أن يحترم الحبيب وأن يقدّر أحاسيسه ويبتعد عن إيذائه وخدش مشاعره.

ولا يمنع ما ذكر من أن تكون هذه الأحاديث شاملة في إطلاقها للحُبّ الخاص أي حُبّ الرجل للمرأة الزوجة هذا الحُبّ الذي يمتدّ إلى العلاقة الخاصة بينهما ويتجذر من خلالها، فالحُبّ في كلّ تجلياته وأبعاده وامتداداته ليس دنساً ولا عاراً ولا عيباً، ولا ينافي التديّن ولا صفاء الإيمان، ولا يخدش الورع والتقى ولا الزهد، كما قد يتخيّل بعض الناس، بل إنّ حُبّ الرجل للمرأة وحُبّ المرأة للرجل هو فعل إيمان، وهذا ما نصّت عليه بعض الأحاديث المروية عن آل البيت عليهم السلام والتي تربط بين الإيمان وحُبّ النساء، ففي الحديث عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**ما أظنّ رجلاً يزداد في الإيمان خيراً إلاّ ازداد للنساء حُبّاً**»[1].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**العبد كلما ازداد للنساء حُبّاً ازداد في الإيمان فضلاً**»[2].

رابعاً: حُبّ الدنيا

ومن موارد الحُبّ التي وقع فيها الالتباس واختلفت التصورّات إزاءها وربّما فُهمت فهماً خاطئاً من قبل بعض المدارس الإسلامية، حالة حُبّ الإنسان للدنيا، فقد رأى البعض أنّ حُبّ الدنيا أمر مذموم وقبيح، مستنداً في ذلك إلى ما ورد في العديد من الأحاديث والنصوص المحذّرة من الدنيا والناهية عن التعلّق بها، وربّما شبهتها بعض الروايات بالأفعى[3]، إلى غير ذلك من الأوصاف الذامة لها والكلمات المحذّرة منها، ومن أبرز الأحاديث الواردة في هذا المجال: الحديث

(١) من لا يحضره الفقيه ج٣ ص٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فعن علي عليه السلام: «**فإنّما مثل الدنيا مثل الحيّة ليّن مسّها، قاتلٌ سمّها..**»، أنظر: نهج البلاغة ج ٣ ص ١٢٨.

المعروف: «**حُبّ الدنيا رأس كل خطيئة**»[(١)].

وفي الدعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**سيدي صلّ على محمّدٍ وآل محمّد، وأخرج حُبّ الدنيا من قلبي**»[(٢)].

ويهمني في البدء، وقبل تقييم الموقف من قضيّة حُبّ الدنيا، أن أشير إلى نقطة مهمّة في استنطاق النص الديني، وهي أنّه ليس صحيحاً من الناحية المنهجية تكوين موقف إسلامي متكامل، سواءً فيما يتعلق بقضية حُبّ الدنيا وكيفية التعامل معها، أو في غيرها من القضايا والمسائل، اعتماداً على بعض النصوص دون مراجعة سائر النصوص الواردة في الموضوع عينه، بل المنهج الأقرب إلى فهم واقع النص الديني وحقيقة مراده أن يصار إلى ملاحظة كلّ النصوص والآثار الواردة في موضوع محدد، ومن ثمّ يُصار إلى التوثّق منها ودراستها في ضوء المقاصد الكليّة للتشريع الإسلامي وبعد ذلك يتمّ اتخاذ الموقف النهائي في المسألة.

ومع مراعاة هذه الملاحظة وأخذها بعين الاعتبار سوف يتضح لنا أنّ الموقف الإسلامي العام من الدنيا هو موقف متوازن، ليس رافضاً لها ولا للاستمتاع بملذاتها وشهواتها، كما أنّه من جهة أخرى لا يرحّب بالاستغراق فيها على حساب الإيمان بالآخرة، بحيث تكون الدنيا هي غاية همّنا ومبلغ علمنا، ونضحي لأجلها بالآخرة ونتجاوز المبادىء والقيم، وهذا الموقف المتوازن

(١) هذا الحديث مروي عن السيد المسيح عليه السلام أنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٣٣، ومروي ـ أيضاً ـ عن رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله أنظر: مجمع البيان للطبرسي ج ٧ ص ٣٣٧، والتحصين لابن فهد الحلي ص ٢٧، وعوالي اللآلي لابن أبي جمهور الأحسائي ج ١ ص ٢٧، والجامع الصغير للسيوطي ج١ ص ٥٦٦، وهو مروي ـ أيضاً ـ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنظر: عيون الحكم والمواعظ ص ٢٣١، ومروي أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام، أنظر: الخصال للصدوق ص٢٥، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ص٤٤١، والكافي للكليني ج ٢ ص ٣١٥، ونسبه الإمام زين العابدين عليه السلام إلى «الأنبياء والعلماء»، أنظر: الكافي ج ٢ ص ١٣١، ومن خلال هذا التضافر في رواية الحديث يتضح لك ضعف دعوى وضعه التي قال بها البعض، أنظر: كشف الخفاء للعجلوني ج ١ ص٣٤٥، فإنّ الحديث حتى لو كان ضعيفاً فلا يمكن الحكم بوضعه، كما لا يخفى.

(٢) من دعاء السحر له عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي.

من الدنيا يمكن استلهامه من مجموعة من النصوص الدينيّة، وعلى رأسها النصّ القرآني، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص ٧٧].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف ٣١ ـ ٣٢].

وقد عبّر بعض الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بدقة عن هذه النظرة المتوازنة والتي تجمع بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة، عندما قال: «**إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**»[1]

وفي حديث آخر: أنّه بينما كان علي عليه السلام في البصرة دخل على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى عليه السلام سعة داره قال: **ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟! أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة، تَقري فيها الضيف، وتَصِلُ فيها الرحم، وتُطْلِعُ منها الحقوقَ مطالعَها، فإذا أنت قد بلغتَ بها الآخرة**».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا!

(١) قال الصدوق: « وروي عن العالم..» ولم يحدد عمّن روي هذا الحديث، أنظر: من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٥٦، وروي في بعض المصادر عن الإمام الحسن عليه السلام، أنظر: كفاية الأثر للخزاز القمي ص ٢٢٨، وروي أيضاً مرسلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنظر: «تنبيه الخواطر ونزهة النواظر مجموعة ورّام» ج ٢ص ٥٥٣، وأما نسبة الحديث المذكور إلى أمير المؤمنين عليه السلام كما هو مشهور على الألسنة فهو على الأرجح من المشهورات التي لا أصل لها، إذ لم نعثر عليه منسوباً إليه عليه السلام في شيء من المصادر. وقد نسب الجاحظ إلى عمرو بن العاص أنّه قال: «إعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً»، أنظر: البخلاء ص ٣١.

قال عليه السلام: **عَليّ به.** فلما جاء، قال: **يا عُدَيَّ (تصغير عدوّ) نفسِهِ لقد استهام بكَ الخبيثُ، أَمَا رَحِمْتَ أهلَك وَوُلْدَكَ، أترى اللهَ أحلَّ لك الطيباتِ وهو يكره أن تأخذَها؟ أنتَ أهونُ على اللهِ من ذلك.**

قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك.

قال: «**ويحَكَ إنّي لستُ كأنتَ، إنّ الله تعالى فرض على أئّمةِ العدل أن يقدّروا أنفسهم بِضَعَفَةِ النّاسِ كيلا يَتَبَيَّغَ بالفقير فقرُهُ**»[1].

فانظر إلى استغرابه عليه السلام في بادئ الأمر من سعة الدار التي يمتلكها العلاء بن زياد على اعتبار أنّه لا حاجة به إليها، وإنّما هو بحاجة إلى أن يهتمّ ببناء دار الآخرة، حيث الحياة الأبديّة الدائمة، لكنّه عليه السلام استدرك بعد ذلك، ليقول له: أجل، إنّك تستطيع وأنت تسكن هذه الدار الواسعة في الدنيا أن تبلغ بها ثواب الآخرة، وذلك عندما لا تجعل هذه الدار حاجباً يبعدك عن الله تعالى فتتمرد عليه، أو حاجزاً بينك وبين عباد الله فتستعلي عليهم، بل تحوّلها الى دار تعبد الله فيها وتستقبل فيها الناس وتساعدهم على حلّ مشكلاتهم ومعاناتهم، وتؤدّي حقّها الشرعيّ، فبذلك تنال خير الدارين ونعيمهما.

وفي ضوء ذلك يتضح أنّ الإسلام لا يطلب من الإنسان أن يعاديَ الدنيا ويبغضَها، كيف وهي دار سكناه وقد غُرس حُبّها في قلبه من خلال الفطرة، يقول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران ١٤].

فليس ثمّةَ ما يمنعك من أن تحُبّ أولادك مثلاً، كيف وحُبّهم أمر فطري لا يخلو منه أحد بما في ذلك الأنبياء عليهم السلام، أجل، إنّ ما يُطلب من الإنسان هو

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٨، وتبيّغ بالفقير فقره: أي أهلكه فقره.

أن لا يكون حُبّه لأولاده على حساب القوانين والمبادىء الشرعية، وأن لا يُؤْثِر هواهم على ما يريده الله منه، والمسألة هنا ليست سهلة، فالإنسان قد يكون أمام اختبار صعب عندما يدور الأمر بين أبنائه وبين مبادئه، والاختبار هو ما يعنيه مصطلح الفتنة الوارد في القرآن الكريم في توصيف الأولاد والأموال، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال ٢٨].

فلك أن تحُبّ ابنك ما شئت، لكن حاذرْ من أن يقودك حُبّك إيّاه إلى معاداة الحقّ والتنازل عن المبادئ والقيم وتجاوز القوانين، كما حصل مع بعض الناس الذين وقعوا في انحراف معيّن وابتعدوا عن الخطّ الأصيل، نتيجة حُبّهم لأبنائهم، ومن ذلك ما حصل مع الصحابي الزبير بن العوام الذي كان محبّاً لعليّ عليه السلام وموالياً له، وقد بايعه مع مَنْ بايعه، وظلّ موالياً له إلى أن شبّ ابنه عبد الله، فأثّر عليه تأثيراً سلبياً أدّى إلى تغيير مواقفه ما دفعه إلى محاربة عليّ عليه السلام، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى شبّ ابنه عبد الله**»[1].

وهكذا هو الحال في حُبّك للمال، فهو ليس أمراً منكراً في المطلق، كيف وقد خلق الله الإنسان وغرس فيه هذا الميل، قال تعالى في وصف الإنسان: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات ٨]، والخير ـ في الآية ـ هو المال[2].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ١٦٧، وقد ورد هذا الحديث في نهج البلاغة بحسب نسخة ابن أبي الحديد في شرحه بالصيغة التالية: «**ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله**»، أنظر: شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ١٠٢، وقد أورده الشيخ صبحي الصالح في النهج المطبوع بشرحه وتعليقه، أنظر: ص ٥٥٥، ورواه عنه عليه السلام ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٣ ص ٩٠٦، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى أدرك فرخه فنهاه عن رأيه**» الخصال للصدوق ص ١٥٧.

(٢) أنظر: تفسير جوامع الجامع للطبرسي ج٣ ص٨٣٢.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران ١٤].

فحُبّ المال والنساء والخيل والبيوت هو أمر زيّنه الله في قلوب عباده، ولذا لا يمكن اعتباره شراً، أجل، يفترض أن لا يدفعك حُبّك للمال إلى تجاوز الضوابط الأخلاقية والشرعيّة ولا نسيان الآخرة والاستغراق بالدنيا.

والأمر عينه نقوله في حُبّ الرجل للمرأة أو العكس، فهذه مشاعر فطريّة ولا عيب فيها، بل إنّ ذلك هو من مظاهر حكمة الله تعالى، فلولا الحُبّ لما اكتملت جمالية الحياة الإنسانية ولا اكتسبت هذا الرونق ولا تلك البهجة، ولا وَصلَ الإنسان إلى كماله، وقد ذكرنا في الفقرة السابقة من هذا المحور أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا أشدّ الناس حُبّاً للنساء، وأنّ ذلك هو علامة الإيمان.

وفي المحصّلة يتبيّن أنّه بالإمكان الجمع بين حُبّ الدين وحُبّ الدنيا، أو بين حُبّ الدنيا وحُبّ الآخرة، ولا وجه لهذه الخصومة التي يراد افتعالها وتكريسها بين الحُبّيْن وكأنّهما نقيضان لا يجتمعان، فبإمكانك أن تحُبّ الدنيا بكافة عناصرها وملذّاتها وزينتها، من الأولاد إلى الأنعام إلى الدور والأرضين والقناطير المقنطرة.. شريطة أن يكون حُبّك لذلك هو في الله ولله، وغير متقدّم على حُبّك لله تعالى، ولا يلهيك عن الاستعداد للآخرة، أو القيام بواجبك تجاه نفسك وعائلتك وكلّ من هو تحت مسؤوليتك.

أجل، إنّ المسألة ـ مسألة الجمع بين الحبّين ـ ليست بهذه السهولة، ولكنّها في الوقت عينه ليست مستحيلة ولا متعذرة.

وفي ضوء هذا البيان يتضح المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حُبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة**»، فالخطيئة في حُبّ الدنيا هي عندما يتحرّك هذا الحُبّ بعيداً عمّا أراده الله تعالى، لتتحوّل الدنيا إلى معبود من دون الله، وقد يضحّي الإنسان لأجلها بكلّ المبادىء والقيم ويتجاوز كلّ الأخلاقيات والآداب.

المحور السابع

الدين بين ثقافتَي الحُبّ والحقد

أولاً: أسباب الحقد ودوافعه.

ثانياً: التربيّة على الحقد!

ثالثاً: الأنبياء عليهم السلام ورسالة الحُبّ.

رابعاً: الحقد ثقافة أم غريزة.

المحور السابع
الدين بين ثقافتَي الحُبّ والحقد

كما لا يمكن للخير أن ينتشر ويعمّ إلاّ إذا حاصرنا الشّر وعملنا على مواجهته، كذلك لا يمكننا أن نمكّن لثقافة الحُبّ أن تنتشر وتعمّ إلاّ إذا عملنا على محاصرة ثقافة الكراهية والحقد وَسَعَينا لتجفيف منابعها وتفكيك بناها الفكريّة والنفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، ولذلك وفي سبيل مواجهة ثقافة الحقد ومحاصرتها عقدنا هذا المحور.

أولاً: أسباب الحقد ودوافعه

والحقد ـ بطبيعة الحال ـ لا ينشأ من فراغ، وإنّما له ظروفه ومناخاته وأسبابه المختلفة، ولكن لا بدّ أن نستبعد من هذه الأسباب ما يحكى عن فكرة القدر القاهر، فالحقد أو الإجرام ليس قدراً مفروضاً علينا لا نستطيع تجنّبه، وليس صحيحاً أنّ الإنسان يولد مجرماً، كما يرى بعض علماء النفس، أو كما يقول المتنبي في بعض أشعاره:

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النفوس
فإِنْ تَجِدْ ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يَظْلِمُ

إنّ ما نعتقده في هذا المقام ونخال أنّ الواقع يؤكده هو أنّ الله تعالى خلق الإنسانَ صفحةً بيضاء نقيّة، يحمل قلباً طاهراً، وعقلاً سليماً لم يتلوّث بشيء، وقد أجاد وأبدع ـ كعادته ـ الإمام عليّ عليه السلام في التعبير عن هذا المعنى، إذ قال

في وصيَّته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**وإنّما قلب الحَدَثِ كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسوَ قلبك ويشتغل لُبُّكَ..**»[١]، وأمّا الحقد أو الإجرام أو الانحراف فهو شيء طارئ على الإنسان ويكتسبه من خلال انغماسه في هذه الحياة، وما يستمدّه ويتعلمه من البيئة والأهل والمربّين والأصدقاء الذين يعاشرهم، ويترافق ذلك مع وقوعه تحت ضغط الأهواء والمصالح التي تعمي عقله وتلوّث فطرته، وهو ـ أي الانحراف ـ فعل اختياري له غير مجبور عليه، وكذلك الحال في الإحسان وفعل الخير، ولو لم يكن الإنسان مختاراً في فعل الخير والشرّ لم يصحّ عقابه ولا ثوابه ولا تكليفه، ولبطَلَ إرسال الرسل إليه.

بعد استبعاد فكرة الإجرام الفطري من الحسبان، نقول: إنّ ثمّة أسباباً متعددة وظروفاً مختلفة تدفع الإنسان إلى السقوط في مهاوي الإجرام أو منزلقات الحقد، ومن أهمّ هذه الأسباب:

١ ـ الأسباب الاجتماعيّة

فالفقر، وسوء توزيع الثروات، وظلم القويّ للضعيف تشكّل أسباباً رئيسة للكثير من أعمال الإجرام والتعديات. لقد شكّل الفقر على الدوام بيئة حاضنة لنزعات التطرّف وجماعات الجريمة المنظّمة التي تعمل على نشر التوتر بين أبناء المجتمع وتثير القلق والخوف في النفوس، ومن هنا فقد انصبّت دعوات كلّ المصلحين وعلى رأسهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام على مواجهة الفقر ومحاربة صانعيه ومعالجة أسبابه وتقديم كلّ الحلول العمليّة لتوزيع الثروة بطريقة عادلة.

(١) نهج البلاغة ج٣ ص٤٠.

٢ ـ الأسباب السياسيّة

فالقهر والاستبداد والطغيان والاستكبار والإذلال هي الأخرى أسباب تربِّي الأحقاد في النفوس، وتدفع الإنسان إلى أحضان الجريمة دفعاً، وتغذّي نزعات التطرف والعنف لديه.

ومن هنا فإنّ تطبيق نظام العدالة الاجتماعيّة والسياسيّة هو السبيل الأمثل لإزالة الشحناء من النفوس وتخفيف الجرائم والتبشير بثقافة الحُبّ، وأعتقد أنّه لا يكفي لنشر هذه الثقافة الاكتفاء بالتنظير والحديث عن الحُبّ بلغة شاعرّية، فالفقير والمستضعف لا يمكنك إقناعه بأن يحمل في قلبه الحُبّ للغني المترف الذي لا يتحسس آلام الفقراء ولا يهتمّ لأحاسيسهم أو يشعر بالودّ والعطف إزاء المستكبر الذي يلتهم قوت المستضعفين ويصادر ثرواتهم وأرزاقهم، والمظلوم لا يبلّ غلته ولا يطفأ حرقته إلا الانتصاف له من ظالمه والأخذ له بحقّه، والجائع لا يشبعه مجرّد التعاطف معه حتى لو كانت العواطف نبيلة وصادقة.

٣ ـ الأسباب النفسيّة

فالنفوس التي يتحكّم فيها الحسد والغلّ والحقد وسوء الظن بالآخرين هي نفوس مريضة تمتلئ بالضغائن ولا تتمنى الخير للآخرين، بل يضيرها أن ترى نعم الله عليهم، وتتمنى زوالها عنهم، وقد تسعى جاهدة في إيذائهم والكيد لهم وإلحاق كلّ أشكال الضرر المادي والمعنوي بهم.

٤ ـ الأسباب الدينية

وربّما ذكر بعضهم أنّ الدّين هو العنصر الأبرز في الدفع نحو الحقد والمغذّي الرئيس لثقافة الكراهية، فهذه أنهار الدماء تسيل في عالمنا العربي والإسلامي باسم الدين وتحت رايته!

وأعتقد أنّه لا يكفي أن ينتفض الخطاب الديني للتنديد بهذا الكلام الصريح في

اتهام الدين أو أن نسارع إلى اتهام أصحابه بالتآمر والعمالة أو نطلق عليهم أحكاماً بالردّة أو ما إلى ذلك من أوصاف تزخر بها قواميسنا، كما أنّ من المفروض أن لا نكتفي في الردّ على ذلك بالعمل على حشد مجموعة من النصوص التي تنصّ على مبدأ تكريم الإنسان وضرورة احترامه، فهذا على أهمّيته لا يكفي وحدَهُ، وإنّما علينا أن نبرهن على صحّة دعاوانا من خلال تجربة نموذجيّة تحتذى نتقدّم بها إلى العالم.

أما على مستوى النصّ فيكفيك أنّ النبيّ الأكرم ﷺ قد لخّص هدف دعوته ورسالته بعنوان واضح ومختصر ودالّ، وهو ما جاء في قوله: «**إنّما بعثت لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[1]، وهذا النصّ ليس يتيماً في بابه، وليس من المفترض أن يكون مجرّد شعار نكتفي برفعه في نوادينا أو التغني به في خُطَبِنا ومجالسنا. إنّ هذا الكلام الصادر عن رسول الله ﷺ والذي يلخّص هدف دعوته ورسالته ويختصرها بتتميم مكارم الأخلاق يستدعي وجود منظومة أخلاقيّة وروحيّة متكاملة، وهذا ما هو عليه الدين الإسلامي الحنيف بحسب ما نفهم، فإنّ ما جاء به الكتاب والسُّنّة من تعاليم يشكّل منهاجاً متكاملاً على هذا الصعيد الأخلاقي.

ولكنّ المهم أن نعمل على ـ بعد استنباط النظرية القرآنية الأخلاقية ـ استلهام هذه القيم واستحضار تلك المبادىء الأخلاقية وتحويلها إلى نماذج تحتذى، والأهمّ هو أن نلتفت قبل ذلك كلّه إلى أنّ ثمة خللاً قد وقعنا فيه منذ زمن، وهو خلل في فهمنا للدين وفي تطبيقنا له، حيث تقدّمت لدينا القراءة الحرفيّة للدين على القراءة المقاصدية، وتغلّبت لدينا القراءة التشريعيّة الإلزاميّة للدين على القراءة الأخلاقية، ونحن نرى أنّ الكثيرين ممّن يرفعون شعار «تطبيق الشريعة» إنّما يقصدون بذلك تطبيق نظام الحدود والعقوبات فحسب، ويتنادون لهذا

(١) السنن الكبرى للبيهقي ج١٠ ص١٩٢.

الأمر، في الوقت الذي لا نجد عندهم الغيرة عينها على تطبيق المنهج الأخلاقي الإسلامي!

وأعتقد أنّ هذا الخلل ناشىء عن خلل أعمق وهو الخلل في فهم وظيفة الدين، إنّ الوظيفة الأسمى للدين هي تهذيب الأخلاق، وهذا هو المقصد الأقصى والأسنى للشريعة عينها، فإنّ شريعة لا تتحرّك في ظلّ منظومة أخلاقية هادية وملهمة للعقل الاجتهادي هي شريعة جامدة وجافة وغير قابلة للحياة.

ثانياً: التربية على الحقد!

إنّ الخلل المذكور في فهم وظيفة الدين، قد انعكس بشكل أو بآخر على تربيتنا أيضاً، فإنّ هذه التربيّة بحسب ما نلاحظ مبنيّة على رؤية كلاميّة تشيطن الآخر وتنتقص من إنسانيته وتنظر إليه باعتباره شخصاً من أهل النار، وربّما تحكم بأنّه «كافر نجس رجس»، ومن الطبيعيّ أن ينعكس ذلك على تعاملنا معه، فنحتقره وننظر إليه بازدراء ونستهين بكرامته وحرمته، ونسعى كي «نطهِّر الأرض من لوث وجوده».

الحقد المقدّس!

وأخطر ما في الأمر أنّه يتمّ تغليف هذه الثقافة السوداويّة القاتمة بغلاف الدين، الأمر الذي يسهم في إنتاج هذه الشخصيات الظلاميّة ممن خُيِّل إليهم أنّ ما هم عليه هو الدين الخالص والحقّ الصريح، وأنّ مَنْ عداهم هم على الكفر والباطل، والدين في نظر هؤلاء ليس له سوى قراءة واحدة وفهم واحد دون سواه، وهو ما يرونه هم، وكأنّ الوحي أُنزل عليهم، ولو أنّ القضيّة وقفت عند هذا الحدّ لهان الأمر رغم خطورته، لكنّهم تجاوزوا ذلك إلى درجة أنّهم عَمِلُوا على فرض قراءتهم الخاصّة للدين على غيرهم، مستخدمينَ في هذا السبيل كلّ أساليب القمع والعنف، فأفتوا بإباحة دم كلّ من يخالفهم الرأي.. فذبحوا وسفكوا الدماء

وانتهكوا الأعراض باسم الدين، فالدين من وجهة نظرهم هو الذي يأمرهم بقتل الآخر واحتقاره والحقد عليه!

إنّ صاحب الفكر القِشْريّ والتكفيري هو صاحب شخصيّة تحمل الحقد تجاه الآخر، وتُلبس هذا الحقد لبوس القداسة، أرأيت أشخاصاً يقدّسون الحقد؟! أجل، إنّهم أصحاب النظرة القاصرة والرّؤية السطحيّة عن الدين، ولهذا إذا أردنا لهذه الأمة أن تعيش بسلام وأمان فلا بدّ أن نعمل على نزع القداسة المزيّفة عن الحقد «الديني» ونسعى في سبيل تجريمه..

استبدال منهج بمنهج

ومن الواضح أنّ شيئاً من ذلك لن يتحقّق بمجرّد إدانة الحقد والإجرام والإرهاب بكلمات فارغة ولا بمجرّد إصدار بيانات الاستنكار الباردة التي تطالعنا بها وسائل الإعلام عند حدوث أعمال عنف وقتل وسفك للدماء وانتهاك للأعراض وتهديد للأقليات، فإنّ ذلك على أهميته وضرورته ليس كافياً، بل لا بدّ أن تتمّ مواجهة ثقافة العنف والحقد بالتأصيل الفكري للمنهج المقابل، وهو المنهج الإسلامي الأصيل والذي يكون حجر الزاوية فيه هو مبدأ احترام الإنسان وتكريمه، بصرف النظر عن دينه أو لونه أو عرقه. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء ٧٠]، وهو المنهج الذي يُعْلِي من قيمة الإنسان ويمنحه عصمةً على مستوى الدم والعرض والمال، ويمنحه الأمن والأمان والاطمئنان، وهو المنهج الذي يولي أهميّة خاصّة واستثنائية لعمليّة تهذيب النفوس وتدريبها على قيم المحبّة والرفق والتسامح.

ومن خلال التأصيل لهذا المنهج الرّحب والأصيل سوف تتمّ تعرية ثقافة الكراهيّة والحقد وإدانتها واعتبارها خطراً على البشرية وإثبات أنّها ثقافة مجافية للدين نصاً وروحاً، ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل علينا استكمال ذلك بالخطوة العمليّة الأهمّ، وهي العمل على تطهير مناهجنا التربويّة والدينيّة من كلّ بذور الثقافة المبنيّة على منطق «الفِرْقَة الناجية»، هذا المنطق الذي يحكم

على الآخر بالإعدام المعنوي عندما يُفتي أنّه من أهل النار، وبذلك يستهين بقتله وانتهاك كرامته ومصادرة حريته.

وعلينا ونحن نتحدّث عن التربية أن نعترف أنّ تربيتنا الوطنية والقوميّة على امتداد العالمَيْن العربي والإسلامي لم تُفلح في غرس مفهوم المواطنة في النفوس، ولم تنجح في تعزيز حسّ الانتماء الوطني لدى معظم هذه الشعوب، وظلّ «الدين» بمعناه العصبوي الضيّق هو المكوّن الأساس للهوية كما هو المحرّك للإنسان المسلم. وربّما كان مكمن الخلل في تقدّم هذا الفهم المتزمّت للدين هو في المنهج المقابل والمتطرف الذي أراد استبعاد الدين وربّما استعداءه وحذفه ليس من المقررات المدرسيّة فحسب، بل من الميدان الاجتماعي والسياسي، فارتكب أصحاب هذا التوجّه أو المنهج خطأً فادحاً، لأنّ الدين لا يمكن استبعاده ولا معاداته، وقد علّمتنا التجربة أنّ الرابح في معركة استعداء الدين هو التزمّت الدينيّ. إنّ الدين لو أحسنّا فهمه وتقديمه وتوظيفه في بناء الإنسان وبناء الأوطان سيكون عامل نهوض وعنصر استقرار وأمان دون شكّ.

ثالثاً: الأنبياء عليهم السلام ورسالة الحُبّ

ومن الضروري ونحن نتحدّث عن المنهج الإسلامي الأصيل الذي يُعلي من قيمة الحُبّ أن نستحضر بعض ملامح رسالات الأنبياء عليهم السلام، حيث أهم ما في هذه الرسالات أنّها رسالات تنبض بالحُبّ والودّ والسلام والدعوة إلى الأمن والاستقرار، وإلى العمل بالقيم الأخلاقية السامية والنبيلة.

وفي مقدّمة هذه القيم تأتي قيمة الحُبّ، فالأنبياء عليهم السلام قد دعوا أتباعهم إلى الأخذ بهذه القيمة واعتبارها مبدأً مقدّساً يحكم كلّ العلاقات، سواءً في ذلك علاقة الإنسان مع الله تعالى أو علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان أو علاقته مع البيئة بكلّ عناصرها كما أوضحنا ذلك في المحور الأول، ولعلّ من أجمل وألطف التعابير

الدّالة على أهميّة هذه القيمة في القاموس الديني ما جاء في الحديث عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث له قال لبعض أصحابه: «**يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحُبّ؟!، ألا ترى إلى قول الله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** [آل عمران ٣١]. **أولا ترى قول الله لمحمّد** صلى الله عليه وآله وسلم: **﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** [الحجرات٧]. **وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾** [الحشر٩]. **فقال: الدين هو الحُبّ، والحُبّ هو الدين**»[1].

وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «أنّ قوماً أتوه من خراسان، فنظر إلى رجل منهم قد تشققت رجلاه، فقال له: **ما هذا؟** فقال: بُعْدُ المسافة، يا بن رسول الله، ووالله ما جاء بي من حيث جئت إلاّ محبتكم أهل البيت، قال له أبو جعفر: **أبشر، فأنت والله معنا تحشر**.

قال: معكم، يا بن رسول الله؟

قال: **نعم، ما أحبّنا عبدٌ إلا حشره الله معنا، وهل الدين إلا الحُبّ، قال الله** عزّ وجلّ: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾** [آل عمران ٣١]»[2].

والقيمة الأخرى التي نجد أنّ قاموس الرسالات السماوية ممتلىء بالحديث عنها هي قيمة الرّحمة، فقد قال تعالى في بيان هدف بعثة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: **﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾** [الأنبياء ١٠٧]، والرسل جميعاً دعوا الناس إلى أن يبنوا علاقاتهم فيما بينهم على أساس التآخي والتراحم والتلاقي، قال تعالى: **﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾** [البلد ١٧].

وقد أكّد الأنبياء عليهم السلام أيضاً على أممهم وأتباعهم ومحبيهم ضرورة أن يديروا اختلافاتهم على أساس الحوار، ومن خلال الحكمة والموعظة الحسنة، واعتماداً على الحُجَّة والمنطق والبرهان.

---

(١) المحاسن للبرقي ج١ ص٢٦٣.

(٢) دعائم الإسلام ج ١ ص ٧١.

وعلّموهم أن ينظروا إلى الجانب المشرق من الآخر بدل التركيز على نقاط الضعف لديه، فقد روي أنّ عيسى بن مريم عليهما السلام مرّ والحواريون على جيفة كلب، فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب! فقال عيسى عليه السلام: **ما أشدّ بياض أسنانه!** كأنه ينهاهم عن غيبة الكلب وينبههم على أنّه لا يُذكر من خلق الله إلا أحسنه»[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ جهود الأنبياء عليهم السلام على هذا الصعيد كانت جهوداً متتابعة ومتلاحقة، يكمّل بعضها الآخر، فقد بَنَوْا عليهم السلام بيتَ الأخلاق والمحبّة، بيتاً ركيزته الصدق والإخلاص، وسقفه الحب والوئام، وسياجه النبل والعفّة، ففي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله! فجعل الناس يطيفون به** (يدورون حوله) **يقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذه، إلاّ هذه اللبنة** (إشارة إلى وجود لبنة خالية) **فكنت أنا تلك اللبنة**»[2].

وقد تقول: إنّا نجد في رسالات الأنبياء عليهم السلام دعوةً إلى الكراهية باسم الله تعالى؟! ألا نقرأ في بعض الأدبيات الإسلامية الدينية أنّ المطلوب من المؤمن أن «يحبّ في الله ويبغض في الله تعالى»؟!

وأخال أنّني قد استطعت في ثنايا هذا الكتاب وغيره من الكتب التي وفقني الله لتأليفها أن أقدّم إجابة على هذا التساؤل، وهي إجابة تنطلق من الاعتراف بأنّ ثمة تصوّراً عن الدين جعله مرادفاً للعنف والقسوة، وهذا التصوّر لا يزال حاضراً في أوساط المسلمين وله مدارسه ومعاهده الفكرية والفقهية وله منابره الإعلامية القويّة، وإننا نرفض هذا التصوّر ونعتبره تصوّراً دخيلاً على الإسلام ومنافياً ليس للنصوص الإسلامية المعتبرة كتاباً وسُنَّة فحسب، بل ومغايراً للسياق العام الذي

(١) كشف الريبة للشهيد الثاني ص ١١، والصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا ص ١٦٤، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج ٢ ص ٢٨ وشرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٦٢.
(٢) صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٤، و٦٥، وصحيح البخاري ج ٤ ص ١٦٢.

عرفه المسلمون في تاريخهم، فهو سياق رغم ما شابه من أخطاء وسلبيّات استطاع أن يحفظ التنوّع الديني والعرقي ويفتح أفاق التطوّر والإبداع أمام المسلمين، وهذا ما جعلهم في صدارة الأمم آنذاك، فبرعوا وتقدّموا في شتّى العلوم والمعارف والمجالات.

وأمّا مبدأ «البغض في الله تعالى» فقد فُهم فهماً خاطئاً من قبل أصحاب النظرة السطحية والفهم القشري والظاهري للنص الديني، فتصوّروا أنّه يمثّل دعوة إلى الكراهية والأحقاد باسم الله! مع أنّ المقصود به تنزيه قلوبنا ومواقفنا في مواجهة الآخرين المعادين لقضايانا العادلة والمحقّة عن الدوافع الشخصانيّة والخاصّة، لتكون مواجهتنا لهم منطلقة من دوافع نزيهة ورسالية، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك سابقاً.

هذه بعض سمات المنهج الذي نحتاجه في مواجهة ثقافة الحقد.

رابعاً: الحقد: ثقافة أم غريزة؟

وربّما يقولنّ لي قائل: إنّكم تُخطِئونَ في قولكم: «ثقافة الحقد»، فمتى كان الحقد منتمياً إلى عالم الثقافة؟! إنّ الحقد حالة غرائزية تستحكم بالإنسان فيفقد معها توازنه والسّيطرة على أعصابه ويتراجع العقل أمام حمّى الغريزة.

ولا شكّ أنّ هذا الكلام يتحلّى بقدر كبير من المنطق والصدقيّة، إلاّ أنّ ما أردنا قوله في هذا المحور هو أنّ الحقد تارة ينطلق من خلفيّات ذاتيّة وعُقدٍ خاصّة وشخصيّة، وأخرى ينطلق من خلفيّة فكرية، وحديثنا هو عن النوع الثاني، أي عن الحقد الذي يتمّ إلباسه لبوساً دينياً، فهذا الحقد لا يصحّ أن نتعامل معه باعتباره مجرّد انحراف أخلاقي وسلوكي، لأنّه قبل ذلك يمثّل انحرافاً في تصوّرنا الفكريّ عن الدين ودوره في الحياة، وبالتالي فإنّ كيفيّة العلاج سوف تختلف تبعاً لاختلاف تشخيصنا للمرض، فعندما يكون الحقد منطلقاً من مشكلة في

الفكر والفهم فلا يُكتفى حينها في المعالجة بالتركيز على البُعد التربوي البحت، كما هو الحال في الحقد المنطلق من خلفيّة شخصيّة، بل لا بدّ أن يصار قبل ذلك إلى تصحيح المفاهيم والرؤية لِتُبنَى التربية على ضوء ذلك.

الدين والحقد

ولا ينبغي الشكّ في أنّ الدين لا يمكن أن يعلّم الناس الحقد أو يعطي الحقد غطاءً شرعيّاً، كما أنّه ليس لدينا حقد مدان وآخر «مقدس»، فالحقد بكلّ أشكاله وألوانه هو خُلُق لئيم وطبع ذميمٍ يتعالى عنه الأبي الكريم، وقد أحسن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في توصيف هذا الخلق القبيح وبيان عواقبه وآثاره، وإليك بعض الكلمات القصار المرويّة عنه في هذا المجال، يقول عليه السلام: فيما روي عنه: «**الحقد ألأم العيوب**»[1].

وعنه عليه السلام: «**الحقد شيمة الحَسَدَة**»[2].

وعنه عليه السلام: «**الحقد من طبائع الأشرار**»[3].

وعنه عليه السلام: «**رأس العيوب الحقد**»[4].

عواقب الحقد الوخيمة

من هنا كان لزاماً على كلّ حرٍّ أبيّ النفس أن يطهّر نفسه من الغلّ والحقد، ويحاذر الوقوع في هذا المرض، هذا ناهيك بالآثار والعواقب الوخيمة التي يتركها الحقد على المجتمع برمته:

فمن جهة أولى، فإنّ أضرار الحقد على الاجتماع الإنساني واضحة بيّنة، فهو

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٤١.
(٢) م. ن، ص٣٣.
(٣) م. ن، ص٦٦.
(٤) م. ن، ص٢٦٤.

سوف يتسبّب بإثارة الفتن وتحريك النزاعات، وقد روي عن عليٍّ عليه السلام: «**سبب الفتن الحقد**»[1]، وعنه عليه السلام: «**سلاح الشرّ الحقد**»[2].

ومن جهة أخرى، فإنّ الحقد سيودي بصاحبه قبل الآخرين، فهو يوتّر أعصابه ويخرّب عليه استقراره ويفسد عليه سعادته، لأنّه ـ الحقد ـ كتلة نار تحرق حاملها قبل غيره، ومن هنا فإنّك ترى أنّ الحقود لا يعرف الراحة، وكما رُوي عن الإمام عليٍّ عليه السلام: «**الحقود معذّب النفس، متضاعف الهمّ**»[3].

وعن الإمام العسكري عليه السلام: «**أقلّ النّاس راحةً الحقود**»[4].

علاج الحقد

وفي مقام علاج هذه الحالة المَرَضِيّة، فإنّ الخطوة الأولى التي يفترض بالإنسان الحقود أن يخطوها هي أن يتطلّع إلى ما أشرنا إليه للتوّ من عواقب الحقد الوخيمة وآثاره السيّئة على النفس والمجتمع، فإنّ التأمل في ذلك سيكون مدعاةً لتهذيب النفس وتطهيرها منه.

ونَزْعُ أسباب الحقد هو الخطوة الأخرى الناجعة على صعيد مواجهته، وهو ما أشار إليه الإمام عليّ عليه السلام في بعض الأحاديث المرويّة عنه، والتي تلفت نظرنا إلى بعض ما يورث الحقد ويُنتجه، وذلك في سياق الدعوة إلى ضرورة اجتنابه، يقول عليه السلام فيما روي عنه: «**احتمل أخاك على ما فيه، ولا تكثر العتاب، فإنّه يورث الضغينة ويجرّ إلى البغضة**»[5].

وقد قدّمت لنا التعاليم الدينيّة أسلوباً رائعاً في كيفية تعامل الإنسان الحقود

---

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٢٨١.

(٢) م. ن، ص٢٨٤.

(٣) م. ن، ص ٥٩.

(٤) تحف العقول ص٤٨٩.

(٥) م. ن، ص٨٤.

مع نفسه، بما يمكنه من التخلص من هذا المرض، وهي إلفات نظره إلى الاهتمام بمعايبه والانشغال بإصلاح نفسه قبل إصلاح الآخرين، وهذا الأسلوب هو ما عبّرت عنه كلمة الإمام عليّ عليه السلام: «**إحصدِ الشرّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك**»[1].

إلى ذلك، فإنّ الإيمان والحقد لا يلتقيان، فالمؤمن لا يكون حقوداً والحقود لا يكون مؤمناً، ومن هنا تشير الأحاديث الشريفة إلى أنّ حقد المؤمن هو شيء عابر ولا يستقر في النفس، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**حقد المؤمن مقامه، ثمّ يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئاً، وحقد الكافر دهره**»[2].

وعنه عليه السلام: «..**والمؤمن يحقد ما دام في مجلسه، فإذا قام ذهب عنه الحقد**»[3].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ في صفة المؤمن ـ: « **قليلاً حقده**»[4].



(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٢.
(٢) مستطرفات ابن إدريس الحلّي في السرائر ص ٦٣٤، وعنه بحار الأنوار ج ٧٢ ص ٢١١.
(٣) تحف العقول ص٣١٠.
(٤) التمحيص ص ٧٥، وعنه بحار الأنوار ج ٦٤ ص ٣١١.

المحور الثامن

الإسلام وثقافة الأمل

أولاً: اليأس وآثاره السلبية

ثانياً: أسباب اليأس

ثالثاً: اليأس الفردي والاجتماعي

رابعاً: الإيمان والأمل

خامساً: الإسلام دين الأمل

سادساً: فقد الأمل بالدين!

سابعاً: الأمل بالله والرجاء برحمته

ثامناً: طول الأمل

المحور الثامن
الإسلام وثقافة الأمل[1]

وفي ختام الحديث عن ثقافة الحُبّ في الإسلام ودورها في بناء الحياة الإنسانيّة الهانئة ومساهمتها في تحقيق السعادة الدنيويّة والأخرويّة أرى من المناسب أن أُلحِقَ بهذا البحث موضوعاً على صلة وثيقة به وهو بعنوان: «الإسلام وثقافة الأمل»، والرابط بين الحُبّ والأمل واضح وجلي، إذ إنّ الثقافة التي تحتلّ فيها المحبّة والمودة مكانة مرموقة هي دون شكّ ثقافة تبعث في الإنسان الأمل، وما أحوجنا إلى الأمل ونحن في زمن قد تملّك فيه اليأس نفوس الكثيرين من المسلمين ليس من إمكانية التغيير في مجتمعنا الإسلامي وحسب، بل من قدرة الإسلام نفسه على قيادة عمليّة التغيير، وهو يأس غير مبرّر وإن كان يبدو مُتفَهّماً بالنظر إلى واقعنا المزري.

الإسلام وثقافة الأمل

في زمن الذبح والنحر وقطع الرؤوس، في زمن الفتنة المذهبية والتوترات السياسية والأمنية في هذا الزمن برزت العديد من الظواهر المرضيّة المقلقة والمخيفة، ومن ذلك ظاهرة أو حالة اليأس.

وإذا كان اليأس ليس أمراً جديداً في ابتلاء الإنسان به، بل عرفته البشريّة منذ القدم، إلاّ أنّ الجديد في المسألة هو انتشار حالة اليأس والاحباط وتحولّها إلى ظاهرة، كما أننا نلاحظ دخول عنصر جديد على العناصر المسببة لليأس، ألا وهو

(١) هذا المحور هو في الأصل عبارة عن محاضرة ألقيت في شهر رمضان المبارك العام في عام ١٤٣٤هـ في مسجد الإمام الرضا عليه السلام في منطقة بئر العبد ـ بيروت، وقد حافظت على نَصّ المحاضرة كما هو دون تغيير يذكر.

الخطاب الديني المنفّر، فإنّ هذا الخطاب لم يساهم في إبعاد الإنسان عن الدين فحسب، بل أسهم في تحويل الدين نفسه إلى عامل توتر وقلق. إنّ الدين الذي كان على الدوام يشكّل خشبة الخلاص للإنسانية غدا ـ مشكلة حقيقية!

ومن هنا يجدر بنا أن ندرس هذه الظاهرة ونتعرّف على أسبابها وآثارها السلبيّة على الفرد والمجتمع.

أولاً: اليأس وآثاره السلبية

اليأس في الحياة هو واحد من أخطر الأمراض التي تفتك بالإنسان فتشلّ إرادته وتنعكس على صحته الجسديّة والنفسيّة، وتؤثر على علاقاته مع الآخرين، سواءً في الدائرة الصغيرة، أعني دائرة الأسرة، أو في غيرها من الدوائر الاجتماعية.

وإننا نلاحظ أنّ الإنسان اليائس لسبب أو لآخر قد يدفعه يأسه إلى الانتحار، وربما يقتل زوجته وأولاده معه، لأنّه لا يريد لهم ـ بزعمه ـ أن يعيشوا القهر والمعاناة، وقد يدفع ـ اليأس ـ البعض الآخر من اليائسين إلى ارتكاب شتى الجرائم والاستخفاف بحياة الناس والاستهانة بحقوقهم.

كما أنّ اليأس قد يدفع بعض الناس إلى الكفر بالله تعالى والشكّ في عدالته أو حكمته أو قدرته!

هذه بعض سلبيات اليأس وآثاره المدمرة.

ثانياً: أسباب اليأس

وأسباب اليأس كثيرة:

١ ـ فالفقر هو أحد هذه الأسباب الرئيسة التي تدفع الفقير إلى حضن اليأس والإحباط، حيث ترى الفقير يركض وراء لقمة العيش وهي تركض أمامه، نتيجة الغلاء والاحتكار وسياسة الإفقار والاستغلال.

٢ ـ ومن الأسباب التي تدفع نحو اليأس: فشل التجربة، أو عدم وصول المرء إلى تحقيق مبتغاه ورغباته وآماله، فالمرأة التي لا يتيسر لها الزواج ـ مثلاً ـ أو تفشل في تجربة زوجيّة معينة، فإنّ ذلك قد يدفعها إلى اليأس دفعاً، فتعيش حياتها محبطة بائسة يائسة، وهكذا الكثيرون ممن يفشلون في الوصول إلى ما يطمحون إليه، فإنّ فشلهم ينعكس يأساً وإحباطاً عليهم.

٣ ـ والظلم أيضاً هو من جملة أسباب اليأس، وبالأخص في صورة عدم وجود نظام يحقق العدالة الاجتماعيّة، ويمكّن المظلومَ من أخذ حقه من الظالم، فإنّ ذلك قد يدفعه إلى أن يعيش حياته يائساً محبطاً، أو يدفعه ذلك إلى الانتقام والعدوانية..

٤ ـ وهكذا فإنّ ابتلاءات الحياة الأخرى، من فَقْدِ حبيب أو عزيز أو معيل، أو خسارة مال ثمين، أو تفكّك أسري.. قد تدفع بعض الناس إلى حضن اليأس.

ثالثاً: اليأس الفردي والاجتماعي

واليأس تارة يقف عند حدود الفرد فيشلّ إرادته ويُفْقِده توازنه، وأخرى يتعدى ذلك فيكون يأساً اجتماعياً، ولو وقف اليأس عند حدود الفرد ولم يَسْرِ إلى المجتمع فإنّ الخطب ـ رغم صعوبته ـ يبقى هيناً، فإنّ الفرد الذي تواجهه بعض المشاكل وتعترضه بعض المحن والفتن يقع أسير اليأس، وقد يستطيع المجتمع إذا كان بخير أن ينتشله من هذا الجو أو يخفّف من نتائج حالة اليأس عنده، وأما إذا بلغ المجتمع نفسه حدّ اليأس نتيجة انسداد آفاق التغيير على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي فستكون المصيبة أدهى وأمرّ، لأنّ مجتمعاً هذه حاله لن يتسنى له النهوض ولا الإبداع ولا التقدّم.

وغنيّ عن البيان أنّ المجتمع اليائس هو:

أولاً: موئل خصب لكلّ الأمراض، من الانتحار إلى التعدّي والقتل والسرقة، إلى التفكك الأسري والتفلت الأخلاقي.

ثانياً: هو مجتمع مهزوم ومتفكّك داخلياً، ولا يمكنه مواجهة التحديات الخارجية، الأمر الذي يفرض علينا ونحن نعدّ العدة لمواجهة العدوان الخارجي أن نعمل بادىء ذي بدء على تحصين المجتمع من الداخل وأن نبثّ فيه ثقافة الأمل والحياة.

رابعاً: الإيمان والأمل

في مواجهة هذه الحالة المَرَضِيّة (حالة اليأس) قد يحتاج الأمر ولا سيما في علاج حالة اليأس الفردي وآثاره السلبيّة إلى الرجوع إلى أهل الخبرة من المتخصصين النفسيين أو غيرهم، ولا شكّ أنّ التوجيهات التربويّة والدينيّة والاجتماعيّة تنفع كثيراً في هذا المجال وتستطيع أن تؤمّل الإنسان اليائس وتفتح أمامه أبواب الأمل، بما يعينه على مواصلة رحلة الحياة.

ولكنْ ثمّة علاج من نوع آخر لحالة اليأس على الصعيدين الفردي والاجتماعي يجدر بنا لفت النظر إليه، وربّما شكّل عامل وقايةٍ من اليأس وليس علاجاً فحسب، وهذا العلاج ينطلق من صلب العقيدة الإسلامية، وذلك من خلال الارتباط الفاعل بالله تعالى والتسليم المطلق له والإيمان بقضائه وقدره، فإنّ الإيمان بالله تعالى ليس مجرّد شعارات نرفعها ولا طقوس نؤديها، بل إنّ الإيمان الحقيقي يجعلك تعيش الاطمئنان والتسليم في مواجهة الخطوب، وتشعر أنّ الله تعالى دوماً إلى جانبك ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ٤٠]، وأنّه تعالى لا يتخلّى عنك أبداً ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر ٣٦]، وأنّ كلّ ما

يواجهك في الحياة فهو في عين الله تعالى، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ٥١].

إنّ الإيمان الحقيقي سيجعل المؤمن يستعذب الآلام والصعاب ويتغلّب عليها، ولا يسمح لها بأن تُسقط إرادته، ولذا نرى أنّ اليأس أكثر ما يستحكم في نفوس الذين لا يؤمنون بالله تعالى أو في نفوس ضعاف الإيمان، فالإنسان الملحد ـ مثلاً ـ وعلى عتبة أي مشكلة مصيرية تواجهه قد يشعر باليأس وتفقد حياته معناها، وتغدو حياة عبثيّة غير ذات قيمة بالنسبة إليه، ما يدفعه إلى الانتحار أحياناً، وأمّا المؤمن بالله تعالى وبحكمته تعالى وأنه لا يفعل عبثاً، فإنّ إيمانه سوف يحصّنه ويحميه من كلّ ذلك.

وهكذا فإنّ الإيمان باليوم الآخر، يوم العدالة، يوم الجزاء الأوفى، يوم السعادة والرضوان في جوار الله، هو الآخر عامل مساعد على بثّ روح الأمل في نفس الإنسان المؤمن، لأنّه حتى لو تعرّض في هذا العالم للظلم والقهر أو فاتته بعض الرغبات أو واجهته بعض الصعاب، فإنّ ذلك كلّه بعين الله تعالى ولا يضيع عنده شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف ٣٠]، ولسوف يعوّضنا يوم القيامة عن كلّ هذه الآلام، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص ٦٠].

ولا يقتصر الدور الإيجابي للإيمان على التأميل الأُخروي، فالإيمان يمنحنا أملاً في هذه الدنيا أيضاً وقبل يوم الحساب، وذلك من خلال الوعد الإلهي بتمكين العباد المؤمنين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور ٥٥]، وهذا هو ما تعنيه عقيدتنا بالمهدي المنتظر عجّل الله فرجه الشريف والمخلّص الموعود، فإنّ عقيدتنا هذه هي

عقيدة يفترض أن تبعث الأمل في النفوس وتحفّز الإنسان المستضعف على العمل والاستعداد، لا أن تدفعه إلى اليأس أو الاحباط، وقد تنبه بعض الباحثين العرب[1]، إلى الدور الذي أسهمت به عقيدة المهدوية في إبقاء التشيّع مذهباً حيّاً وفاعلاً رغم الصعاب التي واجهت أتباعه ورغم التهديد والوعيد والظلم الذي تعرضوا له على مرّ التاريخ.

وانطلاقاً من هذا الرابط التنافري بين الإيمان واليأس ومن أنّ العقيدة لها دور في مواجهة ثقافة اليأس فقد اعتبر القرآن الكريم أن اليأس هو علامة الكفر، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف ٨٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود ٩].

وهذا الربط القرآني بين اليأس والكفر مردّه إلى أنّ الإنسان اليائس هو إنسان لا يمتلك الثقة بالله تعالى ولا يحسن الظنّ به، بل ولا يعرف تعالى حق معرفته، وربّما دفعه يأسه إلى الاعتراض على الله تعالى والتشكيك بحكمته وقدرته.

خامساً: الإسلام دين الأمل

وإنّ التعاليم القرآنية ووصايا النبيّ الأكرم ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام قد أكّدت على أهمية أن يظلّ الإنسان متفائلاً بالخير متأملاً بالأفضل، فإذا مرض فلا يسقطه المرض، بل يأمل الشفاء، وإذا كان فقيراً فلا يحبطه الفقر بل يظلّ يأمل انفتاح أبواب الرزق وتغيّر الحال إلى الأحسن، وإذا واجهته بعض التحديات والأمور المخيفة فلا ينهار أمام أسباب الخوف، بل يحاول أن يتمسّك بحبل الله تعالى وبذكره، فيمنحه ذلك الأمن والأمان..

ويعطينا القرآن الكريم نموذجاً رائعاً عن الأمل الذي عاشه نبيّ الله

(١) أنظر: فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٧٤، وأسس التقدم عند مفكري الإسلام لفهمي جدعان ص ٣٨.

يعقوب عليه السلام، فإنّه ورغم طول غيبة يوسف عليه السلام عنه دون أن يعرف عنه شيئاً ظلّ متمسكاً بحبل الأمل، وقال لأولاده: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف ٨٧].

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما أرضعت والدةٌ ولدها ولا غرس غارس شجراً**»[1].

فالأمل هو الذي يعطي الحياة معناها، ويمنح الإنسان حوافز الاستمرار والبقاء، وقد أجاد الطغرائي في التعبير عن هذا المعنى في لاميّة العجم:

أُعـلّـل الـنـفـسَ بـالآمـالِ أرقـبُـهَـا
مـا أضـيـقَ العيشَ لـولا فسحةُ الأَمَـلِ

وفي الخبر أنّه بينما عيسى بن مريم جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير بها الأرض فقال عيسى: **اللهم انزع عنه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم أردْ إليه الأمل، فقام فجعل يعمل**»[2].

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّ علينا ومن منطلق إيماني ليس أن نعيش الأمل فحسب، بل وأن نعمل على بثّ ثقافة الأمل في النفوس، ولا سيّما في هذه المرحلة من تاريخ أمتنا حيث إنّ أسباب اليأس والإحباط كثيرة.

إنّ علينا أن نعيَ جيّداً أنّ هذا الدين كلّه رحمة وأمل وعدل، وأنّ انتماءنا إلى هذا الدين يحتّم علينا أن نكون دعاة ومبشّرين بثقافة الأمل.

ومن التعاليم الرائعة التي يوصينا بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ـ بحسب الرواية ـ أنّه إذا دخل الشخص على المريض عائداً فيجمل به أن يؤمّله بالحياة، لا أن يتحدّث

(١) بحار الأنوار ج١٤ ص٣٢٩.
(٢) تنبيه الخواطر ج١ ص٢٧٢.

معه بطريقة تشعره وكأنّه ميّت في هذا المرض ولا أمل له بالنجاة ولا فرصة له في الحياة، كما قد يفعل البعض عندما يقول للمريض: «لا تحزن فكلّنا على هذا الطريق أو كلّنا ميّتون»، وربّما يتأفف البعض أمام المريض وتبدو عليه الصدمة والتأثر ما يزيده هماً على هم، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخلتم على المريض فنفّسوا** (وسعوا) **له في الأجل، فإنّ ذلك لا يردّ شيئاً وهو يطيّب النفس**»[1].

سادساً: فَقْدُ الأمل بالدين!

ما تقدّم كان حديثاً عن حالة اليأس التي تواجه الإنسان في هذه الحياة، وهو يأس من الحياة نفسها، وهو ناشئ إمّا من إحساس الإنسان بالملل وعدم الجدوى من هذه الحياة، وإمّا من الفشل الذي يواجهه في حياته فيصاب بالإحباط ويشعر بعدم إمكانية التغيير، ولكن هناك أشكال أخرى من اليأس تصيب الإنسان وهي لا تقل خطورة عن اليأس المشار إليه، وفيما يلي أتحدّث عن نوعين آخرين من اليأس وهما:

أ ـ اليأس من الدين.

ب ـ اليأس من رحمة الله وعفوه.

أمّا اليأس من الدين فهو دون شكّ من أخطر أنواع اليأس التي يلزمنا العمل على مواجهتها بحكمة وعناية، حيث إننا نلاحظ أنّ بعض المسلمين قد أخذوا يفقدون الأمل ليس بالحياة بل بصدقيّة دينهم، وذلك نتيجة بعض التصرّفات المروّعة والأعمال الإجرامية التي يرتكبها البعض باسم الدين، فيذبحون الأبرياء باسم الله، ويَسْبُون النساء باسم رسول الله ﷺ! وهذا أمر خطير للغاية، لأنّ هذه الأعمال أصابت الدين نفسه بسهامها قبل أن تصيب الضحايا الأبرياء

(١) سنن الترمذي ج٣ ص٢٢٨، وكنز الفوائد للكراجكي ص١٧٨.

الذين يطالهم سيف التكفير، الأمر الذي يحتّم على الدعاة والمربّين والرساليين أن يستنفروا لمواجهة أسباب هذا اليأس، ويُظهروا بالحُجّة والبرهان الجانب المشرق والحقيقي لهذا الدين، ولا يجوز أن يتسرّب الشكّ إلى نفوسنا قيد أنملة في أنّ الإسلام يمتلك من الأصالة والانفتاح ما يجعله قادراً على التعايش مع العصر ومواكبته وتقديم الحلول الناجعة لمشكلاته.

ومع أهميّة لجوئنا واعتمادنا في مواجهة هذا النوع من اليأس على إظهار الوجه الحقيقي للإسلام والعمل على تعرية الفكر التكفيري التيئيسي لنثبت بالدليل والبرهان أنّه فكر دخيل على الإسلام، وأنّ هؤلاء المتشددين لا يحملون من الدين إلاّ اسمه[1]، مع أهمية ذلك وضرورته لكنّه قد لا يكون كافياً، وإنما يلزمنا بالإضافة إليه أن نقدّم صورة واقعية مشرقة، بحيث نُظهر الوجه الحقيقي للدين من خلال سلوكنا، ومن خلال تقديم نموذج عملي وواقعي عن إنسانية هذا الدين وأصالته.

سابعاً: الأمل بالله والرجاء برحمته

وأما اليأس من رحمة الله ومن مغفرته فهو ما يبتلي به بعض المذنبين الذين ارتكبوا الفواحش وانغمسوا بالمعاصي والكبائر، ونتيجة لذلك يتملكهم إحساس بأنّ الله تعالى لن يغفر لهم ذنوبهم وإن تابوا إليه واستغفروه وندموا على ما فعلوه، وهذا الإحساس قد يدفعهم إلى الإيغال في المعاصي أكثر فأكثر والاستهانة بكلّ الفواحش والكبائر، لأنّهم ـ بحسب ظنّهم ـ مطرودون من رحمة الله على كلّ حال، فما قيمة أن يضيفوا ذنباً جديداً إلى قائمة الذنوب التي ارتكبوها!

وهذا اليأس هو من أخطر أنواع اليأس على الإطلاق، لأنّه يأس يؤثّر على مصير الإنسان في الآخرة وليس في الدنيا فحسب، كما أنّه يأس يعبّر عن خطأ

(١) وهذا ما بحثناه بشكل تفصيلي وموسّع في كتاب: العقل التكفيري قراءة في المنهج الإقصائي.

عقائدي وفكري وليس خطأً سلوكياً فحسب، وذلك لأنّ اليائس من عفو الله ورحمته إنّما يسيء الظن بالله ولا يعرفه حق المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام ٩١]، فما حجم ذنوبنا في جنب رحمته؟!

ففي الحديث عن بعض الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فيما وعظ الله به تعالى عيسى بن مريم عليه السلام: «**يا عيسى تُبْ إليّ، فإنّي لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأنا أرحم الراحمين**»(١).

وعن الامام زين العابدين عليه السلام: «**ولَا يَسْتَعْظِمُ عَفْوَكَ إِنْ عَفَوْتَ عَنْه ورَحِمْتَه، لأَنَّكَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَتَعَاظَمُه غُفْرَانُ الذَّنْبِ الْعَظِيم**»(٢).

إنّ على الإنسان الذي يعيش اليأس من رحمة الله ومغفرته نتيجة ارتكابه لبعض الذنوب والمعاصي أن يعلم أنّه لا مبرر ليأسه هذا، لأنّ رحمة الله أوسع منا ومن ذنوبنا ولا يقف أمامها ذنبٌ ولا يتعاظمها معصية، فهو يغفر الذنوب جميعها مهما عظمت وتكاثرت؛ ولنتأمل ملياً في هذا المقطع الرائع من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في سَحَرِ شهر رمضان، وسوف نكتشف من هذا المقطع عظيم مغفرة الله تعالى وتفاهة ذنوبِنا في جنب عفوه وحقارة أعمالنا في جنب نعمه وكرمه، يقول عليه السلام:

«**يا حبيب من تحبب إليك! ويا قرّة عين من لاذ بك وانقطع إليك! أنت المحسن ونحن المسيئون، فتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك، وأيّ جهل يا ربّ لا يسعه جودك، أو أيّ زمان أطول من أناتك، وما قدر أعمالنا في جنب نعمك، وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك! بل كيف يضيق على المذنبين ما وسعهم من رحمتك! يا واسع المغفرة يا باسط اليدين بالرحمة، فوعزتك يا سيّدي لو نهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك لما انتهى إليّ من**

(١) الكافي ج ٨ ص ١٣٤.
(٢) الصحيفة السجادية من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في ذكر التوبة.

المعرفة بجودك وكرمك، وأنت الفاعل لما تشاء تعذب من تشاء بما تشاء كيف تشاء، وترحم من تشاء بما تشاء كيف تشاء»[١].

ونحن نلاحظ أنّ النصوص الإسلامية وفي مواجهة هذا النوع من اليأس قد تحرّكت في خطين:

أولاً: رفض اليأس من رحمة الله والقنوط من مغفرته رفضاً قاطعاً، وعدّته تلك النصوص في عداد كبائر الذنوب والمعاصي[٢]. والوجه في ذلك ما أشرنا إليه من أنّ هذا اليأس يمثّل خللاً عقدياً لدى الإنسان، كما ويدفعه إلى الانغماس بالمعاصي والاستهانة بالذنوب.

ثانياً: وحثّت تلك النصوص على حسن الظن بالله وأكدّت على أنّ المؤمن لا بدّ أن يعيش الرجاء المستمر، فعنْ أَبِي جَعْفَر (الباقر) عليه السلام قَالَ: «**وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ وهُوَ عَلَى مِنْبَرِه: والَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ مَا أُعْطِيَ مُؤْمِنٌ قَطُّ خَيْرَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ إِلَّا بِحُسْنِ ظَنِّه بِاللَّه ورَجَائِه لَه وحُسْنِ خُلُقِه والْكَفِّ عَنِ اغْتِيَابِ الْمُؤْمِنِينَ، والَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ لَا يُعَذِّبُ اللَّه مُؤْمِناً بَعْدَ التَّوْبَةِ والِاسْتِغْفَارِ إِلَّا بِسُوءِ ظَنِّه بِاللَّه وتَقْصِيرِه مِنْ رَجَائِه وسُوءِ خُلُقِه واغْتِيَابِه لِلْمُؤْمِنِينَ، والَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ لَا يَحْسُنُ ظَنُّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ بِاللَّه إِلَّا كَانَ اللَّه عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِه الْمُؤْمِنِ، لأَنَّ اللَّه كَرِيمٌ بِيَدِه الْخَيْرَاتُ يَسْتَحْيِي أَنْ يَكُونَ عَبْدُه الْمُؤْمِنُ قَدْ أَحْسَنَ بِه الظَّنَّ ثُمَّ يُخْلِفُ ظَنَّه ورَجَاءَه فَأَحْسِنُوا بِاللَّه الظَّنَّ وارْغَبُوا إِلَيْه»**[٣].

ولكن في الوقت عينه فإنّ على الإنسان أن لا يعيش الاسترخاء الكامل، فينصرف عن العمل الصالح ويعزف عن طاعة الله وينغمس في المعاصي، اعتماداً منه على رحمة الله وركوناً إلى عفوه، وهذه الحال هي ما تعبّر عنه

(١) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ٥٨٥.

(٢) أنظر: وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٣٢٢، الباب ٤٦، من أبواب جهاد النفس.

(٣) الكافي ج٢ ص٧٢.

الروايات بالأمن من مكر الله، وهو ـ كاليأس من روح الله ـ من كبائر الذنوب، فيفترض بالمؤمن أن يعيش بين الخوف والرجاء.

ثامناً: طول الأمل

وعندما نتحدث عن أهميّة الأمل على مستوى الفرد والجماعة، وعن دوره في استمرار الحياة، فإنّ علينا أن نستدرك لنقول: إنّ الأمل قد يخرج عن حدّه فيصبح مذموماً ومرفوضاً، ومن أجلى مصاديق الأمل المرفوض هو ما عبّرت عنه الأحاديث بـ «طول الأمل»، فطول الأمل مذموم، لما له من سلبيات:

أ ـ فهو يدفع الإنسان إلى التسويف، فإذا سألته لماذا لا تعمل أو لا تصوم أو لا تحج أو لا تعمل صالحاً؟ يجيبك قائلاً: الوقت أمامنا، وإذا سألته: لماذا لا تتزوج وتبني أسرة؟ يجيبك: لا زال أمامنا متسع طويل.. وهكذا تقلّ إنتاجية هذا الشخص، كما نبّه على ذلك الإمام عليّ عليه السلام في كلمته المروية عنه: «**من اتسع أملُه قَصُرَ عمله**»[1].

ب ـ وهو يدفعه أيضاً إلى نسيان الآخرة والاستغراق في الدنيا، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**»[2].

ج ـ ومن سلبيات طول الأمل أيضاً: قسوة القلب، ففي الكافي: «**فيما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى لا تطوّل في الدنيا أملك، فيقسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد**»[3].

وهكذا يتضح أنّ طول الأمل هو كاليأس في الآثار السلبية والنتائج غير المحمودة.

(١) الإرشاد ج١ ص٣٠٤.

(٢) نهج البلاغة ج١ ص٩٣.

(٣) الكافي ج١ ص٣٣٠.

الآمال الخادعة

إنّ على الإنسان أن يكون واقعياً في آماله وتوقعاته فلا يعيش أحلاماً خيالية بعيدة عن الواقع، وعليه في الوقت عينه أن يكون صادقاً مع نفسه فلا يخدعها ولا يغشها، والتسويف وطول الأمل قد يصل إلى حدّ خداع النفس وإلهائها عن واجباتها، كما قال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر ٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اتقوا باطل الأمل، فربَّ مستقبلِ يومٍ ليس بمستدبره، ومغبوط في أوّل ليله قامت عليه بواكيه في آخره**»[١].

وعنه عليه السلام: «**الأمل كالسراب يغرّ من رآه ويخلف من رجاه**»[٢].

وعنه عليه السلام: «**واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل وينسي الذكر، فأكذبوا الأمل فإنّه غرور وصاحبه مغرور**»[٣].

وفي الختام نقول: رغم العتمة والظلمة المنتشرة من حولنا لن نسمح لليأس أن يتسرّب إلى نفوسنا ليصيبنا بالإحباط، بل سوف يبقى الأمل رائدنا يملأ قلوبنا بحبّ الخير ويثير فينا الفكرة المبدعة والعاطفة الصادقة، ويحرّك خطانا نحو الأفضل، لنضيء شمعة هنا ونزرع وردة هناك ونواسي مظلوماً هنالك.

سنبقى نحلم بالعدل القادم وننتظره انتظار العاملين وليس انتظار الاتكاليين أو الكسالى، انتظار الفلّاح للشمس التي تُشرق على الزّرع الذي بذره بيمناه، وانتظاره للمطر الذي يروي الأغراس التي غرسها بساعده.

(١) عيون الحكم والمواعظ ص٩١.
(٢) م. ن، ص٥٧.
(٣) نهج البلاغة ج١ ص١٥١.

الملاحق

أولاً: حوار ابن أبي جمهور مع رجل من الصوفية

ثانياً: مناجاة المحبين

ثالثاً: نظرة في سند المناجاة الخمس عشرة

رابعاً: المودّة في القربى وأجر الرسالة

ملحق رقم (١)

حوار الشيخ ابن أبي جمهور الأحسائي مع رجل من الصوفية

يقول ابن أبي جمهور الإحسائي رَحِمَهُ اللهُ [١]: «قد ذكر لي ـ وأنا يومئذٍ مقيم بأرض نجد يقال لها الدرعيّة ـ أنّ في جبل لها رجلاً منقطعاً عن الناس معتزلاً بنفسه عن مخالطة أحد من بني نوعه، وأنّه في الأصل رجل من أهل اليمن ورد غريباً وانقطع إلى هذا الجبل. فجئت إلى موضعه وسلّمت عليه، فردّ السلام. فرأيت رجلاً نبيلاً حسن المنطق عليه أثر الصلاح، فحادثته في فنون العلم، فرأيت له ذوقاً جيّداً.

فقلت له: ما أحسن ما أنت فيه من هذا الانقطاع، إلاّ أنّي سمعت أنّك لا تصلي الصلاة الشرعيّة بالصورة الظاهرة التي جاء بها الشرع المحمّدي، أفلست على ملّته؟

فقال: بلى! ولكن ما أعمل بهذه الصورة الظاهرة؛ لأنّها حجاب للواصل مرتبة الحضور، المنقطع عن هذه الصور، المشاهد للحقائق التي لم تفارق باب الملك.

أولا تعلم أنّ الصلاة الظاهرة مشتقّة من الصلة وبها يتوصّل المحجوب بالصور إذا لاحظ القرب المعنويّ؟

قلت: بلى.

قال: فما احتياج الواصل إلى ما به يتوصّل؟ قد استغنى بالوصول عن الموصل. ما يعمل (الحاج) بالراحلة إذا وصل إلى مكّة وتمّ نسكه وقصد المجاورة؟ فإنّه حينئذٍ لغنيّ عنها.

---

(١) أنظر: مجلي مرآة المنجي ج ٣ ص ٩٣٩ ـ ٩٤٢.

فقلت: وأنت من أهل الوصول والاتّصال بحضرة ذي الجلال؟

قال: نعم.

فقلت: على تقدير تسليم وصولك فهل وصولك أتمّ من وصول نبيّك محمد ﷺ وهل اتّصالك أعلى من اتّصاله؟

فقال: حاشا وكلّا، بل الواصل الحقيقيّ هو لا غيره، وبه يتّصل الكلّ، وجميع الخاصّة وخاصّة الخاصّة عنه أخذوا مراتبهم ومقاماتهم في النشأتين.

فقلت: فكيف هو مع ذلك الوصول التام والاتّصال الكامل لم يترك هذه الصور الظاهرة ولا العبادات الشرعيّة، بل كان دائم المحافظة عليها شديد العناية بها؟

فقال: إنّه ﷺ وصل ورُدّ، وأنا وصلتُ وما رددتُ.

فعجبت من كلامه وفهمت منه ظاهره وخفي عليّ في بادئ الحال باطنه، فقلت: إذَن يلزمك أن تكون أفضل منه؛ إذ لا يشكّ كلّ عاقل أنّ غير المردود أفضل من المردود.

فضحك من تهافت فهمي عن إدراك ما أراد من معنى الردّ، فقال لي: وهذا منك ضمّ جهل إلى جهل.

فقلت له: أبِنْ لي عن مقصودك وأفهمني مرادك لأقوم لك بالعذر.

فقال: إنّه ردّ إلى تكميل الخلق وإيصالهم إلى بارئهم ومنشئهم على الطريق المرضّة؛ لما علم الله فيه من القوّة الملكيّة والنفس القدسيّة البالغة في حدّ الكمال إلى القدرة على التكميل والإرشاد وإهداء الخلق والجمع بين الجانبين، فلا يمنعها الاشتغال بتكميل الخلق إليه منه، ولا يمنعها الحضور بين يديه والاشتغال بخدمته عن هداية الخلق وتكميلهم؛ لما فيه من القوّة الجامعة للأمرين.

وأنا المسكين لمّا لم أكن في هذه المرتبة، بل ولا قريباً من بعض البعض منها لم أكن من أهل الردّ ولا من المستحقيّن له، بل شأني ومنتهى ما تقتضيه قوّتي

لزوم باب الملك والحضور بين يديه والتلقّي لنفحات وارادته؛ فأنا في مرتبة قولهم: «لو نطق العارف هلك». فهذا معنى قولي: إنّه وصل وردّ وأنا وصلت وما رددت، لا كما ذهب وهمُك الرديء وفهمك القاصر.

ثمّ قال: فإذا علمت أنّه ﷺ من المردودين لتكميل الخلق وإيصالهم إليه بطريق الشريعة والطريقة والحقيقة على مراتبهم، لم يحسن منه بل ولم يجُز له ترك الصور الظاهرة ولا رفض الأعمال البدنيّة؛ لأنّه المقتدى به والمتبوع أثره فصلاته وعباداته لا للتوصّل والتقرّب بها؛ لأنّه في الحقيقة واصل قريب. بل هو الأقرب الذي ليس وراء قربه قرب ولا بَعد وصوله وصول، بل لتقتدي به العامّة وتتوصّل بآثاره وأطواره الخاصّة. وأمّا أنا فلا حاجة لي إلى هذه الصور؛ لانقطاعي عنها بمشاهدة الحقائق.

فسحرني بكلامه وبهر عقلي بزخارف تقريراته، حتى غلب عليَّ الوهم بأنّه محقّ أو قريب من التحقيق.

ثم أيّدني الله بمنّه، فرجعت إلى نفسي وتُبتُ إلى عقلي وقلت له في الحال وبلا إمهال: ليس بالوصل ينقطع العمل ولا لأجله تُترك الأوامر الشرعيّة؛ فإنّ ذلك وهم شيطانيّ مهلك وخيال إبليسي مردّ، بل الوصول عند أهل الوصول ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل.

فسكت وانقطع عن الجواب وبقي ساعة متفكّراً، ثمّ قال: يا هذا! لقد أشغلتني عمّا أنا فيه، فلا تكثر عليّ الكلام ولا تعاودني بشيء من الخطاب، فقم عنّي عجلاً ودعني وشغلي، فما انقطعت في هذه المغارة إلّا خوفاً من أمثالك.

فخرجت وقد انقطعت حجّته وبان عجزه وعلمت أنّ الوهم المُردي هو الذي أهلكه. فعُلم بأنّ انقطاع حجج الإباحيّة إنّما يكون بملاحظة هذا السرّ، فلا تغفل عن تدبّره».

ملحق رقم (٢)

مناجاة المحبين

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إلهِي مَنْ ذا الَّذِي ذاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرامَ مِنْكَ بَدَلاً، وَمَنْ ذا الَّذِي أَنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغى عَنْكَ حِوَلاً، إلهِي فَاجْعَلْنا مِمَّنِ اصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبِكَ وَوِلايَتِكَ وَأَخْلَصْتَهُ لِوِدِّكَ وَمَحَبَّتِكَ وَشَوَّقْتَهُ إلى لِقائِكَ وَرَضَّيْتَهُ بِقَضائِكَ وَمَنَحْتَهُ بِالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ وَحَبَوْتَهُ بِرِضاكَ، وَأَعَذْتَهُ مِنْ هَجْرِكَ وَقِلاكَ وَبَوَّأْتَهُ مَقْعَدَ الصِّدْقِ فِي جِوارِكَ وَخَصَصْتَهُ بِمَعْرِفَتِكَ وَأَهَّلْتَهُ لِعِبادَتِكَ، وَهَيَّمْتَ قَلْبَهُ لإرادَتِكَ وَاجْتَبَيْتَهُ لِمُشاهَدَتِكَ وَاخْلَيْتَ وَجْهَهُ لَكَ وَفَرَّغْتَ فُؤادَهُ لِحُبِّكَ وَرَغَّبْتَهُ فِيما عِنْدَكَ وَأَلْهَمْتَهُ ذِكْرَكَ وَأَوْزَعْتَهُ شُكْرَكَ وَشَغَلْتَهُ بِطاعَتِكَ، وَصَيَّرْتَهُ مِنْ صالِحِي بَرِيَّتِكَ وَاخْتَرْتَهُ لِمُناجاتِكَ وَقَطَعْتَ عَنْهُ كُلَّ شَيء يَقْطَعُهُ عَنْكَ.

اللّهُمَّ اجْعَلْنا مِمَّنْ دَأْبُهُمُ الارْتِياحُ إلَيْكَ وَالحَنِينُ وَدَهْرُهُمُ الزَّفْرَةُ وَالأَنِينُ جِباهُهُمْ ساجِدَةٌ لِعَظَمَتِكَ وَعُيُونُهُمْ ساهِرَةٌ فِي خِدْمَتِكَ وَدُمُوعُهُمْ سائِلَةٌ مِنْ خَشْيَتِكَ وَقُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحَبَّتِكَ وَأَفْئِدَتُهُمْ مُنْخَلِعَةٌ مِنْ مَهابَتِكَ، يا مَنْ أَنْوارُ قُدْسِهِ لأَبْصارِ مُحِبِّيهِ رائِقَةٌ وَسُبُحاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عارِفِيهِ شائِقَةٌ يا مُنى قُلُوبِ المُشْتاقِينَ وَياغايَةَ آمالِ المُحِبِّينَ؛ أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إلى قُرْبِكَ، وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا سِواكَ وَأَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إيّاكَ

قائداً إلى رِضْوانِكَ وَشَوْقِي إلَيْكَ ذائِداً عَنْ عِصْيانِكَ، وَامْنُنْ بِالنَّظَرِ إلَيْكَ عَلَيَّ وَانْظُرْ بِعَيْنِ الوُدِّ وَالعَطْفِ إليَّ وَلاتَصْرِفْ عَنِّي وَجْهَكَ وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ الإسْعادِ وَالحُظْوَةِ عِنْدَكَ يا مُجِيبُ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ [1].



(١) بحار الأنوار ج ٩١ ص ١٤٨.

ملحق رقم (٣)
نظرة في سند المناجاة الخمس عشرة

هناك خمس عشْرةَ مناجاة تنسب إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وهي مشهورة ومتداولة بين عامّة المؤمنين حيث يدعون بها في تعقيبات صلواتهم في المساجد وغيرها.

ومع أنّ هذه المناجاة تتميّز بأسلوبها البياني الرائع وتتضمن معانٍ عرفانية وتربوية عالية المضمون، لكن مع ذلك فقد شكّك البعض فيها، على اعتبار أنّها تتضمن تعبيرات وألفاظاً لم تعهد في أدعية الأئمة عليهم السلام وكلماتهم، ويحتمل أن تكون من إنشاء بعض الصوفية ونُسبت إلى الإمام زين العابدين عليه السلام لما تميّز به وأثر عنه في مجال الدعاء ممّا لم يُؤثر عن أحد من سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الأمر الذي يفرض علينا ـ ونحن قد استشهدنا في كتابنا هذا وفي غيره من الكتب ببعض فقراتها ـ أن ـ نبديَ رأياً فيها ونتوثّق من مدى اعتبارها، وإمكانيّة الاعتماد عليها في بناء التصورات العقديّة والمفاهيم الدينيّة والأخلاقيّة والتربويّة أو إمكانية الاستشهاد ببعض فقراتها في الأحكام الشرعيّة.

وفيما يلي نلقي نظرة سريعة وعابرة على هذه المناجاة وما قيل فيها، وكيف وصلت إلينا؟ وإلى أي حدٍّ يمكن الاعتماد عليها؟

١ ـ عناوين المناجاة

يقول العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ): «المناجاة الخمس عشْرة لمولانا عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما وقد وجدتها مرويّة عنه عليه السلام في بعض كتب الأصحاب رضوان الله عليهم»[١].

وإليك عناوين هذه المناجاة الخمس عشْرة كما أوردها العلامة المجلسي:

١ ـ مناجاة التائبين

٢ ـ مناجاة الشاكين

٣ ـ مناجاة الخائفين

٤ ـ مناجاة الراجين

٥ ـ مناجاة الراغبين

٦ ـ مناجاة الشاكرين

٧ ـ مناجاة المطيعين للّه

٨ ـ مناجاة المريدين

٩ ـ مناجاة المحبين

١٠ ـ مناجاة المتوسلين

١١ ـ مناجاة المفتقرين

١٢ ـ مناجاة العارفين

١٣ ـ مناجاة الذاكرين

١٤ ـ مناجاة المعتصمين

١٥ ـ مناجاة الزاهدين

(١) (بحار الأنوار ج ٩١ ص ١٤٢)

٢ ـ ليست من الصحيفة

وبادىء ذي بدء يجدر بنا التنبيه إلى أنّ المناجاة المذكورة ليست جزءاً من الصحيفة السجادية جزماً، مع أنّ بعض أصحاب دور النشر قد أدرجوها في العديد من طبعات الصحيفة في آخرها دون إشارة إلى أنّها ملحقة بها وليست من أصلها، وربّما أوجب ذلك وهماً للبعض فتخيّل[١] أنّها من الصحيفة السجاديّة التي تمتلك ـ كما هو معروف ـ سنداً صحيحاً، وهذا الأمر له نظائر كثيرة في مجال الأدعية والزيارات الذي هو مع الأسف الشديد شرعة لكل وارد! وقد ترتّب على ذلك الكثير من المفاسد، وأعتقد أنّ هذا العبث في كتب الأدعية والزيارات ناشيء عن عدم عناية العلماء[٢] بهذه الكتب كما ينبغي ويلزم، وترك أمرها لأصحاب المطابع والمطامع، وربّما كان ذلك من تأثيرات وانعكاسات قاعدة التسامح في أدلة السنن، ولا سيّما عندما يتصل الأمر بباب الأدعيّة والزيارات.

٣ ـ متى انتشرت؟

يبدو أنّ هذه المناجاة قد ظهرت بقوة في القرن الحادي عشر الهجري وعلى يد العلامتين المجلسيين (محمد باقر ومحمد تقي) وأمّا قبل ذلك فلا نعثر عليها في كتب الأدعية للعلماء المتقدمين ولا يتمّ الاستشهاد بها ولا بفقراتها، حتى أنّ السيّد ابن طاووس لا يذكرها في كتبه المعدّة للأدعية على كثرتها ومع أنّه متخصص في هذا المجال وكان يمتلك مكتبة غنيّة ومنقطعة النظير، أجل إنّ عبارة العلامة محمد تقي المجلسي (ت: ١٠٧٠هـ) تشير إلى انتشارها وتداولها

(١) أنظر: نظرات في الإعداد الروحي للشيخ حسين معن ص ١٥٠، فقد تمسك ببعض فقرات المناجاة معتقداً أنّها من الصحيفة.

(٢) كما نبّه على ذلك العلامة النوري رحمه الله الذي ندّد بصمت العلماء إزاء التلاعب والعبث بنصوص الأدعية والزيارات ممّا يُعدُّ جرأة عظيمة على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، راجع حول ذلك ما ذكرناه في كتابنا: «في بناء المقامات الدينية، المشروعية، الأهداف، الضوابط» الصادر عن المركز الإسلامي الثقافي ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام، بيروت حارة حريك، ص٦١، وراجع كلام المحدّث النوري المشار إليه في كتابه: اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر ص١٣٤ ـ ١٤٠.

في زمانه، حيث يقول رحمه الله: «وروي عن سيد الساجدين عليه السلام خمس عشرة مناجاة ينبغي للسالك أن يداوم عليها وهي مشهورة بين الناس حتى أنه قلّما يكون له معرفة بالخط لا يوجد عنده، ومجموع ذلك بمحض تأييد الله وتأييد سيد المرسلين والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين»[١].

ثمّ إنه وبعد أن أدرج العلامة المجلسي هذه المناجاة في «بحار الأنوار» وهو المصدر الوحيد الذي وصلتنا من خلاله فقد أصبح لها نوع من الحضور ونصيب من التداول والرواج، فاستدل ببعض فقراتها السيد علي خان المدني شارح الصحيفة (ت: ١١٢٠هـ)[٢]، وهكذا استدل ببعض فقراتها في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة[٣]، وشرحها الفقيه الملا حبيب الله الكاشاني[٤] ونظمها بعض الشعراء باللغة الفارسية[٥]، بل نجد الاستشهاد ببعض فقراتها حاضراً في كتب الفقه[٦]. هذا فضلاً عن إدراجها في بعض كتب الأدعية كمفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي وغيره.

٤ ـ آراء العلماء فيها

يبدو من بعض العلماء أنهم يولون هذه المناجاة أهميّة خاصة، فالعلامة محمد تقي المجلسي كان له اعتقاد كبير بها كما يظهر من كلامه المتقدم، حيث ذكر أنّه « ينبغي للسالك أن يداوم عليها».

وممن اهتم لأمر هذه المناجاة اهتماماً بالغاً الفقيه الكبير السيد علي الطباطبائي صاحب كتاب «رياض المسائل» حيث نقل عنه: «أنّه كان يقول مراراً: إنّي أداوم على تلك المناجاة منذ سنين عديدة، فتح الله بها على قلبي من أنوار الحكمة

(١) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ـ ج١٧ ص ١٥٩.
(٢) أنظر رياض السالكين في شرح صحيفة سيد العابدين ج ٢ ص ٤٤٩.
(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ج ١٤ ص ١٩٩
(٤) أنظر: مقدمة كتابه ذريعة الاستغناء في تحقيق مسألة الغناء ص ١٢
(٥) أنظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج١١ ص ٣٣٦
(٦) أنظر: مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى للشيخ محمد تقي الآملي ج ٥ ص ٣١٨.

والمعرفة والمحبة ما لا يحصى وجرّبتها في استجابة الدعاء، وكان يرغب السلاك والعبّاد إلى مداومتها »[١].

وينصح العلامة حبيب الله الخوئي أيضاً بالمداومة عليها، يقول: «فعليك بتلك المناجاة الخمس عشرة سيما مناجاة العارفين ومناجاة المحبّين منها فإنّها جلاء للقلوب»[٢].

في المقابل فإنّ بعض العلماء لا يرون لها أهمية استثنائية، بل ربّما توقف بعضم في أمرها كما سنرى، ولا يظهر من عبارة المجلسي المتقدمة نقلاً عن كتاب «البحار» أنّه يرى صحّتها، ومجرد روايته لها في كتاب «بحار الأنوار» لا يدل على اعتقاده بصحتها، لأنّ هدفه في كتابه المذكور كان حفظ التراث من الضياع وليس بالضرورة أن يكون معتقداً بصحة كل ما فيه.

٥ ـ الاعتراضات على المناجاة

يمكن تلخيص الاعتراضات على المناجاة المذكورة بما يلي:

الأول: إشكال المصدر، وهو العمدة في المقام، فالمناجاة ليست مشكلتها في إرسالها سنداً فحسب، لِيُغضّ الطرف عن ذلك ويُتساهل فيه، كما يُتساهل في الكثير من الأدعية التي لم تصلنا بطريق مسندة، وإنّما مشكلتها الأبرز على هذا الصعيد هي في افتقارها لمصدر يعتدّ به، فهي لم ترد في المصادر الحديثية المعروفة ولا في المجاميع المعدّة للأدعية والزيارات، كمصباحي الشيخ والكفعمي، أو غيرهما، وإنما نقلها لنا العلامة المجلسي من بعض «كتب الأصحاب»، ولم يحدد من هو هذا الشخص؟ لنعرف إن كان يمكن الوثوق بنقولاته ورواياته؟ وما هو عصره أهو من المتأخرين أم من المتقدمين؟ ثم أياً

(١) حكى ذلك صاحب الذريعة عن بعض تلاميذ صاحب «الرياض»، أنظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٢٢ ص ٢٣٩

(٢) أنظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ج ١٩ ص ٢٨٤، ويولي الشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر هذه المناجات أهمية خاصة لدرجة أنه يعتبرها «نصاً مقدساً»، أنظر: ما وراء الفقه ج ١٠ ص ١٦٦.

كان ذاك الشخص فما هو مصدره أو مستنده؟ كلّ هذه الأسئلة لا نجد لها جواباً.

الثاني: خلوها من الصلاة على النبيّ وآله، يقول بعض العلماء متحدثاً عن أهميّة الصلاة على النبيّ وآله: «ولذا جعل الإمام عليه السلام (يقصد الإمام زين العابدين) الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مطلعاً ومُفتتحاً لكلّ فقرات أدعيته في صحيفته السجاديّة، ولهذا توقف العلماء في نسبة المناجاة الخمس عشرة إليه «عليه السلام» لأنّه ليس فيها الصلاة على النبيّ وآله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

ويلاحظ عليه: بأنّ الصلاة على محمّد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليست موجودة في كل الأدعيّة المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام بما في ذلك بعض أدعية الصحيفة السجاديّة المشهورة كما لا يخفى على من يلاحظها[2]، ولذا فخلوّ المناجاة المذكورة من الصلاة على النبيّ وآله صلى الله عليه وآله وسلم لا يعدّ وحده سبباً كافياً للتشكيك في اعتبارها فضلاً عن ردّها، ولا سيّما أنّ من المحتمل أن تكون الصلاة واردة فيها وقد حذفت لسبب من الأسباب، فلربّما تخيّل بعضهم أنّها ليست جزءاً من الدعاء وأنّها إنّما تذكر في بداية الأدعية تبركاً فحذفها اختصاراً.

الثالث: اشتمالها على تعبيرات ومصطلحات لم تعهد في أدعية الأئمة عليهم السلام ومناجاتهم وكلماتهم، قال بعضهم: «ويحتمل أن تكون هذه المناجاة بالأصل له عليه السلام فأخذها بعض الصوفية ووصلتنا من طريقهم، وحذفوا منها الصلاة على النبي وآله صلى الله عليه وآله وسلم، وأضافوا إليها فقرات من تعابيرهم التي لم تعهد في أدعية الإمام عليه السلام ولا في أدعية أهل البيت عليهم السلام»[3].

وهذه الملاحظة قد تكون صحيحة، في خصوص بعض هذه المناجاة التي يلاحظ أنّها استخدمت تعابير ومصطلحات غير مألوفة في أدعية الأئمة عليهم السلام

(١) جواهر التاريخ ج٤ ص ٢٥٠.

(٢) أدعية الصحيفة السجادية الخالية من ذكر الصلاة على محمد وآله هي: من دعائه لولده، دعائه في ردّ كيد الأعداء، من دعائه في الرهبة، من دعائه في التضرّع والاستكانة، من دعائه في التذلل لله عزّ وجلّ.

(٣) جواهر التاريخ، مصدر سابق.

ورواياتهم، وإنّ إجراء مقارنة بين تعبيرات المناجاة المذكورة وتعبيرات الصحيفة السجاديّة الثابتة النسبة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام قد تعزز الشك في ذلك وتثير الريبة، لجهة أنّ لحن الخطاب فيها لا يشبه كثيراً لحن خطاب الأئمة عليهم السلام، فهو أقرب في بعض الفقرات إلى نفس الصوفية وتعبيراتهم.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما جاء في الملاحظة الأخيرة يشكّل ـ بصرف النظر عن تطبيقه على هذه المناجاة ـ معياراً في محاكمة النصوص سواء كانت نصوص زيارات أو أدعية أو خطب أو غيرها، وهو معيار مهمّ، ولكنه حسّاس ودقيق، وقد يخضع للاستنسابية والذاتية ويتأثر بالتصوّرات القبليّة التي يحملها الباحث مع أنّها قد لا تكون تصورات تمتلك أصالة ودقة، الأمر الذي يحتمّ أن يوضع لهذا المعيار ضوابط تحول دون الوقوع في فخ الذاتية. وقد بحثت عن هذا المعيار بشكل تفصيلي في كتاب «أصول الاجتهاد الكلامي»، وأسميته معيار البصمة البيانية، فليراجع.

وأما ما نقل عن «صاحب الرياض» من أنّه كان يداوم على قراءتها، وأنّ الله ببركتها قد منّ عليه وفتح على قلبه من أنوار الحكمة والمعرفة والمحبة ما لا يحصى، وأنّه جرّبها في استجابة الدعاء، وكان يرغّب العبّاد بها، فهذا كلّه لا يثبت صحّتها، ولعلّ الله قد فتح على قلبه واستجاب له، لأنّه كان مخلصاً في توجهه إلى الله ودعاه بقلب سليم ولسان صادق، ومن الممكن بل المؤكد أنّ الله تعالى يستجيب لكلّ من أخلص في دعائه أياً كانت صيغة الدعاء.

٦ ـ الموقف من قراءتها والاستشهاد بها

بناءً على ما تقدّم من ملاحظات، ولا سيّما ما جاء في الملاحظة الأولى من أنّ المناجاة المذكورة تفتقر ليس إلى السند فحسب، بل وإلى المصدر الذي يعتدّ به، فلا يتسنى لنا الاعتماد عليها في قضايا الاعتقاد أو في بناء التصورات الإسلامية التربوية والعباديّة، وهكذا لا يصح الاستدلال بها في مجال استنباط

الأحكام الشرعيّة، لأنّ بناء المعرفة الإسلاميّة بكلّ أبعادها يحتاج إلى مصادر معتبرة وموثوقة، نعم هي قد تصلح للتأييد فقط كما فعلنا في هذا الكتاب، وليس للاعتماد عليها كدليل تام في إثبات فكرة أو رفض أخرى، والوجه في صلاحيتها للتأييد هو أنّ احتمال الصدور فيها قائم ولا يقطع بكذبها ووضعها.

وأمّا قراءة تلك المناجاة، فالظاهر أنّه لا محذور فيها من حيث المبدأ ما دام القارىء لا يتلوها بعنوان الورود أو الاستحباب الشرعي لقراءتها بالخصوص، فهي ـ مع مراعاة الشرط المذكور ـ نوع دعاء على كلّ حال أياً كان مُنْشؤها، ومعلوم أنّ نصوص الأدعية ليست تعبدية أو توقيفية، فيجوز للمسلم أن يتلو هذه المناجاة التي تعلّم الداعي أنّ يتوجه إلى الله ويناجيه بإخلاص، وليس فيها ما ينافي صفاء التوحيد ولا تشتمل على مضامين منافية للقيم أو المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

٧ ـ تتمة دعاء عرفة

وما ذكرناه في شأن المناجاة الخمس عشرة يجري بعينه في بعض الأدعية الأخرى، من قبيل التتمة الملحقة بدعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة والتي تبدأ بقول الداعي: «إلهي أنا الفقير في غنائي فكيف لا أكون فقيراً في فقري..» وإلى آخر الدعاء المذكور، فهذه التتمة لم يذكرها العلماء الذين نقلوا الدعاء المذكور كالكفعمي في «البلد الأمين»: ولا المجلسي في «زاد المعاد»، وإنّما وردت في «الإقبال» للسيد ابن طاووس، بل ينقل العلامة المجلسي أنّ بعض النسخ العتيقة من كتاب «الإقبال» خالية منها[1]، ويضيف رحمه الله قائلاً: «إنّ عبارات هذه الورقة(يقصد الورقة المشتملة على تلك الزيادة) لا تلائم سائر أدعية السادة المعصومين عليهم السلام أيضاً، وإنّما هي على وفق مذاق الصوفيّة، ولذلك مال بعض الأفاضل إلى كون هذه الورقة من مزيدات بعض مشايخ الصوفيّة ومن إلحاقاته وإدخالاته».

(١) واللافت أنّه في الطبعة الأخيرة من كتاب «إقبال الأعمال» لم تذكر هذه الزيادة، لاحظ إقبال الأعمال ج٢ ص٨٦.

ثمّ يختم العلامة المجلسي كلامه قائلاً: «وبالجملة هذه الزيارة إمّا وقعت من بعضهم أولاً في بعض الكتب، وأخذ ابن طاووس عنه في «الإقبال» غفلة عن حقيقة الحال، أو وقعت ثانياً من بعضهم في نفس كتاب الإقبال، ولعلّ الثاني أظهر على ما أومأنا إليه من عدم وجدانها في بعض النسخ العتيقة من «الإقبال» وفي «مصباح الزائر» »[1]، (والكتابان للسيد ابن طاووس).

إنّ اشتمال الفقرة المذكورة على تعبيرات من قبيل «واسلك بي مسالك أهل الجذب» ونظائرها هي ما يقصدها هؤلاء الأعلام بقولهم: إنها تلائم مذاق الصوفية.

ولكن الحكم في قراءتها هو الحكم نفسه في قراءة المناجاة الخمس عشرة، وهكذا حكم الاستشهاد بها.



(١) أنظر: بحار الأنوار ج٩٥ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

ملحق رقم (٤)

المودّة في القربى وأجر الرسالة

ويهمني في هذا الملحق أن أتطرق إلى نقطتين جوهريتين تتصلان بآية المودّة، أعني بذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى ٢٣]، وذلك استكمالاً للحديث عن معطيات هذه الآية ودلالالتها ممّا تقدمت الإشارة إليه في المحور الثالث من محاور الكتاب.

النقطة الأولى: ما المراد بالقربى في الآية المباركة؟ وما الدليل على أنّ المقصود بهم خصوص أهل البيت عليهم السلام؟

النقطة الثانية: كيف نفهم أن يطلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجراً على تبليغ الرسالة؟ وما هو هذا الأجر؟

من هم القربى؟

النقطة الأولى: ما المراد بالقربى في الآية المباركة؟

ذكر المفسّرون في ذلك عدّة آراء يمكن إجمالها في اتجاهين أساسيين:

الاتجاه الأول: أنّ المقصود بالقربى، أو بالأحرى مَنْ ترادُ مودته هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمُطالَب بذلك هم قريش، فالآية تطلب منهم أن يُودّوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويُحبّوه بسبب قرابته منهم، فـالحرف «في» الوارد في الآية هو بمعنى «بسبب»، قال الطبرسي في بيان هذا الاحتمال: «إنّ معناه إلاّ أن تودّوني في قرابتي منكم، وتحفظوني لها، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة. قالوا: وكلّ قريش كانت بينها وبين

رسول الله ﷺ قرابة، وهذا لقريش خاصة، والمعنى: إن لم تودّوني لأجل النبوّة، فودّوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم»[1].

ولكنّ هذا الوجه ضعيف، وذلك لاعتبارين:

أولاً: إنّ هذا الوجه لا يقدّم تفسيراً مقنعاً للتعبير بـ«الأجر»، فإنّ الأجر لا يطلب إلاّ ممن وصله نفع معين، فما هو النفع الذي وصل إلى قريش ليطلب منهم الأجر؟ إذ المفروض أنّ قريشاً لم تؤمن بعد ليصلهم نفع الرسالة، فلا وجه لأن يطلب النبي ﷺ منهم أجراً على تبليغ الرسالة.

ثانياً: إنّه ليس ثمة معنىً مفهومٌ للطلب من قريش بأنّكم ما دمتم لم تؤمنوا بالنبيّ ﷺ فاحملوا له الودّ بسبب قرابته منكم، فما الفائدة من مودّتهم للنبيّ ﷺ مع عدم الإيمان به ولا اتباعه، بل ومعاداته ومحاربة دعوته، إنّ المودة التي لا تترافق مع شيء من ذلك لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تشكّل فضيلة في حدّ ذاتها ليطلبها الله منهم، بل إنّها في الحقيقة ليست مودّة، فأي مودّة هذه للشخص وأنت تحارب دعوته؟!

الاتجاه الثاني: أنّ المقصود بالقربى أو من تراد مودتهم هم الأقرباء، فـ«القربى» في الآية بمعنى الأقارب.

لكن أي أقارب هم؟

في الجواب على ذلك يوجد عدة آراء:

الرأي الأول: أَنّ المراد بهم أقرباء الإنسان بشكل عام، فالمسلم مدعوّ ومأمور بأن يودّ أقرباءَه وأرحامه.

الرأي الثاني: أَنّ المراد بالقربى في الآية هم أقارب النبيّ ﷺ عامّة[2].

(١) مجمع البيان ج ٩ ص ٤٨، وقد ذكر هذا الاتجاه في العديد من كتب التفسير، أنظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٧ ص ١٤٦.

(٢) روي عن ابن عباس، أنظر التفسير الكبير ج ٢٧ ص ١٦٤.

الرأي الثالث: أَن المقصود بهم خصوص أهل بيت النبيّ ﷺ وتحديداً أصحاب الكساء منهم عليهم السلام.

وفي تقييمنا لهذه الآراء نقول:

أمّا الرأي الأول منها (الأولى عدّه وجهاً وليس رأياً لأنّي لم أجد من تبناه) فهو لا ينسجم مع ظاهر الآية نفسها، لأنّ الآية جعلت مودّة القربى أجراً للرسالة، والذين يُتَصوَّر أن تشكّل مودتهم أجراً على تبليغ الرسالة هم جماعة يكون لهم دور مهمّ في هذه الرسالة وقيادة مشروعها، وليسوا مجرّد أشخاص عاديين، قد تكون مودّتهم جزءاً من أحكام الرسالة وليست أجراً عليها.

هذا بصرف النظر عن أنّ هذا التفسير مخالف للروايات الآتية التي تعيّن القربى بجماعة خاصة وهم أهل بيت النبيّ ﷺ.

وأمّا الرأي الثاني فهو مستبعد جداً، والأقرب إلى المنطق والمتعيّن بحسب السياق والنصوص هو الرأي الثالث، ويمكن الاستشهاد لما نقوله من ترجيح القول الثالث واستبعاد القول الثاني بشاهدين:

الشاهد الأول: هو الروايات التفسيرية والشواهد التاريخية المروية من طرق الفريقين (السنة والشيعة)، فعن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: عليّ وفاطمة وابناهما»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؟ قال: «هم الأئمة عليهم السلام»[2].

(١) أنظر: المعجم الكبير للطبراني ج ٣ ص ٤٧، وعنه مجمع الزوائد للهيثمي ج ٧ ص ١٠٣، وشواهد التنزيل لقواعد التفضيل للحاكم الحسكاني ج٢ ص ١٩٠.
(٢) الكافي ج ١ ص ٤١٣، وج ٨ ص ٩٣.

إلى غير ذلك من الأخبار.[1]

الشاهد الثاني: هو القرائن السياقية وغيرها، ويمكننا الإشارة إلى قرينتين:

القرينة الأولى: إنّ في قرابته ﷺ المؤمن والفاسق، والعادل والظالم، والبرّ والفاجر، فكيف يُطْلَبُ من الأمّة مودّة القربى جميعاً دون استثناء؟! أيعقل أن يطلب الله تعالى ﷺ مودّة من كانوا أعداء الرسالة، كما هو الحال في عمّ النبيّ ﷺ أبي لهب؟! إنّ هذا غير معقول، لأنّه يتنافى مع ما اشتملت عليه تعاليم النبيّ ﷺ من تحطيمٍ للاعتبارات العشائرية، ورفض أيّ اعتبار لها في ميزان القيم والرسالة.

القرينة الثانية: إنّ مودّة هؤلاء القربى قد جعلت أجراً على تبليغ الرسالة والصدع بها، مع ما استلزمه تبليغها من معاناة وبذل للجهود وصبر على الأذى، والأشخاص الذين يعقل أن تجعل مودتهم أجراً على تبليغ الرسالة الإسلامية لا يمكن أن يكونوا أشخاصاً عاديين من أقرباء النبيّ ﷺ وعشيرته، بل يفترض أن يكون لهم منزلة عظيمة لدى مرسل هذه الرسالة، وأن يكون لهم دور كبير في استمرارها وبقائها حيّة في القلوب والنفوس، وليس في أهل بيته ﷺ من يتحلّى بهذه المكانة إلاّ من عرفوا بأصحاب الكساء، وهم عليّ والحسنان وأمهما فاطمة الزهراء عليهم السلام، فهؤلاء هم الذين شهدت لهم الأمة بالفضل والتميّز العلمي والأخلاقي، كما أنّ سيرتهم حافلة بالعطاء.

كيف يطلب النبيّ ﷺ أجراً على الرسالة؟!

النقطة الثانية: إنّه وبموجب ما تقدّم فإنّ هذه الآية نصّت على أنّ النبيّ ﷺ قد طلب أجراً على تبليغ الرسالة، والأجر هو مودّة أهل بيته عليهم السلام، وطلب الأجر

(١) منها ما رواه الشيخ المفيد في حديث أنّ أعرابياً قال: «يا محمّد تأخذ على هذا أجراً؟ فقال: **لا إلا المودّة في القربى**، قال: قرباي أو قرباك؟ قال: **بل قرباي**، قال: هلم يدك حتى أبايعك، لا خير فيمن لا يودّك، ولا يودّ قرباك»، أنظر: الأمالي للمفيد ص ١٥٢.

لا يليق بالنبيّ ﷺ وهو المعروف بأنّه قدّم ما قدّم في سبيل الله ﷺ ولم يُرِدْ من الناس جزاءً ولا شكوراً؟!

ثمّ أيكون الأنبياء السابقون عليهم السلام أفضل حالاً من الحبيب المصطفى محمّد ﷺ؟! فهذا نبيّ الله هود عليه السلام يخاطب قومه قائلاً: ﴿ يَـٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [هود ٥١].

ومن جهة ثالثة ألا تنافي الآية المذكورة ما جاء في آيات أخرى من نفي الأجر على تبليغ الرسالة والصدع بها، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام ٩٠]، فكيف نجمع بينهما؟

ولكنّ الصحيح عدم المنافاة بين الآيات، وعدم ورود تلك الإشكالات وتوضيح ذلك:

أنّ الأجر الذي أُمر النبيّ ﷺ بطلبه من الأمة في آية: ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾، هو في واقع الأمر ليس أجراً حقيقياً ولا شخصياً عائداً على النبيّ ﷺ، ليتنافى ذلك مع سائر الآيات التي نصّت على أنّه ﷺ لا يطلب أجراً.

وقد تسأل: لماذا لم يكن الأجر المذكور في آية: ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾، أجراً حقيقياً عائداً عليه، مع أنّ هذا معنى الأجر عند أهل اللغة والعرف؟

والجواب: إنّ الأجر هو شيء يدفعه الإنسان من حسابه مقابل شيء آخر يحصل عليه ويربحه، ومن الواضح أنّ مودّة القربى والتي هي الأجر المطلوب من الناس تجاه نبيهم ﷺ لا تمثّل غرماً ولا خسارة عليهم، وإنّما هي في حقيقة الأمر شيء يعود نفعه وبركته عليهم، لأنّ ارتباط المسلم بقربى النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هو سبب إضافي في هدايته وفي ارتباطه بالنبيّ ﷺ وبرسالة الإسلام.

وإن قلت: إذا كانت مودّة القربى ليست أجراً للرسالة التي صدع بها النبيّ ﷺ فما الوجه ـ إذن ـ في تسميتها بالأجر في الآية المباركة؟ وكيف يكون ذلك أجراً

للنبيّ ﷺ مع أنّ نفعه عائد للأمة نفسها؟

قلت: ربّما كانت المناسبة في اعتبار المودة أجراً ـ للنبي ﷺ أنّ من طُلب من الأمة مودتهم هم قربى النبيّ ﷺ وخاصته من أهل بيته، فيكون في الارتباط العاطفيّ بهم شيءٌ من الوفاء لرسول الله ﷺ، وهذا الارتباط في ظاهر الأمر يوحي أنّ في ذلك تعويضاً للنبيّ ﷺ على جهده وتعبه في تبليغ الرسالة، فبهذا الاعتبار الشكلي والمناسبة الصوريّة والظاهرية عبّرت الآية عن ذلك بالأجر، وإلاّ فإنّ الأمّة في العمق وفي واقع الأمر هي المستفيدة والتي يصلها أجر المودّة وبركاتها أكثر ممّا يصل ذلك إلى النبيّ ﷺ بشكل شخصي، ومن هنا نفهم مغزى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ ٤٧].

ويشير بعض الأعلام[1] إلى وجه آخر يقتضي تسمية مودة قربى النبيّ ﷺ أجراً للرسالة، وهو أنّ هذه المودة التي أمر بها الناس تجاه الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام قد تكلّف هؤلاء الناس ثمناً باهظاً، بل إنّ موالاة أهل البيت عليهم السلام ومودتهم قد كلّفتهم فعلاً الكثير من المعاناة والآلام والتضحيات، ولذلك سمّيت أجراً، فأجر الرسالة هو في هذا العناء والجهد الذي يترتب على مودتهم عليهم السلام، وفي هذا الأذى والصبر في مواجهة التحدّيات والصعاب التي ستعترض المسلم المتّبع لنهج النبيّ ﷺ والموالي لأهل بيته عليهم السلام.



(١) أنظر: معطيات آية المودة للسيد محمود الهاشمي ص١٥.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الصحيفة السجادية.
٣ ـ الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، إيران، ١٤٠٤هـ.
٤ ـ الإسكافي، الشيخ محمد بن همام (ت: ٣٣٦هـ)، التمحيص، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، قم ـ إيران.
٥ ـ أمين، أحمد، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩م.
٦ ـ ابن أبي الدنيا، الحافظ عبد الله بن محمد بن عبيد (ت: ٢٨١هـ)، الصمت وآداب اللسان، تحقيق: الدكتور محمد أحمد عاشور، دار الاعتصام، مصر ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
٧ ـ الأشتري، ورّام بن أبي فراس (ت: ٦٠٥هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٣٦٨هـ. ش.
٨ ـ الآملي، الشيخ محمد تقي (ت:١٣٩١هـ)، مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى، مطبعة الفردوسي ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ.
٩ ـ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي القرطبي(ت:٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي

محمد البجاوي، دارالجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٠ ـ الأحسائي، محمد بن علي بن أبي جمهور (ت: أوائل القرن العاشر الهجري)، مجلي مرآة المنجي، تحقيق: محمد علي رضا بول فارمد، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر، بيرروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.
١١ ـ الأحسائي، نفسه، عوالي اللآلي، تحقيق: آية الله المرعشي النجفي والشيخ مجتبى العراقي، مكتبة آية الله المرعشي، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م
١٢ ـ ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني (ت: ٥٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، انتشارات علامة، قم ـ إيران.
١٣ ـ ابن أبي الحديد المعتزلي (ت: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية، بيروت لبنان.
١٤ ـ أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني(ت:٧٥هـ)، سنن أبي داوود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
١٥ ـ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م.
١٦ ـ ابن الأثير، (بن أبي الكرم)، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بالشيباني (ت: ٣٦٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
١٧ ـ ابن حبّان، محمد بن حبّان التميمي السجستاني (ت:٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان بترتيب علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق: شعيب

الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
١٨ ـ ابن حنبل، الإمام أحمد(ت:٢٤١هـ) مسند أحمد، دار صادر، بيروت.
١٩ ـ ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني(ت:٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
٢٠ ـ البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.
٢١ ـ البرقي، أحمد بن محمد بن خالد (ت: ٢٧٤هـ)، المحاسن، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية ـ إيران.
٢٢ ـ البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٢٣ ـ البكري الدمياطي، أبو بكر بن محمد شطا (ت: ١٣١٠هـ)، حاشية إعانة الطالبين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٢٤ ـ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت:٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، دار الفكر ـ بيروت.
٢٥ ـ الترمذي، محمد بن عيسى (ت:٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، تحقيق: عبد الوهّاب عبد اللطيف، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٠٣هـ.
٢٦ ـ الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ)، الصحاح، أو تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد ابن عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
٢٧ ـ جدعان، الدكتور فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، دار الشروق

للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.
٢٨ ـ الجصّاص، أحمد بن علي الرازي (ت: ٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٢٩ ـ الحلي، محمد بن أحمد بن إدريس العجلي (ت: ٥٩٨هـ)، مستطرفات السرائر، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
٣٠ ـ الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ)، كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، تحقيق: حسين الدركاهي، طهران ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.
٣١ ـ الحلي، أحمد بن محمد بن فهد (ت: ٨٤١هـ)، التحصين، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
٣٢ ـ الحلي، محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر المعروف بـ «فخر المحققين» (ت: ٧٧١هـ)، إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد، تحقيق: السيد حسين الموسوي الكرماني والشيخ علي بناه الاشتهاردي والشيخ عبد الرحيم البروجردي، المطبعة العلمية، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ.
٣٣ ـ الحسكاني، الحافظ عبيد الله بن عبد الله بن أحمد المعروف بـ «الحاكم الحسكاني» (ت: أوائل القرن الخامس هجري)، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: محمد باقر المحمودي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٣٤ ـ الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت: ١١٠٤هـ)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة المعروف اختصاراً بـ «وسائل الشيعة»،

مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٣٥ ـ الحر العاملي،نفسه، أمل الآمل في علماء جبل عامل، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتبة الأندلس، العراق ـ بغداد، الطبعة الأولى.
٣٦ ـ الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة (القرن الرابع الهجري)، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
٣٧ ـ الخوئي، الميرزا حبيب الله الهاشمي (ت: ١٣٢٤هـ)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، الطبعة الرابعة، بنياد فرهنك الإمام المهدي، طهران ـ إيران.
٣٨ ـ الخشن، حسين أحمد، هل الجنة للمسلمين وحدهم؟، المركز الإسلامي الثقافي ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
٣٩ ـ الخشن، نفسه، الإسلام والبيئة ـ خطوات نحو فقه بيئي، دار الملاك، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٤٠ ـ الخشن، نفسه، العقل التكفيري قراءة في المنهج الإقصائي، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
٤١ ـ الخشن، نفسه، عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء، دار الملاك، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٤٢ ـ الخشن، نفسه، في بناء المقامات الدينينة المشروعية، الأهداف، الضوابط، المركز الإسلامي الثقافي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٤٣ ـ الخشن، نفسه، حقوق الطفل في الإسلام، دار الملاك، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٤٤ ـ الخشن، نفسه، أصول الاجتهاد الكلامي، مخطوط.

٤٥ ـ الدارمي، عبد الله بن بهرام (ت:٢٥٥هـ)، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق، ١٣٤٩هـ.

٤٦ ـ الراوندي، قطب الدين (ت: ٥٧٣ هـ)، الخرائج والجرائح، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٧ ـ الرازي، محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي(ت: ٦٠٦هـ) التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، لا. ت.

٤٨ ـ راسل، برتراند، السلطان ـ آراء جديدة في الفلسفة والاجتماع، ترجمة: خيري حمّاد، دار الطليعة، بيروت ـ لبان، الطبعة الأولى، ١٩٦٢.

٤٩ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٥٠ ـ السيوطي، نفسه، الدر المنثور في التفسير بالماثور، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٥١ ـ سلامة، بولس، عيد الغدير، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية.

٥٢ ـ الشربيني، محمد بن أحمد (ت: ٩٧٧هـ)، مغني المحتاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٩٥٨م.

٥٣ ـ الشريف الرضي، محمد بن الحسين(ت:٤٠٦هـ)، نهج البلاغة، تعليق وشرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٥٤ ـ الشريف الرضي، نفسه، خصائص الأئمة، تحقيق: محمد هادي الأميني، مجمع البحوث الإسلامية التابع للحضرة الرضوية المقدسة، مشهد ـ إيران، ١٤٠٦هـ.

٥٥ ـ الشريف الرضي، نفسه، المجازات النبوية، تحقيق: طه محمد الزيني، بصيرتي، قم ـ إيران، لا. ط، لا. ت.
٥٦ ـ الشهيد الثاني، زين الدين الجبعي (ت: ٩٦٦هـ)، كشف الريبة عن أحكام الغيبة، انتشارات مرتضوي، طهران ـ إيران، الطبعة الرابعة، ١٣٧٦هـ.ش.
٥٧ ـ الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.
٥٨ ـ الصدر، السيد محمد محمد صادق، ما وراء الفقه، المحبين للطباعة والنشر، قم ـ إيران، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧م.
٥٩ ـ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت:٣٨١هـ)، الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٣هـ.
٦٠ ـ الصدوق، نفسه، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.
٦١ ـ الصدوق، نفسه، ثواب الأعمال، تحقيق وتقديم: السيد محمّد مهدي حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٣٦٨هـ.
٦٢ ـ الصدوق، نفسه، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ العراق، ١٩٦٦م.
٦٣ ـ الصدوق، نفسه، التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٣٨٧هـ.ش.
٦٤ ـ الصدوق، نفسه، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
٦٥ ـ الصدوق، نفسه، الأمالي، مؤسسة البعثة، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٦٦ ـ الصدوق، نفسه، معاني الأخبار، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، ١٣٧٩هـ.

٦٧ ـ الطبرسي، أحمد بن علي(ت:٥٦٠هـ)، الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان، النجف، ١٩٦٦م.
٦٨ ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن (من أعلام القرن السادس الهجري) مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٦٩ ـ الطبرسي، نفسه، جوامع الجامع، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ. ج٣ ص٢٥٦
٧٠ ـ الطبرسي، الحسن بن الفضل (ت: ٥٤٨هـ)، مكارم الأخلاق، الناشر: منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٧١ ـ الطبري (الشيعي)، محمد بن جرير بن رستم، (من أعلام القرن الخامس الهجري)، دلائل الإمامة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٧٢ ـ الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك المعروف بـ «تاريخ الطبري»، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٧٣ ـ الطبراني، سليمان بن أحمد(ت:٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية.
٧٤ ـ الطبراني، نفسه، المعجم الأوسط، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ـ القاهرة، ١٩٩٥م.
٧٥ ـ الطوسي، محمد بن الحسن (ت٤٦٠)، مصباح المتهجد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٧٦ ـ الطوسي، نفسه، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ أحمد قصير، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٧٧ ـ الطوسي، نفسه، الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، تحقيق: منشورات مكتبة جامع جهلستون، مطبعة الخيام ـ قم، ١٤٠٠هـ.
٧٨ ـ الطوسي، نفسه، اختيار معرفة الرجال، تعليق: المحقق الميرداماد (ت: ١٠٤١هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران.
٧٩ ـ الطهراني، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
٨٠ ـ عاصي، الشيخ موسى مفيد الدين، صراط النجاة (استفتاءات السيد الخوئي مع تعليقة الشيخ التبريزي)، دفتر نشر بركزيده، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤١٦هـ.
٨١ ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت: ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
٨٢ ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (ت:٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.
٨٣ ـ القمي، علي بن محمد الخزاز (ت: ٤٠٠هـ)، كفاية الأثر، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري، انتشارات بيدار، قم ـ إيران، ١٤٠١هـ.
٨٤ ـ القمي، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، تحقيق: السيد طيب الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
٨٥ ـ الكاشاني، حبيب الله (ت: ١٣٤٠هـ)، ذريعة الاستغناء في تحقيق مسألة الغناء، الطبعة الأولى، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤١٧هـ.
٨٦ ـ الكراجكي، محمد بن علي (ت: ٤٤٩هـ) كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، الطبعة الثانية، قم ـ إيران، ١٣٦٩هـ. ش.

٨٧ ـ الكوراني، الشيخ علي، جواهر التاريخ، دار الهدى، قم ـ إيران، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

٨٨ ـ الكفعمي، الشيخ إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح العاملي، المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

٨٩ ـ الكليني، محمد بن يعقوب (ت: ٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨هـ.

٩٠ ـ المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (ت:٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حيّاني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م/ ١٤٠٥هـ.

٩١ ـ المجلسي، محمد باقر(ت:١١١١هـ)، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٩٢ ـ المجلسي، نفسه، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٩٣ ـ المجلسي، محمد تقي (ت: ١٠٧٠هـ)، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، تحقيق: السيد حسين الموسوي الكرماني والشيخ علي بناه الاشتهاردي، ناشر: بنياد فرهند إسلامي، إيران.

٩٤ ـ المرعشي، السيد شهاب الدين، شرح إحقاق الحق، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ـ إيران، ١٤١٨هـ.

٩٥ ـ المدني، السيد علي خان، (ت: ١١٢٠هـ) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد العابدين، تحقيق السيد محسن الحسيني الأميني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ.

٩٦ ـ معن، الشهيد الشيخ حسين (١٤٠٠هـ)، نظرات في الإعداد الروحي.

٩٧ ـ معلوف، أمين، الهويات القاتلة، دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٤م.

٩٨ ـ المفيد، الشيخ محمد بن محمد النعمان العكبري(ت:٤١٣هـ)، الأمالي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤١٤هـ.

٩٩ ـ المفيد، نفسه، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٠٠ ـ المصري، القاضي نعمان بن محمد بن منصور (ت: ٣٦٣هـ)، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

١٠١ ـ المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بـ «أبي طالب المكي»، (ت: ٣٨٦هـ)، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٠٢ ـ النسائي، أحمد بن شعيب (ت: ٣٠٣هـ)، السنن، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م.

١٠٣ ـ النعماني، الشيخ محمد بن إبراهيم بن جعفر الكاتب المعروف بالنعماني (ت: ٣٦٠هـ)، الغيبة، تحقيق: فارس حسّون كريم، الناشر: مدين، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٠٤ ـ النيسابوري، محمد بن الفتّال (ت: ٥٠٨هـ)، روضة الواعظين، منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران.

١٠٥ ـ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، دار الفكر ـ بيروت.

١٠٦ ـ النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم (ت:٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان لا.ط.

١٠٧ ـ النوري، المحدث الشيخ حسين الطبرسي النوري (ت: ١٣٢٠هـ)، اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر، تعريب: الشيخ إبراهيم البدوي، دار البلاغة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

١٠٨ ـ الهاشمي، السيد محمود، معطيات آية المودة، قم ـ إيران.

١٠٩ ـ الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر(ت: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٨٨م.

١١٠ ـ الهيثمي، أحمد بن حجر (ت: ٩٧٤هـ)، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.

١١١ ـ الواسطي، علي بن محمد الليثي (القرن السادس الهجري)، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: السيد حسين الحسني البيرجندي، دار الحديث،قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

فهرس الكتاب



نبذة عن المؤلف

الشيخ حسين أحمد الخشن

* مواليد سحمر - البقاع الغربي - لبنان 1966/11/15.
* التحق بالحوزة العلمية في لبنان منذ 1983 إلى 1987.
* التحق بالحوزة العلمية في قم منذ عام 1987 إلى 2000م.
* مدير دائرة الحوزات في مكتب المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله.
* أستاذ الدراسات العليا في مادتي الفقه والأصول في المعهد الشرعي الإسلامي في بيروت.
* شارك في العديد من المؤتمرات في لبنان و كندا و مصر و البحرين و الكويت و السعودية.
* عضو هيئة أمناء مؤسسات المرجع الراحل السيد فضل الله.

* صدر له العديد من المؤلفات، منها:

1 - الإسلام والعنف.. قراءة في ظاهرة التكفير. (طبعة ثانية).
2 - الإسلام والبيئة.. خطوات نحو فقه بيئي. (طبعة ثانية).
3 - في فقه السلامة الصحية.. التدخين نموذجاً. (طبعة ثانية).
4 - فقه القضاء 1 و2 تقريراً لدروس المرجع الراحل السيد فضل الله.
5 - الشريعة تواكب الحياة.
6 - من حقوق الإنسان في الإسلام. (طبعة ثانية).
7 - حقوق الطفل في الإسلام.
8 - عاشوراء.. قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء.
9 - الحر العاملي.. موسوعة الحديث والفقه والأدب.
10 - حكم دخول غير المسلمين إلى المساجد. (دراسة فقهية).
11 - مشغرة في التاريخ.
12 - علامات الظهور.
13 - هل الجنة للمسلمين وحدهم؟
14 - تنزيهاً لرسول الله(ص)
15 - أصول الاجتهاد الكلامي(تحت الطبع).
16 - في بناء المقامات الدينية.. المشروعية، الأهداف، الضوابط.
17 - تحت المجهر.. قراءة نقدية في مفاهيم وسلوكيات ومعتقدات.
18 - إليكِ يا ابنتي.
19 - العقل التكفيري - قراءة في المنهج الإقصائي.
20 - وهل الدِّين إلّا الحُبّ؟

المواقع الإلكترونية

www.al-khechin.com
www.facebook.com/sh.khechin